obeikandl.com

قيد الفراشة

الكتاب: قيد الفراشة
المؤلف: شيرين سامي
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
تدقيق لغوي: أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع: 2013/21915
الترقيم الدولي: 978-977-6436-37-4

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02 35860372
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

قيد الفراشة

رواية

شيرين سامي

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى كل من حاولوا الخروج من الشرانق
وكلما قصّوا لهم أجنحتهم نبتت مرّة بعد مرّة

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

الشارع يكاد يكون خاليًا إلا من بعض المارة والشمس طيبة تنشر حبات النور برفق على الكون، على الرصيف بين حارتى الطريق رأت نفسها تسير بفُستان أحمر واسع يصل تمامًا فوق رُكبتيها، مزموم على خصرها، عارى الصدر، قصير الأكمام يُبرز مفاتنها على استحياء وبراءة، شعرها شلال كستنائى غجرى يتدافع على كتفيها وظهرها، تخطو بسرعة وحماس، حذاؤها ذو الكعب العالى يُصدر إيقاعًا موسيقيًا مميزًا مع كل خطوة، عيناها تبرقان بشُعاع الجاذبية ولمعة الثقة .. لا تهتم بنظرات البشر وعيونهم التى تُلاحقها. ولا تكترث بشيء سوى السير فى طريقها، نظرتها ثابتة وخطواتها مُصرّة على شيءٍ ما، لكن طريقها أفضى إلى مكان أكثر ازدحامًا تحُدّه الأسواق المُتخمة بالناس والمقاهى التى تعلوها سحابات الدُخّان الأبيض والأزرق، هناك رأت أُناس يغنون أهازيج لا تعرفها، يرقصون فى الطريق والبعض ينفخون النار من أفواههم، يركضون حولها فى كل اتجاه، كأنهم فى مولد، انتبهوا جميعًا لمرورها فحدّجوها بنظراتهم المُستهجنة.

حاولت أن تتحدث معهم فوجدت أن لغتها غير لغتهم، ازداد توترها وتصبب العرق من جبينها الناصع حتى ظهر هذا الغريب ذو العينين القويتين، نظر لها نظرات أحدّ من النصل، أمسكها من يدها فصمت الصخب من حولهما وارتدع الناس عنها، عشقت نظراته الثاقبة التى اخترقت روحها ونزعت الظلام الذى كان يُخيفها من البشر. مازالت لا تُشبههم لكنها سعيدة بينهم، لأنها برفقة هذا الغريب الذى رفعها لتسير معه فوق الأرض بشبرين، يتفقّدا كل شيء وينسابا فى الحارات والشوارع كمراهقين.

لكن ما لبث أن أفلت يدها وهى أقرب ما تكون إليه. فسقطت، لكنها لم تسقط شبرين إنّما سقطت سقوطًا مُذهلًا من فوق السحاب على الأرض، صرخت فلم تسمع صوتها، كأنه احتفظ به قبل أن يُفلتها.

طار فُستانها فى الهواء، أصبحت عارية كورقة شجر تحملها الرياح، تُمطر البكاء كسحابة مُحمّلة بالدموع، كانت تتضرع إلى الله بعُريّها وبكمها أن ينتهى كل شيء وتعود الفتاة الواثقة بالفستان الأحمر .. تسير ونظرتها ثابتة وخطواتها مُصرّة على شيءٍ ما.

وقفت فى الشبّاك صديقها الودود الذى قضت عليه أكثر من نصف عمرها، كانت وهى صغيرة ترقب الشارع منه تنتظر عودة والديها من العمل، وكبرت لتقف فيه تُناجى القمر وتُمارس هوايتها الليلية فى عدّ النجوم، كان منبر أحلامها وملاذها عند الضيق، لا تبكى إلا على ذراعه الحنون، وتشعر بعطف الخشب عليها وطبطبته على كتفها. مرت بها أيام وليال تنتظر بها ساعات طويلة ظهور هذا الشاب الذى كان يبتسم لها ويبعث لها رسائل الغرام بعينيه، ثم كبرت وأصبحت تنتظر فيها خطيبها، تُسلّى نفسها بعدّ السيارات إلى أن تظهر سيارته كفرس أزرق أصيل يُطل منها هو كفارس نبيل يُحيى محبوبته ببوق السيارة فيُثير سعادتها. وها هى الآن لازالت تنتظر فى شبّاك آخر فى بيت آخر شاهد منها الدموع، المُناجاة، الشوق، الغناء، السرحان، الملل، الضجر، حتى أصبح صديقًا جديدًا لها.

عندما تختلى بنفسها وتغرق فى خيالها الجميل، تراها بهذه الصورة بالفستان الأحمر كحلم يقظة لا تعرف معناه، لكنه يراودها كلما طالعت شارعًا أو طريقًا وتبتسم له بمرارة، فهى لن تكون أبدًا هذه المُختالة المُتحررة، لن يتغير عالمها مهما حدث، ولن تسقط، لأنها ليس مسموحًا لها بأن تُجازف وتطير. نظرت للقمر الذى بات هلالًا وحاولت بكل ما فيها أن تكون سعيدة هذه الليلة بالذات، فكم كانت تُمثل لها ليلة العيد دائمًا الأمل فى حدوث شيءٍ جديد، على غير العادة تقضيها هذا العام وحيدة.

كانت تقضيها من قبل بين أهلها فى حضنهم الدافئ، لا تنام من شدة الفرحة والتعب من مساعدة أُمها فى تنظيف السجاجيد وتعليق الستائر، ثم بدأت تقضيها فى زيارة قصيرة لهم تتلوها زيارة لأهل زوجها وقد التزمت بالبروتوكولات العائلية والابتسامات المرسومة بدقّة، والتى لا تدُل على شيء سوى فرحة العيد، ثم أصبحت لليلة العيد فرحة لسبب آخر، وهو الانتهاء من عبء المطبخ وإعداد الأطعمة والمشروبات المضاعفة فى رمضان، أمّا الآن هى تقضيها وحيدة لأول مرة لأن زوجها فى العمل ويخاف عليها أن تخرج للحياة وحدها بدونه.

فى ليلة عيد عرفته، فى إجازة صيفية على أحد شواطئ البحر الأحمر، كان حدثًا قويًا فى حياتها أن يُعجب بها رجل مثله فى دماثته، جاذبيته ورجولته التى استشعرتها بقلب فتاة لم تُكمل عامها العشرين وهو رجل تعدى الثلاثين بقليل، الموضوع كان منتهى بالنسبة له، يُعاملها من أول لحظة وكأنها له لا محال، أُغرمت بأسلوبه وثقته، تفتّحت بين يديه كزهرة جميلة، عرفت معه الحياة التى لم تعرفها قبله، وكانت تظن الحياة هى البيت والنادى والجامعة، حتى وجدته يفتح لها أبوابًا أخرى أكثر متعة وإغراءً فى الحياة. فأصبحت مُرتبطة به، مُتكلة عليه، مُنصهرة فى شخصه كأنها خُلقت من ضلعه، اندفعت فى حبه بكل ما فيها كطائر يُحلّق فى سماء صافية ليس باستطاعة بشر أن يوقفه، وأصبح هو لها الدنيا، حتى إنها كانت تُنادى أهلها وأصدقاءها باسمه، وتُقبّل خاتمه الذهبى كل يوم، عرفت من وقتها أن العيد دائمًا سيحمل لها الكثير من المفاجآت.

وصلت مروة صديقتها الوحيدة وجارتها، فى مدينة القاهرة الجديدة الهادئة الواسعة تُعتبر جارة مُنطلقة وحلوة المعشر مثل مروة كنزًا ونعمة كبيرة، كانت تكبرها بأعوام قليلة، فتاة تنطق القوة فيها من شخصها ومن جسدها وعينيها، شاردة بعض الشيء كأنها تحتفظ بسرّ فى قلبها ولا تنفث شكواها وحزنها فيمن حولها. لذلك أحبّتها عالية وفضلتها على صديقاتها القدامى.

الهدوء يلف المدينة ولا مظاهر للعيد سوى شاشة التليفزيون الصغيرة، بعكس هذا الصخب الذى اعتادت عليه فى صباها من مُعايدات الأهل والجيران وصوت المُفرقعات والأغانى، ولعب الأطفال على الدرج وأمام البيوت، الآن عيدها هو اجترار الذكريات أمام شاشة التليفزيون، تابعا بشغف المفتى يُعلن أن اليوم هو المُتمم لشهر رمضان وأن غدًا هو أول أيام عيد الفطر المُبارك، نسمة من الفرحة تسللت لكل القلوب عند هذه اللحظة أرغمت الجميع على الفرحة بالعيد ولو لدقائق يعودوا بعدها مرة أُخرى لدوامة الحياة وأحزانهم وعذاباتهم، فى هذه اللحظة السعيدة لمعت عينا مروة وقد دارت بذهنها فكرة:

(ماذا لو خرجنا؟)

صمتت عالية بحيرة وتردد، فهى لم تعتد منذ زواجها أن تخرج بدونه، هو من عوّدها على هذا ويغضب دائمًا عندما تُلمّح أنها ستخرج وحدها لأى سبب، مروة اتصلت بزوجها حسام بالفعل وأخبرته بنبأ «الخروجة»، أما هى ففشلت أن تُبلّغ زوجها محمود لأن خطوط الهواتف المحمولة أصابها الشلل نتيجة كثافة الاتصالات والتهانى، إلحاح مروة ورغبتها الدفينة فى الخروج والتمرد الذى يشبه تمرد طفل على أبيه، جعلاها توافق على الخروج بشرط أن يعودا مُبكّرًا، تمردت عالية .. فالتمرد عادة نوع من غرور الضعفاء.

مروة لم تكن فتاة قليلة الحيلة مثل صديقتها، انطلقت تقود سيارتها بسعادة وهى تترنم بإحدى الأُغنيات وتتمايل، وتدُقّ بإيقاع مُنتظم على عجلة القيادة، مما أدخل الكثير من الفرحة على قلب عالية التى كانت تجلس بجوارها فى ذهول، فقد نسيت كيف هو الخروج مع الأصدقاء، أعوام عديدة وهى لا تستقلّ سوى سيارته، تجلس جواره يتبادلان الصمت والشرود مع خلفية باهتة لأغانى الراديو المتشابهة، حتى كريم ابنها ومَلَك ابنة مروة كانا يحدقان فى الشوارع من وراء زجاج السيارة فى بهجة تملكت الجميع.

لم تتخلص عالية بعد من قلقها، تُطالع هاتفها كل دقيقة ومازالت الشبكة لا تعمل، راحت تسأل مروة بتوتر واضح عن وجهتهما.

(مركز تُجارى جديد يحوى ملاهٍ للأطفال ودكاكين ملابس للماركات العالمية)

كررت مخاوفها من التأخير عدة مرات ولم تجد من صديقتها إلا التجاهل فلاذت بالصمت، طارت بخيالها لذكرياتها البعيدة أيام الكلية، أيام الصداقة والحب، الدفء الأسرى والحنان المتدفق بعذوبة، أيام العشق الملتهب بينها وبين محمود، قبل أن تخمد النار وتتحول لنور صغير بالكاد يُضيء حياتها، الأغانى كانت تُداعب مشاعرها وتُذكّرها بالفتاة داخلها بعد أن نسيتها فى خضم زخم الحياة وانغماسها فى دورها كزوجة وأم وفقط. مضى وقت لم تُقدّره حتى وقفت السيارة أمام مركز تُجارى كبير شديد الضخامة والأناقة، طالعته باندهاش فهى لم تتخيل وجود مبنى بهذا المعمار الحديث الأنيق فى مصر، حياتها كلها كانت بين البيوت، بيتها، بيت والدتها وبيت حماتها، ونادى قريب يسمح لها زوجها بالذهاب إليه من أجل الصغير.

كانت تتجول فى المكان كسجينة تم الإفراج عنها توًّا، كم سمعت عن المراكز التُجارية الجديدة وطلبت من محمود زيارتها لكنه كان يتهرب من طلبها دائمًا، بالتجاهل تارة وبالاستخفاف به تارة أخرى، كانت تُفكّر فى محمود دائمًا بطريقة مَرضيّة كأنهُ يستعمر كل خلاياها، ليس حبا فيه فقط لكن رضوخًا له، كلامه دائمًا يملأ أذنها وعقلها، أفكاره تُسيطر على أفكارها، آراؤه تسحق آراءها، وحضوره يغلبها وكأنه يُلاعب كل مشاعرها كعرائس الماريونيت.

انطلق الأطفال نحو بهرجة الملاهى التى احتلت نصف المكان، كانت تسير معهم مبهورة وصامتة كأنها مُسيّرة، حتى أمسكتها صديقتها من يدها وقالت ضاحكة:

– إلى أين يا صغيرتى؟ لقد كبرت على الملاهى .. هناك «كافيه» قريب يمكننا الجلوس فيه.

- وهل سنترك الطفلين وحدهما؟ إنهما صغيران!

- أنتِ الصغيرة يا عالية .. تحرري قليلًا من طفولتك، إنهما أنصح منك على كل حال.

صمتت باستسلام، فالطفولة هى الصفة التى ينعتها بها دائمًا، يمقتها، ويتمنى أن يئد تلك الطفلة فيها التى أحبها يومًا ما، دخلا المقهى المزدحم واستقبلتهما رائحة القهوة فى حفاوة، مرت بنظرها على الموائد الصغيرة المكتظّة حتى وقعت عيناها عليه، إنه هو محمود زوجها، لا تدرى إن كان قلبها توقف أم خُطف فلم يعُد بمكانه، سينهرها بالتأكيد على قدومها هنا دون إذنه، سيوبخها ويُعاقبها بكل تأكيد، ولكن من هذه المرأة جواره؟! إنه يُحدّثها فى عينيها كأيامهما الأولى، يُمسك بيدها وكأنها إحدى ممتلكاته، مفاتيحه أو نظارته، إنه لن ينتبه لوجودها أبدًا فكل ما فيه فى حديث متصل مع كل ما فى هذه المرأة.

وكأن يدًا خفية انتزعت قلبها من مكانه وألقت به على الأرض، لم تدر بنفسها إلا وهى داخل دورة المياة الخاصة بالمقهى، لا تعرف كيف قادتها قدماها إليها، ولا تدرى كيف تيقنت مكانها دون وعى منها، جلست على كرسى صغير مخصص للرضاعة، أخفت وجهها بيدها ونزفت دموعًا ليس لها نهاية، دخلت مروة مسرعة خلفها وراحت تضمها بحنان امرأة على امرأة، وهو نوع غريب من الحنان ليس فى رقة حنان الأم لابنها وليس فى دفء حنان المرأة للرجل، ولكنه حنان قوى يشُد على القلب ويربُت عليه بصدق. حاولت أن تُساعدها على النهوض، لكن عالية قد تجرّدت من كل قواها وحواسها، شعرت مروة بالدوار الذى يُسيطر على صديقتها، أشفقت على ضعفها فتركتها حتى تنتهى نوبة الفزع والحزن التى تملكتها، لم تلحظ عالية هذه المرأة التى كانت تُجالس زوجها وهى تدخل عليهم دورة المياة، تُصفف شعرها الأسود بيدها وتضع المزيد من مُلمع الشفاه، ثم تنتبه على صوت نهنهة يصدر من امرأة صغيرة تجلس فى ضعف كامل، أفاقت عالية على صوت المرأة وهى تسألها بقلق:

- ماذا بك؟ ماذا هناك يا حبيبتى؟

نظرت لها من وراء دموعها وعرفتها، قالت ساخرة بداخلها «حبيبتك .. أم زوجة حبيبك؟» .. لم يُذهلها أن تجد هذه المرأة بالذات هنا، تراها فى هذه الحالة وتسألها عن حالها، فصدمتها كانت أكبر من أى ذهول، مدّت المرأة يدها لعالية ببعض المناديل الورقية التى أخرجتها من حقيبتها، ووجهت سؤالها هذه المرة لمروة:

- ماذا حدث من أجل كل هذا؟ ماذا يستحق كل هذا؟

وقبل أن تردّ مروة قالت عالية بثبات ونحيب مُرّ: مات زوجى ...

ربتت المرأة على كتف عالية وفى عينيها صدمة وحزن كأنها تعرفها من قبل:

أنا آسفة .. لابد أنك عرفت الخبر الآن .. البقاء لله والصبر لكِ حبيبتى.

اندهشت عالية من إصرارها على مُنادتها بحبيبتى، إنها تعلم أنها عادة بين الصديقات ولكنها ليست عادة بين الأغراب، تمتمت بكلمات شُكر غير مسموعة، مدّت المرأة يدها فى حقيبتها مرة أخرى وأخرجت بطاقة صغيرة مُلوّنة بشكل مُبهج وذوق راق، مكتوب عليها (فرح بيوتى سنتر).

طلبت منها أن تزورها عندما تسمح الظروف وربتت على كتفها مرة أخرى ثم ودعتها، تركتها وقد جفت دموع ضعفها .. ربما للأبد.

الطريق شبه مظلم، قلبها يخفق فى اضطراب وخطواتها تتسارع فى خوف، لقد تأخر الدرس وعليها أن تعود وحدها، لكن اضطرابها زاد بشدة عندما ظهر هذا الفتى الذى اعتاد أن يرافقها من بعيد من وقت خروجها من المركز حتى وصولها للبيت، وبرغم تأخرها نصف ساعة إلا أنه كان فى الانتظار، رمقته بنظرة سلام خجل واطمأن قلبها بتواجده القريب، لكنه اليوم اقترب أكثر حتى أصبحت تسمع خطواته بوضوح، ودون مقدمات ناداها «آنسة عالية»، تسمّرت للحظات قبل أن تدير وجهها له ولأول مرة تلاحظ وجهه الأسمر دقيق الملامح وظلًا من شارب يستدير حول فمه، لم تنطق.

- هل تسمحى لى بأن نتحدث لخمس دقائق؟ بصوتٍ مختنق: لا.

أنا فى مدرسة الفرير فى السنة النهائية و ...

- هذا لا يعنينى.

- حسبت أنك...

- أنت مُخطئ .. أنا لا أريد التحدث إليك.

لفّت بسرعة وهرولت وهى تسمعه يقول بنبرة معاتبة «أنا معجب بك .. كنت تنظرين لى أيضًا!»، استمرت فى الهرولة حتى وصلت البيت فى حالة مزرية من الارتباك، أغلقت باب غرفتها واستلقت على سريرها. صدرها يعلو وينخفض بشدة، تتذكر وجهه فتبتسم، تتذكر كلماته «أنا معجب بِك» فينتفض قلبها فى سعادة، هى أيضًا كانت تتمنى أن تتحدث معه لولا محاذيرها الكثيرة وتربيتها المُحكمة التى لم تترك لها ثغرة لتخرج عن تقاليدها، فهى تسير فى حياتها كالقطار على قضيب من صُنع أهلها فى اتجاهات يحددها المجتمع والناس، أدارت شريط كاسيت وراحت ترقص لساعة كاملة فرحة، خائفة، حزينة، قلقة.

حتى وقفت أمام المرآة تتفحص جسدها، ربما لأول مرة تتعرى أمام المرآة وتلاحظ الانتفاخ الصغير الذى طرأ على نهدها فاستوى كحبات البرتقال السُّكرى، والالتفاف الغريب الذى لفّ جسدها، فخصرها يكاد ينثنى من نحافته التى تنتهى بانتفاخ آخر أكبر، لأول مره تفكّر فى جسدها وتنشغل به، تلمسه برهبة وكأنه شيء مقدس، تفكّر فى مواطن جماله واستدارته، وفى أى مشدّ صدر سيُناسبها أكثر، لم تكن تريد أن تخفيه وتضغط عليه، ولا كانت تريد أن تظهر بروزه، فقط كانت تريد أن تشعر بأن الأنوثة زارتها وتركت هداياها الثمينة على جسدها، لكن أمها قطعت عليها هذا التأمل عندما دقت الباب عدة مرات ثم طلبت منها لسبب لم تفهمه ألا تغلق باب غرفتها عليها أبدًا.

ولأنها كانت تظنّ أنها صديقة لأمها حكت لها عن هذا الشاب، كانت تتمنى بداخلها أن تجد أنه كانت هناك طريقة أخرى للرد عليه، كانت تتمنى أن تسألها

أمها عنه أو حتى أن تسمع منها حواديت عن قصص مُشابهة تقودها للتصرف السليم، ولكن ما حدث كان عكس توقعاتها تمامًا، ثارت أمها ووصفتها بالـ (ممرقعة) خاصة بعد أن وجدت كلمات لنزار قبانى كانت تحتفظ بها فى كراسة تخفيها فى خزانة الملابس، من يومها أصبحت تذهب للمركز فى صُحبة والدتها ثم يأتى والدها ليصطحبها فى طريق العودة، لم يظهر الشاب مرة أخرى، ومثل كل قصصها الصغيرة، انتهت قصته قبل أن تبدأ.

❋❋❋

obeikandl.com

(٢)

على العكس من حالتهم عند الذهاب؛ كان طريق العودة طويلًا، الطفلان نائمان مُنهكان من كثرة اللعب، مروة تقود السيارة بسرعة وهى صامتة، أمّا عالية فكانت تنظر من الزجاج الجانبى على الطريق دون أن ترى شيئًا، قطعت مروة صمتهم المجروح بمحاولة لإشاعة المرح:

- أظنك لن تنسى هذه الليلة .. إنها أول ليلة عيد تقضيها فى الحمّام.

ردت عالية بوهن: وماذا كان على أن أفعل؟

- كان لابد أن نستكمل نزهتنا .. كان يجب أن تتجاهلى الموقف ونجلس سويًا فى المقهى.

- كان سيرانى.

- كان يجب أن يراكِ حتى لا يُنكر عندما تواجهينه.

- ومن قال أنى سأواجهه؟

صرخت بها مروة: يجب أن تواجهيه .. كفاكِ ضعفًا!

لم ترد عالية، فلم تكن تلك هى المرة الأولى التى يُقال عنها إنها ضعيفة، ولم تكن مروة فقط من قالتها، فخاصة بعد زواجها كانت هذه هى الصفة المُعتاد نعتها بها، من زوجها، من والدتها، من أخيها، من قريباتها، ولم تكن تُغضبها الكلمة، فكانت ترى أنها مُطيعة لزوجها ومُصرّة على إرضائه عن حب وليس عن ضعف، لكن اختيارها الآن لعدم مواجهته، ليس لأنها ستُسامحه أو ستتجاهل ما حدث، لكن لأنها لا تقوى على سماع كذبه وإنكاره، فهو بارع فى جعلها

الجانى وهو المجنى عليه، ناهيك عن أنها قليلة الكلام ولا تملك موهبة الحوار، أما هو فهذه موهبته الحقيقية، كانت تُفكّر فى مواجهة من نوع آخر.

عادت للمنزل وكل شيء عاد لطبيعته، لم تبك من يومها أبدًا، حتى إنها أحيانًا كانت تستحث نفسها على البكاء لكن الدموع فقدت طريقها لعينيها أو كأنها قررت ألا تزورها أبدًا، فكانت تضحك بلا روح وتبتسم بدون مناسبة فقط لتُدارى ما يعتلج فى صدرها ولتتجنب أن يسألها أحدهم (ماذا بك؟)، كانت حريصة على ألا تنظر فى عينيه، ولا تتجاوب مع أى لمسة أو تلميح منه، وهو لم يهتم كعادته فهو لا يُلاحظ أى تغيير فى مزاجها، لم يُلاحظ أيضًا لون شعرها عندما صبغته ولم يُلاحظ قطع الملابس الجديدة التى كانت ترتديها، ولم يُلاحظ شحوبها عندما كانت تُعانى من التهابات نسائية مؤرّقة وأخفت عليه الأمر، فكيف يُلاحظ الآن أنها بلا روح، أو ربما لاحظ وتجاهل الموضوع برمّته تجنبًا للمشاكل، واستمر فى غيابه عن المنزل، طبيعته الحادة، أوامره، نواهيه، وصُراخه المستمر.

مرّ أسبوعان على أسوأ ليلة عيد مرت بها، كانت تقضى معظم وقتها بدون تركيز وبلا عقل، عقلها كان مُسخّرًا للتفكير فى هذا الرجل الذى طالما احتل كل بقاعها، كانت تفكّر فيه بشكل مختلف، بشكل حزين، بفعل الماضى .. كان .. وكأنه غاب عن حاضرها وسقط عن مستقبلها، هو مجرد (كان). شغلتها العديد من التساؤلات، ليست التساؤلات العادية، لماذا؟ ومتى؟ ومع من؟ ولكنها كانت تسأل نفسها .. ماذا يستحق من فعل هذا بى؟ وكيف أفسد حياته كما أفسد حياتى؟ وكيف أكون سعيدة بدونه؟، شرعت الإجابات تتضح عندما قررت أن تبدأ فى المواجهة، وعلى غير عادتها المترددة، الجبانة تجاه كل ما هو جديد، وعلى غير طريقتها التقليدية فى السير والنوم والحياة جوار أقرب حائط، وجدت بداخل نفسها بؤرة من الجُرأة لم تكن تدرِ بوجودها، فوجئت بها مروة عندما طلبت منها عالية أن تُرافقها فى الذهاب إلى «فرح بيوتى سنتر» فى مدينة السادس من أكتوبر.

وافقت فورًا ليس فقط تعاطفًا مع صديقتها ولكن لطبيعة الفضول فى المرأة، فحياة مروة المملة تجعلها تشتاق لمعرفة تفاصيل أكثر ومواجهة مواقف أغرب.

استقلتا سيارة مروة وانطلقتا فى طريق المواجهة، عالية كانت تعبة وملامحها مرهقة، فهى لم تنم من شدة التفكير فى غريمتها، تتساءل أى نوع من النساء هى، طريقتها تقول إنها جريئة، لكن هل هى جُرأة حميدة كنوع من الاجتماعية الزائدة، أم أنها جُرأة وقحة تندرج تحت أنواع السفالة، الأسئلة حاصرتها طوال الليل فلم تترك للجفون فُرصة للاسترخاء. وصلتا للمكان بعد وقتٍ طويل قضتاه على الطريق، وهناك كانت فرح، لم يستعص عليها تذكّرهُما، استقبلتهما بحفاوة كبيرة وكثير من القبلات والابتسامات، كانت فرحة ومشرقه غير متكلفة وتتحدث دون انقطاع، على العكس منها، فهى مُتحفّظة إلى حَدٍّ كبير ولا تعتاد على الناس بسهولة. كان الحوار بينهما دافئًا، فكانت فرح لديها المقدرة على معاملة الناس وكأنهم أصدقاء عُمر، وكان هذا واضحًا من لقائهن الأول.

عرفت عنها عالية أنها تعيش وحدها، والداها يعملان بدولة الإمارات، لا يزوران مصر إلا مرة كل عام، وأختها الوحيدة متزوجة، كما عرفت أنهما اشتريا لها هذا المحل وتكفلا بجميع المصاريف، المشروع الذى طالما تمنت أن تُديره، لم تتوقف فرح عن الحديث والضحك ولكنها لم تذكر شيئًا عن محمود، ولم تسألها عالية. بمجرد أن انتهتا من تصفيف شعريهما انصرفتا بعد أن اتفقتا معها على موعد للذهاب للسينما فى المركز التجارى الجديد فى عطلة نهاية الأسبوع، بالتحديد يوم الخميس الذى تعلم عالية أن محمود يقضيه مع أصدقائه منذ أن عرفته.

وجاء يوم الخميس بعد أن قضت يوم الأربعاء بأكمله تُقنع زوجها بالذهاب للسينما القريبة مع مروة، وأخيرًا منحها موافقته الغالية، كان لقاؤها الثالث بفرح، ولم تكن تتعذب من رؤيتها أو تغار منها كما ظنّت مروة، كانت تُراقبها، تستكشفها، تدرسها وتعرف ما هى نقاط ضعفها وقوتها حتى تكون خطتها

عن علم. بدأت بمقارنة الشكل؛ فهى جميلة وتعرف هذه الحقيقة منذ الطفولة، بيضاء رشيقة القوام، بعينين واسعتين شجريتين، أنف مستقيم، ثغر مستدير تُحدّه شفتان ممتلئتان، وشعر كستنائى ناعم منسدل كملاك طيب، الشيئان الوحيدان اللذان يُزعجانها فى شكلها هو هذا النمش الذى يُغطى أنفها وهذه البطن التى ظهرت لها بعد ولادة ابنها واستحالة عودتها كما كانت. أما فرح فهى خمرية بعينين صغيرتين سوداوين مسحوبتين بجاذبية، أقصر قليلًا من عالية وأكثر امتلاء، شفتاها أكبر وضحكتها أعرض، أما شعرها فهو أسود طويل مطلوق بحُريّة، على العكس من عالية التى ترتدى الحجاب، تعجبت كيف لزوجها الذى كان يُخبرها دائمًا عن ولعه بالبشرة البيضاء وعن قناعته التامة بالحجاب؛ أن يختار أن يخونها مع نقيضتها ونقيضة قناعاته!

انتهى الفيلم الذى لم تر منه مشهدًا واحدًا، إنما كانت ترى فيلمًا آخر أكثر واقعية، فهى بالرغم من كونها ترتدى رداء الشخصية المُتزنة الهادئة، قليلة الحيلة التى تبالى، إلا أن الجانب الآخر الذى لم يعرفه أحد أنها تمتلك عقلًا لا يتوقف عن التفكير والتحليل، وقد رسمت فى الأيام الماضية الخطوط العريضة لخطة استعادة كرامتها .. وليس زوجها. بعد انتهاء الفيلم جلسن فى أحد المطاعم لتناول بعض حلوى (السينابون)، وبعد التعليق من جانب مروة على أحداث الفيلم، انتهزت الفُرصة لتبدأ حديثها مع فرح محاولة بكل الطُرق أن تُظهر حميمية ليست من طبعها:

- لماذا لم تُفكّرى فى الزواج حتى الآن؟ أراك جميلة شخصًا وموضوعًا .. هل أصاب الرجال العمى؟

ردت فرح ضاحكة: فكّرت وأحببت أحدهم خمس سنوات، نرتبط وننفصل ثم نعود .. حتى انفصلنا يومًا دون عودة.

- خسارة.

- هو الخسران .. صحيح أنه تزوج بعد أقل من عام من الانفصال، لكن لا يهم، المهم أن تجدى من يُقنعك بنفسه، يتمسك بك، ويعشقك حد الذوبان.

- وهل وجدتِه؟

اضطربت فرح قليلًا قبل أن ترد بتردد: تقريبًا.

خفق قلب عالية قبل أن تسأل دون تفكير: من؟

اضطربت فرح أكثر وأبدت اندهاشًا من السؤال، فاستطردت عالية:

- أقصد .. هل استطعتِ أن تنسِ الأول بسهولة؟

- أنا وهشام تركنا بعضنا منذ أكثر من ثلاثة أعوام.

- ومتى عرفت الآخر؟

- منذ ستة أشهر تقريبًا.

- أتُحبّينه؟

- هو إنسان واثق من نفسه وهذا ما جذبنى إليه، رقيق، حنون، والأهم أنه يُحبنى .

- وأنتِ .. هل تحبينه؟

- أكيد.

إجابات كالخناجر فى قلبها وهى لا تكف عن الأسئلة.

- إذن لا مشكلة.

- للأسف هناك بعض المشاكل .. كعادة القدر لا يعطينا الزهور إلا ومعها بعض الأشواك.

زالت حيوية فرح وانقلبت ابتسامتها إلى عبوس، حتى فاجأتها بقولها:

- هو متزوج.

نقّلت مروة نظرتها بينهما مُدّعية الاستنكار والدهشة، بينما بدت عالية كتمثال شمعى، ثم استمرت فرح فى الحديث والاعتراف الذى ارتاحت قليلًا بعد أن صرّحت به لهاتين الغريبتين:

- لم أستطع أن أمنع نفسى عن أن تُحبه، هو كان ومازال دائمًا يُطاردنى

ويُلاحقنى .. حتى إننى لم أجد القُدرة على أن أقول له كلمة لا.

«أعرف هذا الشعور، ليس لأنك تُحبّينه، ولكن لتأثيره الكبير عليك، فأنا حتى وقت قريب لم أستطع أن أقول له كلمة لا»، قالت عالية بعد لحظات صمت:

- ألم تُفكّرى من قبل .. أنك تُحبّين رجلًا خائنًا؟

- لا، لا .. إطلاقًا .. أنا أُحب رجلًا يُعانى مع امرأة لا تعرف معنى للحياة سوى الماديات والطلبات التى لا تنتهى. هو حقًا بائس. وأنا أشعر به تمامًا، فمُعظم المتزوجين يعانون بسبب قلة الحب والتفاهم.

«وماذا تعرفين أنتِ عن المتزوجين؟ هل نمت فى حضن أحدهم أعوامًا وهو يحمل لك خنجر الخيانة وراء ظهره؟ هل أعطيت جسدك ومشاعرك ووقتك وحياتك لأحدهم وهو لا يشغل نفسه بمجرد التفكير بك ؟ هل سهرت وضحيت وتحملت وحملت فى أحشائك نُطفته؟ ماذا تعرفين عن الزواج أنتِ؟»

الخناجر تدمى قلب عالية، لاحظت صديقتها فغيّرت مجرى الحديث إلى أن انصرفتا على وعد بلقاء آخر. فى طريق العودة كانت صامتة فى جلال تبكى بلا دموع، الجرح أصبح جرحين، هو لم يخونها فقط، لكنه أهانها بوصفها بالإنسانة المادية التى لا تكُف عن الطلبات، لكن أى طلبات وهى تكتفى بالمبلغ الصغير الذى يتركه بالبيت؟ أى طلبات يقصد؟ هل هى الأوراق الصغيرة التى تتركها فى جيبه بما يحتاجه المطبخ والبيت؟ أم إنها طلبات الصغير؟ أم إنها الأموال القليلة التى كانت تطلبها منه على استحياء لشراء مستلزماتها كامرأة؟

إنها حتى لا تطلب منه أموالًا لتشترى الثياب، تكتفى بما يشتريه هو لها فى المناسبات، وتُحاول تجديده كل فترة بأى إضافات صغيرة من حُلى أو قطع قديمة أخرى، وكانت ماهرة فى هذا، لا تطلب منه المال لشراء هدايا لأسرتها أو صديقاتها، تكتفى بالمُعايدات الشفاهية، ماذا كان يقصد بوضعها فى هذه الصورة؟ هل كان يقصد ابتزاز عطف فرح؟ أم إنها فكرة مُسيطرة بالفعل على رأسه،

فهو دائم الشكوى من المصاريف والطلبات، وهل كان الحل فى الهروب لأخرى يصرف عليها أكثر؟ «كم أنتِ حمقاء يا عالية .. إن فرح غنيّة، لديها شقتها ومشروعها .. هى لا تنتظر منه أن يصرف عليها .. وهو تقدم بصورة زوجته المادية حتى يجد من فرح النقيض .. لا يخونه ذكاؤه أبدًا!»

– فتاة تعدت الثلاثين دون زواج، مجروحة جرحا قديما وتعيش بمفردها .. كيف لها أن تقول لا؟

هكذا قطعت مروة بتساؤلها صمت عالية العميق، ردت على سؤالها بآخر وكأنها لا تسمعها:

– كنت أتمنى لو أعرف كيف تعرّف بها!

ترددت مروة قبل أن تقول بانفعال:

– عرفت من حسام أنه تعرّف بها من خلال الإنترنت .. وهى ليست الأولى..

ابتسمت عالية بسخرية، فهذا حقًا آخر ما كانت تتمنى سماعه الليلة.

– ولم تُخبرينى يا صديقتى؟

مرت دقائق من الصمت قبل أن تقطعه مروة بصوت باك :

– كنت دائمًا أتمنى وأحاول أن أُخرجك من دائرة سيطرته حتى تستطيعى مواجهة مثل هذا اليوم وتُحسنى التصرف .. هل تذكرين عندما شجعتك على الاشتراك فى مسابقة «فاشون تودای»، كنتُ دائمًا أحاول أن أجعل لك اهتمامًات وحياة أُخرى تجعلك أقوى وأقدر على التصرف .. ولكنى الآن خائفة عليكِ أكثر من أى يوم .. حتى إننى لم أعد أعرف فيم تفكرين وعلى ماذا تنوين .. كل ردود فعلك أصبحت مبهمة بعد أن كنت كتابًا مفتوحًا بالنسبة لى. أتمنى أن تكونى بخير يا صديقتى ولا تتسرعى فى أحكامك وردود فعلك .. فقط اهدأى وأعط قلبك حقه فى أن يحزن، ونفسك حقها فى أن تبكى وتئن، حتى تنتهى موجة غضبك وتستطيعى التصرف بحكمة، بدلًا من هذا الاحتقان الواضح فى ملامحك.

– كلام فارغ.

هكذا صرخ قبل أن يغلق الخط وتظل هى شاردة واجمة لا تعرف كيف تتصرف معه، إنه يحملها أكثر من طاقتها ويتشاجر معها دائمًا بدون أسباب حقيقية، ثم يجرحها بتصرف مثل غلق الخط أو يفاجئها بالخصام الفاجر، دون أن تشعرهى بفداحة خطئها أو ما يستحق كل هذا، لكنه يعود لمُصالحتها بعد أيام، هى لا تخبر أهلها بحماقاته معها كما لا تخبرهم أيضًا بالقبلات التى يسرقها منها، ذراعه التى تحاوط ظهرها، يداه التى تتسلل لجسدها، وهى لا تستطيع المقاومة، فالمقاومة معناها بالنسبة له «لا أريدك»، تجرحه، ويتعجب من دموعها التى تنزل بعد كل لمسة مباغتة منه، ولأنها تخاف غضبه تسكت.

بعد عدة أيام عاد ليُصالحها بالزهور، وعاد ليلتصق بها ويبثها شوقه بشفتيه أكثر من لسانه كلما سمحت له الفرصة، كانت هى مُستثارة لأقصى حد، عرفت معه معنى الشهوة وشهقات وزفرات الجسد، حتى إنها كانت تسامحه بسهولة حتى يعود لمغازلتها، صحيح أنها وافقت على الزواج منه لأسباب عديدة؛ مثل قوة شخصيته، طيبة قلبه، إصراره ونجاحه فى الإعداد لمستقبله، لكن تبقى مغازلته لها هى السبب الرئيسى فى ولهها به.

لكنها نسيت معه أن تتحدث فى حياتهما بعد الزواج وكيف سيديرانها وما هى الخطوط العريضة، نسيت أن تتحدث عن الإنجاب، عن قوانين البيت والأشياء الصغيرة والكبيرة، نسيت حتى أن تتحدث عن مُستقبلها، أو أن لها مستقبلًا سوى فى الارتباط به، نسيت أهلها وأهملت صديقاتها، انصهرت تمامًا فى شخصه، حتى أصبحت تحدثه قبل أى تصرف وتستعين برأيه قبل أى قرار، كل ما يشغلها أصبح ملكه مثلها، أصبح يحمل أسرارها وأسرار أهلها وصديقاتها، وأصبحت حياته شغلها الشاغل ونجاحه هو جلّ ما تتمناه، لم تعمل بعد التخرج بناء على رغبته، وأكملت الزيجة تمامًا كما يريد هو بعد أن هددت أهلها أنها ستتزوجه فى كل الأحوال، أصبح مسيطرًا على كل خلاياها، لمجرد أنه امتلك مفتاح جسدها.

❋❋❋

(٣)

ثلاث ليال لا تنام، جسد مُلقى على السرير، عقل لا يكف عن التفكير، وعينان محدقتان فى ظلام الغرفة، تنظر كل حين إلى ظهره العريض الذى اعتادت أن تتأمله بحب وتتمنى لو كانت طريقته فى النوم مُختلفة حتى تستطيع أن تتسلل إلى حضنه دون أن يشعر وتنعم بدفئه وأمان صدره، لكنه اعتاد أن ينام موليًا إياها ظهره، اليوم تنظر له نظرة مختلفة، تشعر بغُربة جواره وكأنه إنسان غيره، شكل ظهره اختلف، حتى صوت أنفاسه اختلف، تسمعه وهو يتنفس بانتظام فتتمنى لو توقظه وتلطُمه بقوة على وجهه، تبتسم مُنتشية من هذا الخيال، ثم تعود لشعورها بالغُربة.

هذا الشعور يُعطلها عن التفكير والتخطيط الذى عزمت عليه، تركت السرير وراحت تجوب الصالة بقدمين عاريتين وقميص نوم قُطنى مُحتشم، بدأت أفكارها تنتظم، وأمسكت بأول الخيط، إن فرح لا ترتاح لفكرة ارتباطها برجل متزوج بدليل خجلها أثناء الاعتراف لهما بتلك الحقيقة، وعلامات الضيق والاضطراب التى كست وجهها، لكنها بالتأكيد تتوق للارتباط برجل يكون جادًا معها فى مسألة الزواج ويكون رقيقًا وحنونًا، كما يتظاهر محمود، قاطع تفكيرها صوت خطواته، فتظاهرت بالأرق ثم عادت معه لسرير الغُربة البارد.

لم تعد عالية تُفكّر بجرح الخيانة أو بمصير زواجها، لم تعد تشغلها كرامتها المُحطمة ولم تعد مُهتمة بصغيرها وطلباته التى لا تنتهى، أصبحت لا تفكر إلا فى عريس لفرح، يجب أن تترك فرح محمود، لا أن يترك محمود فرح، إنه أقل

ما يستحقه، وإنها فقط الخطوة الأولى. عند العصر كانت قد استقرت على ما ستفعله بعد أن ربطت حلقات السلسلة جيدًا، تحدثت هاتفيًا إلى هيثم ابن خالتها وطلبت منه أن يزورها فى المساء، تعجّب لجرأتها، فهو لم يعتد أن يزورها وحدها أبدًا، والآن تطلب منه أن يحضر ووحده!

- حاضر يا مجنونة.

عندما زارها قصت عليه الحكاية كاملة، دون دمعة واحدة، بل على العكس كانت تضحك أحيانًا، وكان هيثم ذو الخمسة وثلاثين عامًا رجلًا يهاب الزواج وتحّمُل المسؤولية، حياته سهر وسفر ورقص ومتعة، رحّب بالخطة وتحمّس لها، ليس فقط لأنه يُتقن هذا الدور، لكن لأنه يُحب عالية، يعتبرها أُخته الصغيرة، ويكره أن يؤذيها محمود بأى شكل.

مرت أيام وهى لا تدرى ماذا سيفعل هيثم، فقد أعطته كل المعلومت المتاحة، هى تثق فى قدرته ولكنها أيضًا لا تعرف مدى حب فرح لمحمود ومدى تعلقها به، ومدى وعوده لها، كان يُرعبها أن تُخفق فى الحلقة الأولى من خطتها إذا ما أخبرها هيثم أنه لم يجد إلا الصد، حتى جاء هاتفه بعد أسبوعين لينتشلها من حيرتها، أخبرها أنه بالفعل تعرّف على فرح بعد أن تظاهر بأنه ينوى افتتاح مركز تجميل ويُريد الاستعانة بخبراتها، ولم تتردد هى فى أن تذهب معه لمُعاينة المكان، والذى كان فى الأصل محل مُغلق ملكا لأهله، كان سعيدًا وهو يُقص على عالية تفاصيل لقاءاته بفرح، شعرت هى من بين كلامه أن الخطة قد دخلت حيز التنفيذ وقد يُكتب لها النجاح.

مرّ أسبوعان آخران دون أن يُعاود هيثم الاتصال بها، لم تعد تُطيق الانتظار، حتى قررت أن تقوم هى بالخطوة التالية، اتصلت بفرح وحددت معها موعدًا للقاء، كان لقاؤهما حميميًا، تظاهرت عالية بالحيرة بينما كانت فرح فى حيرة حقيقية، بدأت عالية الحديث مباشرة:

- أريد رأيك فى موضوع مهم ومصيرى.

- بالطبع يا حبيبتى.

(حبيبتك أم زوجة حبيبك؟)

- هناك من يريد الزواج منى .. رجل محترم ومناسب.

- إذن أين المشكلة؟

- مازلت مُتعلقة بزوجى .. لم أنسه بعد.

- ومن قال إنك يجب أن تنسيه .. لكن الحياة لا تتوقف والحى أبقى.

- الآخر يُحبنى .. من سنوات طويلة.

- أرى أنك يجب أن تعطى نفسك فُرصة .. صعب أن تجدى فى هذا الزمان من يُحبك ويتمسك بك.

قالت عالية ضاحكة: إذن أحتاج تشجيعك .. تزوجى أنتِ أولًا.

بادلتها الضحكة قبل أن ترد: أنا بالفعل أمامى مشروع زواج.

- من الرجل المتزوج؟

ارتبكت فرح قبل أن ترد: لا، لا، إنه ...

وهنا رن جرس هاتف فرح، ردت بسرعة وشغف وكأنها كانت تنتظر هذا الاتصال منذ زمن:

- آلو .. أنت أيضًا أوحشتنى، أنا مع صديقة. لن تأتى؟ .. لم؟! آه، كل سنة وأنت طيب .. لا، لا تحدثنى سأكون نائمة .. لن أسهر.

أغلقت الخط بغضب، واندفعت تُحدّث عالية:

- أرأيت .. كنا على موعد اليوم وأجّله .. بسبب عيد ميلاد زوجته.

تذكرت عالية أنه يوم ميلادها ولأول مرة تنساه، لم تتخيل أن انشغالها بوضع الخطط وربط الخيوط قد يجعلها تنسى هذا اليوم، حاولت أن تُخفى مشاعرها وعادت لتسأل بهدوء مُصطنع:

- متى ستتزوجان؟

– هو مستعجل .. لكن أنا لست مطمئنة أو سعيدة كما كان يُجدر بى .. فهو يرفض إقامة فرح ولو صغير، ويرفض أن يُعلن الخبر لأسرته .. يريده زواجًا سريًا.. وأنا أكره هذا .. نحن لا نسرق حتى نختبئ، لذلك أُفضّل التأجيل.

ردت عالية بابتسمة خبيثة: أرى أن هناك شخصًا آخر.

أطرقت فرح ثم ردّت: هناك من دخل حياتى صُدفة .. أشعر أننا نقترب من بعضنا فى وقت قياسى .. أخاف تهوره أحيانًا لكن لا أُنكر أنه لطيف.

صمتت برهة ثم استطردت:

– قد تكون ظروفه أفضل من محمود، لكن محمود يستحق أن أعطيه فُرصة ثانية.

اغتاظت عالية وأرادت أن تغيظها:

– بصراحة محمود لا يبدو أنه جاد فى الزواج .. يُريد أن يتسلى أو يقضى أوقاتا سعيدة معك فقط .. أنا لو مكانك أختار الأعزب.

– وكيف عرفت أنه أعزب؟

– قلت إن ظروفه أحسن .. يعنى أنه بالتأكيد أعزب!

عادت عالية للمنزل وقد ارتاح قلبها كثيرًا من حالة التردد التى وجدت عليها فرح، انتظرت زوجها مساء بأبهى صورها، وكأنها ليلة اللقاء الأول .. أو الوداع الأخير. تعطّرت، وارتدت قميصًا جديدًا، على غير عادتها وهى التى نسيت هذه الطقوس، أتاها وهو يحاول أن يبدو سعيدًا، لم يُعلّق كالعادة على مظهرها، قدّم لها خاتمًا من الذهب الأبيض، كرهته كثيرًا واعتبرته ترضية عن خيانته لها، قبّلها قُبلة مُهذّبة كعادته، وقبل أن يضمّها دفنت نفسها فى حُضنه وبكت بكاءًا مريرًا، لم يسألها عن سببه، فقط اكتفى بأن ضمّ ظهرها وجسدها المرتعش، كانت كلما لمسها ترتعد خوفًا من أن تكون هذه هى اللمسة الأخيرة، وبعد أن قضيا ليلة مُضطربة، ليلة فيها الكثير من الادعاء والقليل من الصدق، للقاء أتى بعد الكثير من البُعد، خلدا للنوم، شعرت به وهو يترك السرير ويخرج للشرفة بحذر، عاد بعد دقائق

وهو مُستشيط غضبًا وأنفاسه مُتقطعة حارة، لم تر وجهه فى الظلام، لكنها شعرت بحركته وقلقه طوال الليل، توقعت ما حدث، لقد خرجت فرح مع هيثم.

نعناع الجنينة مسجى فى حيضانه .. شجر الموز طرح ضلل على عيدانه ..

كن ثلاث صديقات من أيام المدرسة، علا التى تجلس تستمع للموسيقى وُتراقبها بسعادة دون أن تشاركها الرقص، وغزل التى ترقص بمهارة، تثنى وترتعش كأنها حلوى الجيلى، وعالية التى ترقص كفراشة تملأ المكان إثارة بدلالها وخفتها، تلقى شعرها الطويل تارة على وجهها وتارة تبعده ليُظهر وجهها صبوحًا ملائكيًا، كان عيد ميلادها الثامن عشر، حضرت صديقاتها بالهدايا الصغيرة والبهجة الكبيرة، تعشق الرقص، كان بالنسبة لها تعبيرًا عن الفرح المحلق والحزن المذبوح، ترقص حتى تشعر أنها حيّة، لكنها أبدًا لم ترقص بعيدًا عن جدران غرفتها.

عودك فى مشيته عامله مُنحنيات .. عضامك لينة لايجين على التنيات .. تانية واتنين تلاتة وأربع خمس تنيات ..

غزل كانت تحدثها عن صديقها بالكلية، قصصها عن الحب والمصاحبة لا تنتهى، مبدأها فى هذا الأمر كان (المصاحبة عند الاحتياج)، وكانت عالية تلاحظ غمزها للأولاد من أيام المدرسة وهمساتها معهم فى الركن البعيد فى الفناء والمعروف بأنه ركن العشاق، ومسكهم لها بطريقة فجة عند لعب الاستغماية، كانت تستنكر أفعالها لكنها استمرت على هذه الصداقة حتى تظل قريبة من الأشياء التى لا تستطيع الإقدام عليها، تراقبها وتترقبها باهتمام دائم دون أن تحاول نصحها، عالية كانت على العكس تمامًا لم تكلم ولدا طوال سنوات الدراسة إلا نادرًا، أما علا فكانت ما بين البينين، لا تخشى أن تجرّب دون أن تتعمق أو تكمل التجربة لنهايتها، تتحدث مع الأولاد دون توتر ولها أصدقاء من الجنسين، تُعجب أحيانًا بولد وقد تتبادل معه الكلام دون أن تتطور العلاقة لمغازلة أو مصاحبه كحال غزل.

ثلاثتهن كن صديقات رغم الاختلاف، كان يجمعهن الاحتياج .. الاحتياج لإقدام غزل، رجاحة عقل علا وطيبة قلب عالية، توقفت غزل عن حديثها المتصل عن قصص الحب والإثارة وراحت تسأل عالية للمرة الألف عن إذا كان هناك شاب يعجبها فى الكلية أو مكان آخر، وكان يزعجها نفى عالية الدائم، أخبرتهما أنهما خيبة وأنها ستسبقهما بالزواج حتما، لكن عالية لم توافقها.

عالية: ماما دائمًا تقول إن البنت التى لا تعرف الشباب وتصاحبهم تتزوج أولًا.

غزل ضاحكة: ماما أيضًا تقول نفس الكلام .. والغد سيثبت العكس.

تمر سنة وتُفاجأ الصديقات بخطبة غزل، تغيرت كثيرًا فى الأيام التالية، ارتدت الحجاب، توقفت عن الحديث مع الشباب، كانت ضربة قاضية لهما، بعد أن انهارات كلمات الأمهات عن الفضيلة وعن أن البنت المؤدبة العفيفه تتزوج أولًا، والرجال يضحكون على البنات السهلات ويعبثن بمشاعرهن لكن لا يرتبطن إلا بالبنات المُلتزمات، صحيح أنها انفصلت بعد عدة أشهر، خلعت الحجاب وعادت لأحاديثها ووقفاتها الطويلة فى الكلية مع الشباب، لكنها عاودت الكرّة بعد عام آخر وتمّ الزواج هذه المرة، أقامت لبعض الوقت بإحدى الدول الخليجية مع زوجها وبنتين. أما علا فعاشت قصة حب مع زميل لهن بالكلية تخلى عنها بعد الارتباط بها عدة أعوام، لتعيش هى على هامش قصتها الوحيدة، غارقة فى الذكرى وإن تظاهرت بالنسيان، لم تعد علاقتها بعالية تتعدى السؤال والمعايدات الباردة، فهى لم تستطع أن تجارى حياة صديقتها المتلخصة فى زوجها ورائحة اللبن والفطام، أما عالية .. فمرت بها الأعوام وتوقفت عن الرقص.

❋❋❋

(٤)

صباح مُعكّر بغضبه، لم يكن الصباح الأول الذى يُفسده بغضبه، هو أغلب الوقت غاضب، خاصة عند الصباح عندما ترتطم جديّته بطفولتها الصباحية التى تجعلها فى هشاشة غزل البنات، وهو يريدها المرأة الحديدية، يكره أن يراها مُدللة ويعتبر دلالها عدم نضج، لكن غضبه هذه الأيام مختلف وحار ق، أصبح عصبى المزاج أكثر من ذى قبل، لا يصبّ غضبه عليها كالمعتاد وإنما يبتلعه ويكتمه، كانت تراقبه وتتلذذ بانفعاله المكبوت وثورته الخرساء، كأنه وحش مُقيّد تنظر له من وراء القضبان وتغلبها أحيانًا الابتسامة.

لقد توترت علاقته بفرح، تعرف أن أكثر ما يثير غضبه ليس انتهاء العلاقة بقدر ما أنه قرار فرح وليس قراره، لم يكن يُحبها هذا الحب الكبير ولكنه تعلق بها بعد أن وجد منها الأنوثة القوية المُفعمة بالحيوية والنشاط، على العكس من زوجه الخانعة المسبّحة بحبه ليل نهار، الطائفة حول ملكوته، فرح هى الفتاة الناضجة التى يستطيع أن يعتمد عليها، يُسلمها حياته وقلبه وهومُطمئن أنها ستتخذ القرارات الصائبة، ستكون معه كتفًا بكتف، ولا تترك كفها تذوب فى كفه مثل عالية، كما أن ظروف فرح تُناسبه. لن تعتمد عليه اعتمادًا كاملًا مثل زوجته مصاصة الدماء التى تسكن جلده كمخلوق طُفيلى، وهى لعوب، مُطيعة، مرحة، لكنها بدأت تهرب منه الآن وتنسحب كالماء من بين يديه بسلاسة لم يتوقعها، تزكُم أنفه رائحة رجل آخر، لكن كرامته تأبى التأكد.

وهكذا، الحلقة الأولى من خطة عالية تسير بنجاح، بدأت تستعد للانتهاء

من امتحانات ابنها حتى تستطيع البدء فى الحلقة الثانية الأصعب، صعوبتها ليست فقط فى التنفيذ ولكن لأنها النقيض من شخصيتها ومبادئها وأفكارها، ترددت كثيرًا وباتت ليال كثيرة لا تنام حتى استقرت على أنها لن ترتاح إلا إذا ردّت خيانته بخيانة، ساعدها على اتخاذ القرار ذاكرتها التى كانت تسرد عليها تفاصيل حياتها الجافة معه.

لم يشفع لها أن أنجبت له فلذة الكبد، وكانت له السرير الناعم والاحتواء الدائم والوعاء الذى يُفرغ فيه سخطه وغضبه. تركها وذهب ليُعطى غيرها ما بخل عليها به من مشاعر، وكأنها امرأة لا تصلح للحب مثل الباقيات، ساعدتها الذاكره التى أُجهدتها كثيرًا الأسابيع الماضية على المضى نحو ما نوت عليه، ربما تجد الراحة والسعادة عند غيره فتعذره على ما فعل.

كان يؤرّقها سؤال واحد .. من؟ من ستختار لتُنفّذ خطتها معه؟

تتذكر رجالًا مرّوا بحياتها القصيرة قبل أن تعرفه، لكنها لا تعرف ما مصيرهم، هناك ابن الجيران الذى كان يُلاحقها دائمًا وأول من ألقى عليها كلمات الشوق، لكنه هاجر إلى كندا، وهناك أخو عُلا صديقتها، الذى كان يرسل لها رسائل الحب العُذرى بين طيّات الكتب، لكنه الآن متزوج، راحت تبحث كل يوم بين ذاكرتها وصور المدرسة والكُليّة عن الشخص المناسب، تبحث فى الماضى لأنها أصبحت تعتبره أجمل أيام حياتها بعد أن ظنّت أنها نسيت تلك الأيام واعتبرت أن حياتها بدأت يوم أن التقت بمحمود، تبحث عن شخص وجهه مألوف بالنسبة لها، تريد شخصًا مريحًا للأعصاب، هادئًا، ناعمًا كوسادة تبعث بها الأمان والراحة، تُريده أن يمتصّ حُزنها أو أن تبتلعه أو تحقن نفسها به كدواء لعله يشفى جراح قلبها.

انتهت امتحانات ابنها كريم فعادت تصطحبه للنادى، هناك ظهر الرجل الذى كانت تبحث عنه، ياسر صديق زوجها، كانت تلتقيه صدفة فتومئ له برأسها أو تُبادله التحية وينتهى الأمر، دائمًا تشعر أنه يكتم بعض المشاعر تجاهها،

لاحظت هذا من طريقة سلامه عليها، نظراته المسروقة، مراقبته المستترة لها عندما يجمعهما نفس المكان، اهتمامه عندما تتحدث وكأن العالم خال إلا منها، كانت تُلاحظ وترى بعيون الأنثى غير المرئية، ثم تتجاهل الأمر برُمّته، لكنها الآن لن تتجاهل الأمر كذى قبل.

فى هذه المرة التى ألقى عليها السلام من بعيد كانت لديها الجرأة لتُنادى عليه وتبدأ معه حديثًا هامشيًا تتطرق منه لمواضيع متعددة، بدأت نظراته فى الارتباك، ومن ثمّ لاحظت أنه ينظر للأرض أو الموائد والكراسى أو أى شيء غير عينيها، طلبت منه أن يُشاركها المائدة وتجرّأت أكثر عندما صرفت ابنها للعب وبقيا وحدهما، حاول الانصراف هو الآخر لكنها بادرته بقول «ابقَ من أجل خاطرى"، شعرت أنها بالغت كثيرًا عندما حلّفته بخاطرها وهو مُجرد صديق لزوجها، كانت تضحك ضحكة عالية مُتوترة، وسألته بإشارة:

- ألم يكن من المفترض أن تأتى النادى مع ابنك؟

- هذا لو كنت قبلتُ العروس التى أتيتينى بها قبل عام.

- سلمى بنت رائعة .. أنت الخاسر.

رد ضاحكًا: نعم، ولو كنتُ تزوجتها كنت سآتى للنادى مع ابنى فقط .. لأننا سنكون قد انفصلنا.

- ألأنها تُحب عملها؟

- هُنّ البنات .. إما سطحيات وإما عاملات يحببن أعمالهن وينشغلن بها لدرجة تُشعرك بأنك أنت السطحى التافه.

سألته: وفى أى الفريقين ترانى يا ترى؟ رد بعد تردد: أنت غيرهن يا عالية..

وهنا قاطعهما كريم الذى أتى يشكو جوعه، فما كان من ياسر إلا أن دعاهما على بعض الشطائر، استكملا حديثهما وكانت كل نظرة أو كلمة منه تعبّر عن إعجاب شديد ومشاعر مكبوتة، كانت تُشجعه هى على الإفصاح عنها، بدى مصدومًا من هذا التغيير الذى ألمّ بها، ثم ودّعته بلطف وضغطت على يده

عند المصافحة، لكنها لم تدعه ينصرف إلا بعد أن اتفقت معه على لقاء آخر فى النادى. هناك التقيا عدة مرات لم يكن بينهما حوار سوى عن الأمور العامة، ثم بدأ يسرد عليها بعض الأشعار والأعمال الأدبية التى تُعجبه، كانت تُسايره فى الحديث عن غير استمتاع أو اقتناع بأفكارة الأفلاطونية عن الحب، تنظر كثيرًا فى الساعة وتحاول أن تُزجى الوقت معه بأى شكل. عند العودة لم تكن تفكّر سوى بمخططها والخطوات القادمة، لم يُعجبها ياسر، لم تكن لغته الآسرة وسُكّر حروفه بالشيء الذى تصبو إليه فى حياتها، صحيح أن محمود لم يُغازلها منذ سنوات طويلة ولكنها لا تحتاج لهذا الآن، هى تحتاج للرجل الصديق الذى يُعاملها بندّية وود، لا تحتاج لهذا الرجل الذى يُزلزل كيانها، فالمجروح لا يحتمل الزلازل والبراكين، ولكنها تحتاج لرجل يقيها من شرّ نفسها ويُخمد نيرانها، وبالرغم من رومانسيته الطاغية، إلا أنه لم يملأ فراغاتها الكثيرة التى خلّفها جرح محمود.

فاجأها يومًا بقوله: تغيرت يا عالية، كنت كما يقول الكتاب بالضبط .. كتاب المرأة .. المرأة الجميلة.

الكلام يجب أن يدغدغ الاحساس لكنه لا يُدغدغها قط، ولا يقترب شبرًا من خيالها، فقط يجعلها تشعر بانتصار صغير وزهو كبير، ردّت: والآن...

- أصبحت أغرب .. لكن .. أشهى.

ردت بانفعال: انتبه.

- آسف أقصد...

انتفضت واقفة وهمّت بالانصراف، فألحّ عليها أن يوصلها للبيت مثل المرات السابقة، لم ترفُض، كانت تُفكّر فى نفسها التى تغيرت إلى هذا الحد الذى أصبحت تسمع فيه كلمات الغزل من شخص غريب وتقبلها ومن ثم تركب معه سيارته، فى السيارة نام كريم فانعطف بها ياسر فى شارع هادئ ووقف، ثم بدأ معها حديثًا آخر كسر الصمت بينهما.

- أنا أعرف كل شيء.

- ماذا تقصد؟

- أعرف أنك تتصرفين كمجروحة .. أعرف أن محمود جرحك.

صمتت لم تجد ما تقوله، كيف فات عليها أنه يعرف بخيانة محمود لها، كل الأصدقاء يعرفون كم هى هيّنة وكم أصبحت كرامتها رخيصة.

استكمل هو حديثه:

- أنا لم أعد صديقًا لمحمود منذ أكثر من عام، وأرفض كل تصرفاته .. لا أعرف كيف يجرح إنسانة رقيقة، وديعة، مثلك .. أنت ملاك.

- لا، لا، أرفض هذا الكلام .. أنا لست ملاكًا.

- ربما فى عينيه.

- بل كنتُ ملاكًا فى عينيه.

- لم لا تُفكّرى إذن لماذا فعل هذا؟

- لا لن أُفكّر. ما أكثر التبريرات .. قد يقول لأنها لا تهتم بى أو لأنها لا تجد ما تهتم به وتركّز معه غيرى .. لإنها لا تُحبنى كما يجب أو لإنها تحنُقنى بحبها الزائد .. لإنها مُتحكمة فى كل شيء أو لإنها ليست صاحبة رأى أو رؤية .. لإنها صعبة جدًا، لا أستطيع جذبها، أو سهلة جدًا تنفرط من بين يدى .. كلها تبريرات لا معنى لها .. لأنه فى النهاية خائن وفقط.

- لكن أنت مُخلصة.

صمت قليلًا ثم استطرد:

- أعرف أنك اقتربت منى لترُدّى كرامتك وتُداوى جرحك .. وأقبل أن أقوم بهذا الدور .. أى دور جوارك يُرضينى.

- لكن أنا لم أقصد أن...

- أنت غالية عندى وعالية يا عالية .. لا تنظرى للماضى .. افعلى ما يجعلك سعيدة .. وأنا معك.

أصابها خرس وذهول .. أفاقت منهما على كفّه التى غطت كفها ووجهه الذى اقترب فى محاولة لتقبيل كفّها، فزعت وصرخت صرخة مكتومة وهى تسحب يدها من تحت كفه، انزعج، ولم تبال. عندما عادت للبيت كانت تشعر بتلوث كبير، لم يُزل الماء الساخن الذى اندفع فوق رأسها أثره، تلوث داخلى يملأ أركان روحها المُتعبة، كانت تتمادى فى عنادها منتظرة من ياسر أن يصنع هو الحدود، لماذا توقعت منه الملائكية فى حين أنها ليست كذلك؟ كيف افترضت أنه سيتصرف كرجل نبيل ويبتعد عنها بعد أن يُحاول أن يقنعها بالرجوع لمحمود؟ هو تصرف مثالى بالنسبة لتربيتها ومبادئها، لكنه قد يكون تصرفا أخرق بالنسبة لرجل عاشق، قبل أن تُحاسبه كان يجب أن تسأل نفسها كيف ارتضت أن تخون نفسها، إن قرارها بالخيانة هو سلاح ذو حدّين، أحدهما يصيبها أولًا.

عندما أتى محمود فى المساء؛ على غير عادته الجافة طبع قبلة باردة على شفتيها البائستين، منذ زمن لم يقبّلها، وإذا فعل تكون قبلة آلية مهذّبة، خالية من المشاعر، هى كانت تُصّر على أن تُقبّله عندما يغادر فى الصباح، وعندما يعود، وعند النوم، لكنها توقفت منذ زمن عندما استشعرت أن القُبل تُزعجه واقتراب جسدها منه فى غير الوقت الذى يُحدده هو للعلاقة يُضايقه، ثم منعها الحرج وبقايا كرامة من الاستمرار فى تقديم وجبات مجانية من القُبل الساخنة.

كانت تُردد داخلها كلما باغتها بقُبلة باردة (قبّل أو لا تُقبّل .. قبّل بحرارة أو انس الأمر .. فهو ليس فرضًا عليك) أنصاف القُبل كالطعام القليل الذى نُلقى به لذئب جائع فنُثير رغبته للنهش أكثر. قبلته الباردة جعلتها تشعر برغبة شديدة فى قُبلة شهية ساخنة تغتصب شفتيها الجائعتين حتى الشبع، وظلت الفكرة تُطاردها طوال الليل، قُبلة .. قُبلة .. قُبلة، تتذكر أول قُبلة فى حياتها عندما بكت بين يدى محمود بعدها دون أن تعرف السبب.

لم ترد على مكالمات ياسر الهاتفية بعد هذا اليوم وتوقفت عن الذهاب للنادى. اكتشفت أن جرأتها المُستحدثة لن تُجدى أمام تربيتها الصارمة، هى لن تستطيع أن

تخون محمود حتى وإن فعل هو، هكذا استقرت على ألا تُنفّذ الخطوة الثانية من خطتها، لكنها أصبحت أكثر عصبية وحدّة فى البيت، أصبحت تفتعل المشاحنات مع محمود وأصبحت أكثر جرأة عليه وعنفًا معه، والغريب أنه كان يتحملها على عكس طبعه وعادته، وكلما ازداد احتمالًا ازدادت وقاحة عليه، كانت تستشعر كُرهًا عميقًا له يجعلها تستنكر وجوده جوارها، وجوده فى البيت، وجوده فى حياتها من الأصل، تهرب من دعوته لها للسرير بالتظاهر بالتعب والإرهاق، بعد أن كانت تنتظر هذه اللحظة بالأيام فقط لتشعر أنه يُحبها، أصبحت لا تقوى حتى على النظر لعينيه لأنها تُذكّرها ليس فقط بخيانته لكن أيضًا بالتلوث الذى أصابها بسببه.

القاهرة الجديدة .. جديدة تمامًا عليها، شوارع واسعة بشكل غير معتاد تكاد تخلو من البشر، فيلل مُتناثرة، عمارات قصيرة مصطفة بشكل أنيق محاطة بحدائق صغيرة، لكن الأغلبية كانت مبان تحت الإنشاء، تجلس هى فى سيارة الأجرة محتارة، تكرر على السائق اسم المدرسة والحى الذى تود الذهاب إليه:

- مدرسة جرين هاوس للغات فى التجمع الثانى.

- أعطنى أى علامة يا مدام!

تحاول الاتصال بزوجها، لا يرد، لا يوجد ظل بشرى يمكن سؤاله، حتى السيارات المارة بهم سريعة غاضبة فى عجلة من أمرها كحال البشر، ساعة كاملة تلف بسيارة الأجرة دون جدوى، لم تستطع الوصول للمدرسة، ولا السائق صبر عليها فأنزلها هى وابنها عند مدرسة أخرى دون رغبتها، وقفت بخوف وقلق كأنها طفلة فقدت الطريق لمنزلها، كانت تمنع دموعها من السقوط بصعوبة حتى لا تقلق صغيرها، لم تعرف كيف تتصرف، هو من وضعها فى هذا الموقف عندما أصرّ أنها يجب أن تذهب وحدها للتقديم لكريم فى هذه المدرسة، ولأنها كانت قليلة الخروج إلا معه، فكان من البديهى أن تضل الطريق.

بعد ساعتين من الانتظار أمام المدرسة غير المرجوّة، هاتفها محمود أخيرًا بعد

أن انتهى من عمله، وبعد نصف ساعة أخرى كان قد وصل لها، قبل أن تتفوه بكلمة نزل هو من السيارة بعصبية وبكل طاقة صوته صرخ فيها:

– أضعتى موعد التقديم يا غبية .. لأنك غبية وضعيفة .. تزوجت طفلة لا يعتمد عليها .. بلا تعليم، بلا مدارس .. أنت أم ناقصة تأهيل ..

سارت ببطء وضيق شديد وهى تشعر بأنظار المتواجدين تلتصق بها وتشعر بأنفاسهم المتعاطفة معها، صرخ فيها مرة أخرى :

– ابك .. ابك .. فأنت لا تجيدين إلا البكاء.

انفجرت فى البكاء فى السيارة، لقد فات موعد تقديم المدرسة .. لكن ما يبكيها كان أكبر، كان شعورها بأنها إنسانة بلا قيمة، بلا نفع، بلا كرامة، بل بلا شيء، تشعر فى هذه اللحظات التى يقسو عليها فيها أنها لا تستحق الحياة، فقسوته مُهينة، وُمصوبة تمامًا إلى قلبها الذى أحبّه ولم يعش إلا على أمل واحد أن يمده بالدفء والأمان .. لكن أى أمان وهو لا يتوانى عن أن يهينها أمام الناس.

تحاملت على نفسها ولم ترد على سموم كلماته التى كان ينفثها فى وجهها، تمنت كثيرًا لو تلقى بنفسها من السيارة وتتخلص من كل هذا العبث، لكن عيون صغيرها المترقّبة كانت تمنعها، فى البيت أكمل مواويله عن عدم نفعها وشخصيتها الهشّة الضعيفة، ثم أعاد شريط حياتها وكيف أنها لم تشاركه اختيار أى شيء، لم تطرح عليه فكرة، لم تمده بنصيحة، لم تساعده ولو حتى معنويًا، أثبت لها بكل الطرق أنها زوجة فاشلة وإنسانة عالة على الحياة، دفاعها عن نفسها لم يزده إلا تمسكًا برأيه، محاولتها أن تثبت أنها أكثر من النكرة بقليل كانت غير مجدية، فعادت لصمتها، وعادت لتطوف فى ملكوتها الحزين وحيدة ضعيفة كطائر فقد جناحيه، تستمد ثقتها بنفسها من ذكرياتها القديمة.

فى المساء كانت حريصة على متابعة المسلسل التركى الذى يُخرجها من غياهب الحزن ويضعها فى قمة الخيال عند بلاد جميلة، شوارعها واسعة نظيفة، طبيعتها خلابة، أناسها أقمار بملامح شرقية، ترتشف الرومانسية بجرعات

كبيرة تقيها جوع الأيام الجافة، ثم تشاهد بشغف برامج الموضة والجمال، أما النهار فكان للمسلسلات العربية وبرامج الطبخ، تزجى وقتها بين التليفزيون والمطبخ، وتستعد بعدها بروح عالية لنوبات غضبه واعتراضه الدائم. جلست أمام جهاز الحاسوب الذى لا تجيد استخدامه وكتبت رسالة إلكترونية لإحدى برامج الموضة ترجوهم أن تشترك معهم ليعدوا لها (نيولوك) جديد يرفع من روحها ويجدد من علاقتها بزوجها، أتاها ينفخ الغضب ويصرخ :لماذا لم تحيكى الجوارب .. كل جواربى مهترئة وأنت لا تتصرفين؟!

أجابته وهى تحاول أن تدارى خوفها منه: لقد تصرفت يا محمود واشتريت لك جوارب جديدة وضعتها فى خزانة ملابسك.

- أعرف، رأيتهم ولم يروقونى .. كالعادة لا تجيدين شراء شيء.

- لكن جواربك قديمة لن تحتمل الحياكة...

- إذن ابق فى برامجك ومسلسلاتك، سأذهب لأمى، فهى الوحيدة التى تستطيع أن تقضى طلباتى.

وخرج صافعًا الباب فى وجهها. أكملت رسالتها البائسة، أرسلتها للبرنامج ودموعها تغسل أزرار الحاسوب.

***

(٥)

تبحث بين الأسطوانات عن أسطوانة فيروز الجديدة، تضعها فى المُشغّل وتذهب إلى المطبخ لإعداد كوب النسكافيه الكبير الذى اعتادت أن تشربه كلما بدأ عقلها فى التنميل، وكأنها توقظه بالكافيين، فردت نفسها على شيزلونج مريح كانت قد وضعته بغرفة المعيشة وليس فى مكانه المعتاد بغرفة النوم، فغرفة المعيشة بالنسبة لها هى أهم جزء فى البيت، فيها الحاسوب والتلفاز وحائط كبير من الصور لها فى مراحلها المختلفة ولأسرتها وصديقاتها، وفيها مدفأة حطب كبيرة تستعملها ولا تكتفى بها كقطعة ديكور. أما غرفة النوم فهى المكان الذى يحمل ذكريات الأرق وبقايا الدموع ورائحة الوحدة، لا تلجأ إليها إلا بعد يوم شاق أو عندما تُريد أن تخلو بنفسها للتفكير بعيدًا عن كل وسائل التواصل المتاحة أمامها.

على الشيزلونج كانت تقرأ رواية إنجليزية وهى ترتشف النسكافيه وتستمع لفيروز كخلفية سعيدة تمنحها الراحة والقدرة على الانفصال عن الأرض، تعيش وحدها منذ سنوات عديدة ومع ذلك لا تشعر بالاحتياج لأحد يُشاركها المنزل، وحدتها تكفيها وتُرضيها، احتياجها الأساسى كان لقلب يؤنس قلبها ويُدفئه، سنوات عمرها الثلاثة والثلاثون أخذت من قوّتها الكثير، فهى اعتادت أن تعيش حياتها بحُرّيّة، تُجرب كل شيء، تختار وترفض كما يحلو لها، فى الأحبة والدراسة والعمل، كانت دائمًا مُجازفة، سعيدة مرحة، لا تُبالى بتقدم العمر ولا يهمها نظرات الناس وهمساتهم، تكاد لا تراهم، لكن قوّتها بدأت فى التلاشى لسبب تجهله، قد يكون لأنها سئمت أن تلعب كل الأدوار.

فهى الأم التى تُطبطب على نفسها فى الحزن، وهى الأب الذى تستشيره فى مشاكلها، وهى الأخت التى تُحاول أن تُسلى نفسها وتجتاز مع نفسها الأزمات، وهى التى تُعلّم نفسها وتقود نفسها وتُعاقب نفسها عند اللزوم، لكنها سئمت وتحتاج لمن تتكئ عليه، ليس كعصاها أو كحائطها وظلها كما تقول الأمثال، تتكئ على كتفه فتهدأ كل مخاوفها وتنزاح كل همومها، تحتاج لمن لا تخشى أن تُظهر ضعفها أمامه، لمن تهدأ أنوثها بين ذراعيه، هى دائمًا الفتاة القوية، الذكية، البنت التى تساوى مائة رجل، لكن ألم يأن الأوان بعد لتُساوى أنثى واحدة، مُدللة، بين يدى حبيب حقيقى؟!

قطع قراءتها رنين الهاتف المحمول، نظرت إليه بشغف فإذا به هيثم، هذا الغريب الذى تعرفت عليه منذ أسابيع وشغل حيزًا ليس بهين فى تفكيرها، رغم ارتباطها بمحمود الذى لم تشعر يومًا معه بالاحتواء الذى كانت ترجوه، محمود كان برًا آمنًا رست عليه مراكبها وهى تُبحر بحثًا عن الحب، عرفته فى أحد المنتديات الأدبية على الانترنت، لم يكن مهتمًا بالأدب، كان متصفحا عاديًا، أغراها غموضه، وبدأت تنتظر ظهوره كل حين بشغف وتُعلّق على كل كلمة أو رأى يكتبه بما يتفق مع جرأتها، ثم بدأت تلعب دور الساذجة وتُرسل له الرسائل والأسئلة الكثيرة الغريبة بحجّة أنها معجبة بآرائه. لم تكن طبيعتها مندفعة فى خوض العلاقات، بالرغم من كثرة علاقاتها، فهى دائمًا مرغوبة ودائمًا تُعطى بالقدر الذى يُغرى ولا يُشبع، تعرف كيف تتوقف فى الوقت المناسب، احتفظت بنفسها عذراء، ولم تخسر أحدًا من أحبّتها، كلهم ظلوا أصدقاء لها ماعدا واحد فقط هو هشام، الذى أحبته حبًا حقيقيًا وعذبها وآلمها كما لم يؤلمها أحد، ثم قضى عليها تمامًا عندما تزوج بسرعة بعد مرة من مرات الانفصال الكثيرة بينهما، لم تعد بعدها لحياتها الطبيعية وتتعافى إلا بمساعدة طبيب نفسى ترددت عليه لعام كامل، ومازالت تزوره بين الحين والآخر.

أضافها محمود لقوائم أصدقائه على مواقع التواصل الاجتماعى، ومن ثم

تطورت علاقتهما سريعًا حتى تقابلا، ووجدت فيه رجلًا خشنًا به لباقة، كان مقبلًا عليها رغم بعض الجفاء الذى كانت تستشعره خاصة فى البُعد، عندما كانت تمر أيام لا يُحدثها بحجّة انشغاله فى العمل، أو تمرّ مناسبات يكتفى فيها بالتهنئة الشفاهية، كانت دائمًا تنتظر منه أكثر، لكن رجولته الفتيّة وذراعه القوية التى كان يجذب بها أنوثتها ويحمى بها طفلتها العابثة كانتا تغفران له جفاء طبعه، المشكلة الأساسية أنه متزوج، هى لا تعبأ كثيرًا بمشاعر زوجته لأنها تؤمن بقاعدة العشق التى تقول نحن لا نتحكم بمشاعرنا، مشكلتها أنها تشعر أنها بعضًا من وقته، أو الفائض من وقته، عندما تُهاتفه وهو فى بيته لا يرد أو يرد بشكل رسمى، عندما تحتاجه فى الليل لا تجده، فهو نادرًا ما يسهر خارج المنزل، عندما تكون مريضة لا تجد منه إلا سؤالًا هاتفيًا وأحيانًا يشترى لها الدواء ثم يتركها.

عندما تعود للمنزل ترقص من السعادة لأى سبب وتتصل به ليُشاركها الرقص؛ لا يرد، عندما تبكى وتتصل به ليمسح دموعها لا تجده، عندما تُريد استشارته فى أمر ما عليها أن تنتظر وقته المناسب، عندما تريد أن تُجنّ عليها أن تُحجّم جنونها إلى أن يُناسبه التوقيت، لا يشاركها تناول الطعام إلا نادرًا، لا يظهر معها فى الأماكن العامة إلا البعيد منها ويكون حذرًا مضطربًا بشكل لا يُلاحظه سواها، عندما تكون جواره فى السيارة تجد بصره زائغًا وعيناه تُراقب المارة خوفًا من أن يتعثّر بمن يعرفه، حتى هاتفه المُغلق فى بعض الأوقات يُثير غضبها وحنقها، يُشعرها بأنه ليس لها.

حريص هو على ألا يُحدّثها عن زوجته ولا يُشير لها إلا من بعيد، حتى إنها طلبت منه عدة مرات أن ترى صورتها وكان يتهرب وكأنه يُحافظ على كنزه الثمين، لم تُصدّق الفتاة الغبية داخلها التى أخبرتها أنه يخاف أن يجرح مشاعرها، وإنما صدّقت الفتاة القوية التى أخبرتها أنه يعشق زوجته حتى وإن تظاهر بغير ذلك، وأنها عليها أن تقبل بوجودها فى حياته وبالسياج الذى فرضه حولها،

لكن هذا لم يمنع أنها كانت تُفكر كل حين فى فرصة انفصاله عن زوجته حتى تهنأ بحياتها معه، ويكون كله لها، تُمتعه ويُمتعها، ثم لا تلبث أن تعود للواقع الذى يقول إن زوجته هى أهم ثوابته والعمود الخرسانى الذى تتكئ عليه حياته.

كانت هواجس هجره لها تُطاردها، رغم ثقتها الكبيرة بنفسها، ربما لأنها لم تنس الرحيل الأخير لهشام حبها الكبير، لم تنس خذلانه لها والحزن الذى تجرعته وحيدة كالعادة، لكنها قصّت كل شيء عنه لمحمود، فكيف له بعد أن سلّمته سرّ قلبها أن يخذلها؟ فى الحقيقة هو يخذلها بطريقة أخرى، عندما لا تجده. ظهر هيثم فى حياتها كمجرد رجل لطيف يُظهر اهتمامه ويُقدّم خدماته مثل معظم الرجال، لكن ما جذبها فيه هى عفويته، لم يكن ذلك الرجل الذى يتظاهر بكونه المجُرّب الذى خاض كل الحروب العشقية وعرف كل شيء عن الدنيا ويستطيع أن يفهم الناس حوله من نظرة واحدة، لم يكن يُمثّل دور الرجل العاطفى الحنون، ولم يكن خشنًا مثل محمود، كان بسيطًا ضحوكًا، ضحكته كانت كأنها دقات أجراس الفرح.

أجمل ما فيه أنه كان دائمًا يُشعرها أنه متاح لها، يطلب منها أن تتصل به فى أى وقت، يتلو على مسامعها الجملة المأثورة التى لم تكن تسمعها سوى منه «خلّى بالك من نفسك»، كان يُعطيها أمان واحتواء الصديق رغم آيات الاعجاب التى كانت تنطق بها عيناه، راحت تُلاحظ جفاءه الواضح، وأنانيته المُفرطة، بدأت تُقارن بين الإثنان رغمًا عنها، فظهور هيثم أكدّ لها هشاشة مشاعرها تجاه محمود، والفارق الكبير بين حبيب متزوج بنصف قلب ووقت واهتمام وحبيب أعزب بحياة كاملة تنتظرها، بدأت لا تطيق بُعد محمود وانشغاله وتكتمه على بيته وزوجته المقدّسة، وبدأت زهورها فى الميل لشمس هيثم الطفل الكبير، المشاكس الطيب والصديق المحب.

ردّت بسعادة تُناسب رنين الفرح فى صوته واتفقت معه على موعد جديد يستكملان فيه حوارًا ظاهره فيه العمل وباطنه فيه الانجذاب.

فى ركنٍ منزوٍ بمنزل أهل محمود كانت تجلس عالية كطفلة معاقبة، مُطأطئة الرأس، دامعة العين، فقد نهرها بشدّة قبل قليل أمام والدته لأنها لم تساعد فى تقديم الطعام وتتصرف كصاحبة بيت، بل كانت تجلس كغريبة تنتظر أن ينادونها عند إعداد المائدة، ناداها لتساعد فقطعها عن حلقة تليفزيونية تتابعها باهتمام، ردت بعدم اكتراث، فصرخ بها بشدّة أفقدتها اتزانها، جلست معهم تمثّل أنها تتناول الطعام بلا روح، الكل يضحكون، يثرثرون ولا أحد يوجه لها حديثا، كأنهم اتفقوا جميعًا أنها مذنبة ولا تستحق إلا الإهمال.

كانت تسترق النظرات له فتجده مندمجًا فى حديث أو غارقًا فى ضحك، كأن شيئًا لم يحدث، أخوه يدلل زوجته كل حين بدعابة أو لمسة مباغتة، وأخته تقود الحديث بحكاياتها وقفشاتها التى لا تنتهى، لا أحد يبالى بها كأنها قطعة زائدة من الأثاث، لا يهمها إهمالهم لها، لكن هو، كيف يتجاهلها فى بيت غريب وفى وجود أغراب عنها، لم يقدر أنها فتاة فى العشرين من العمر فى أولى سنوات التعامل مع زوج. ظلت فى كرسيها البعيد صامتة تراقب الشُرفة القريبة، تتذكر قبلات مسروقة فى زاويتها، تتذكر شابا مفتونًا ينظر لها كالمصعوق، وُيحيطها بعينيه، يعدها بالاحتواء والعشق الأبدى، تتذكر كلمات رقيقة كانت تنساب فى مسامعها عند الغروب فى نفس هذه الشُرفة الجامدة الصامتة مثلها الآن.

استبدت بها رغبة أن تثبت لذاتها أنه لم يتغير عن هذا العاشق الذى كان يشاركها الهمس فى الشُرفة، نادت عليه، لم يرد، نهضت وحاولت بأنفاس مُتقطعة أن تشاركهم الأحاديث موجهة كلامها له، لم يرد، وجهت حديثها مرة أخرى لأخته فتجهمت وردت باقتضاب، خبرتها القليلة لا تسعفها، عاتبته بلهجة حادة وأشعرته بغُربتها فى بيت لا أحد يحدّثها فيه حتى زوجها، فنهرها بشدّة، حاولت الاتصال بوالدها ليأتى وينقذها من كل هذه القسوة، فقفز زوجها كالممسوس

وخطف منها ساعة الهاتف وقذفها بها، فأصابت وجهها وتركت عند ذقنها كدمة كبيرة وتركت فى قلبها جرحًا أكبر.

هّمت بالعودة إلى مكانها البعيد وهى تتمنى لوأنها تسقط ميّتة قبل أن تصل للكرسى، وبالفعل خارت قواها وافترشت الأرض، وقفوا جميعًا ساهمين إلا زوجة أخيه الوحيدة التى شهقت قلقًا ثم حملتها برفق وأجلستها على أريكة قريبة، استفاقت من ذهولها باكية تنظر له عاتبة، فازداد قسوة عليها واتهمها بالدلع والادعاء، لم يقلق عليها أحد، ولم ينتبه أحد أنها كانت فى شهرها الأول من الحبل.

❋❋❋

obeikandl.com

(٦)

وقفت أمام المرآة تُكمل زينتها، كانت نادرًا ما تخرج مكتملة الزينة إلا إذا كانت برفقة محمود، الآن أصبحت تتصرف بشكل عكسى لما كانت عليه، حتى إنها تتوقف لتتذكر ماذا كانت ستفعل من قبل ثم تتصرف بالنقيض، صبغت شفتيها باللون الخوخى وفرشت وجنتيها ببودرة من نفس اللون، اعتنت برسم عينيها الواسعتين جيدًا، كانت تريد أن تُظهر جسدها الرشيق الذى لم يعبث به الزمن كثيرًا، وتحاول أن تُخفى ملامحها الطيبة التى اعتادها الناس، تريد أن تظهر اليوم ليس كالزوجة الحالمة والأم الحنون الطيبة، إنما كعالية الفتاة الجديدة المتحررة من قيود واقعها السخيف، بين طيات جسدها نثرت العطر الثمين الذى كانت تدخره للأفراح والمناسبات، نظرت لنفسها نظرة أخيرة متفحصة، شعرت أنها كالمزهرية الجميلة المُلونة، مرسومة بعناية ودقّة، وداخلها خواء، مزهرية مشروخة لكن لا أحد ينتبه للشرخ، لأنها اعتنت بإخفائه بين الزخارف الكثيرة الدقيقة.

فى حى المعادى تركت سيارة الأجرة بعد أن اتفقت مع السائق على المرور عليها بعد أن تنتهى من زيارتها، لم تكن المرة الأولى التى تزور فيها صديقتها غزل، فقد زارتها من قبل عند زواجها ومرتان للمباركة إثر ولادة ابنتيها، دعتها غزل بعدها كثيرًا لزيارتها والتجمع مع صديقات الكُلية، لكنها كانت دائمة الرفض وحريصة ألا تُبدد وقت بيتها وألا تشغل محمود بتلك الأمور الصغيرة، اكتفت بمهاتفتها فى المناسبات، لكن هذه المرة لم تُقاوم رغبتها بالخروج والالتحام

بالناس علّها تهدأ من أحاديث ذاتها المؤلمة، وعلّ قلبها ينشغل عن عذابه، وخوائها المُرعب يمتلئ ببعض التفاهات، فتحت لها غزل الباب، كانت مرحة ومُغرية، ترتدى بنطال جينز ضيق يُظهر حجم مؤخرتها الكبيرة، وبلوزة مفتوحة الصدر، عارية الأكمام، كعادتها تُبالغ فى إظهار أنوثتها وأناقتها التى تتوهم أنها تبرز بالثياب الضيقة والزواق الكثير، فكانت مؤمنة بأن مستوى الأناقة مُتناسب طرديا مع مستوى العُرى، رحبت بعالية وأبدت إعجابها الشديد بمحافظتها على رشاقة ما قبل الزواج، دخلت عالية لتجد العديد من زميلات الدراسة وقد اختلفت أشكالهن كثيرًا، فمنهن من ارتدت الحجاب ومنهن من ازدادت فى الوزن، وتغيرت طريقة لبسهن؛ فالبعض أصبحن أكثر تحررًا والبعض اكتفين بالعباءات الفضفاضة، حتى الملامح أصبحت أكثر انتفاخًا وأقل إشراقًا، ما عدا عُلا التى أصبحت أكثر شبابًا بثوبها الزاهى وحذائها ذى الكعب العالى، رغم أن وجهها قد بدأ يفقد استدارة الشباب، كانت طلتها المختلفة لها سببها الجوهري؛ فهى الوحيدة بينهن التى لم تتزوج.

الحديث بينهن لم ينقطع، كانت تشرد قليلًا لكن سرعان ما تُدارى الشرود بضحكة ومزحة ليست فى محلها، محاولة الظهور فى مظهر صبيانى عكس الصورة الأرستقراطية التى كانت تُحافظ عليها أمام الأغراب، بعد الحوارات العادية والأسئلة عن عدد الأبناء وأسمائهم ومشاكل العمل والملل والروتين القاتل، التففن فى دائرة كثيفة ضيقة، وبدأن حوارًا تعرفه جيدًا لأنه تكرر فى المرات القليلة التى اجتمعت فيها معهن، راحت غزل تحكى عن تهربها من زوجها عندما يطلبها للسرير وزعمها الدائم بأنها تُعانى من الصُداع أو الارهاق، حتى أنها اضطرت يومًا بأن تكذب عليه وتُخبره أنها تُعانى من التهابات تحتية تمنعها من الاقتراب منه لفترة طويلة، انفجرن جميعًا بالضحك وهى تحكى وترتج بالضحكات بين الكلمات، وراحت صديقتها نهى المتيدنة تنهرها عن هذا السلوك وتُحذّرها من غضب الله، فردّت عليها رنا، صديقة أخرى متحفظه قليلًا لكنها مستمعة جيدة:

«وهل يغضب الله على الرجل الذى يُهمل زوجته فى السرير حين تريد؟» صمتن جميعًا مثبتين أعينهن عليها، لم تجد إحداهن ردًا مناسبًا حتى نطقت غزل أخيرًا، وقد ناقضت نفسها خوفًا من الحسد:

«كلهم نفس الرجل يا رنا، صدقينى .. لا يهمهم إلا أنفسهم» .. طرحت إحداهن سؤالًا جريئًا: «متى تشعرين أنه قد تأخر فى دعوته للـ(حب)؟» جاءت الردود مُتفاوتة، فمنهن من قالت «أسبوعًا»، ومنهن من قالت «شهرًا»، وأخرى قالت إنه يطلب منها هذا أكثر من مرة فى اليوم بشكل مرهق ومنفّر، حتى إن شعرها لا يكاد يجف من غسيله اليومى، رمقنها بحسد مستتر باستياء من طبيعته الحيوانية وتعاطُف مع جسدها الذى يتحمل كل هذا العبء، أما رنا فصمتت واكتفت بابتسامة بائسة، شعرت عالية بحزنها وتابعت حركاتها فوجدت يديها ترتعشان وهى تصُب الشاى وتضع الجاتوه السواريه فى الصحن الصغير، كانت نظراتها زائغة مضطربة وابتسامتها مرسومة بدقة فوق حزن كبير لا يشعره إلا من ذاق مثله.

انتحت عالية بعُلا جانبًا، وقد كان الشرود حليفهما تلك الليلة، كانت عادة عالية أن تُبادر هى بالكلام وتُسدى النصائح، وتلعب دور الأم الصغيرة أو الأخت الكبيرة لصديقاتها المُقرّبات، وكان لكلامها وقع حنون وطيب، لكن لم يكن يُلامس رغباتهن بل يتقاطع معها أحيانًا، فهى كانت تستند فى كلامها دائمًا للمنطق وما يصح ولا يصح، كانت متأثّره بطريقة أمها فى تنشئتها بشكل كبير، حيث المثالية هى الهدف، لا مجال للأخطاء، لا يجب أن تُخطئ، وإن فعلت فعليك أن تجلد نفسك حتى الموت، كُن يستمعن لرأيها الذى لا يتناسب مع سنّها، وكأنه صوت العقل الذى يمر بنا فلا نطرده ولا نُقدم عليه إلا صاغرين، لكن فائض الحنان الذى كان ينهمر منها بدأ فى النضوب، لاحظت هذا عندما ضبطت نفسها لا تجد كلمات تقولها لعُلا، لا تجد لمساتها التى كانت تُصدّر بها رسائل الحنان والطمأنينة، شعرت أنها أصبحت عين جافة ليست بقادرة على بلّ حتى حلقها الملتهب.

عُـلا لم تكـن فى انتظـار مواسـاة صديقتهـا أو سـؤالها، كان مجـرد جلوسـهما وحيدتـين فى الزاويـة كاف بـأن يجعلهـا تتحـدث وتـروى لعاليـة تفاصيـل مشـاكل العمـل وكيـف أنهـا اضطـرت لتركـه بعـد الكثيـر مـن المعانـاة مـع إدارة عقيمـة، شـكت لهـا وحدتهـا وتشـابه الأيـام وقسـوة الحيـاة التـى بخلـت فى منحهـا شريـكًا جيـدًا عـلى أقـل تقديـر، فـكل مـن صادفتهـم فى الحيـاة عناويـن لعـدم تحمـل المسـؤولية، كانـت قـد انتهـت منـذ شـهور مـن الحصـول عـلى الماجيسـتير، تُزجـى وقتهـا فى الدراسـة وتمـلأ خزائنهـا بالكثيـر مـن الشـهادات العلميـة عوضًـا عـن قُمصـان النـوم الخفيفـة وثيـاب الحمـل الفضفاضـة وأغـراض الأطفـال الصغيـرة.

«لا أحـد يُـدرك شـعورى يـا عاليـة .. هـل جربـت أن تجـدى نفسـك حبيسـة مـكان تمـرّ بـه كل يـوم فتـاة، تصبحـان صديقتـين وفجـأة تأتـى العمـل بالدبلـة الذهبيـة فى خنصـر يدهـا اليُمنـى، وباليـد الأخـرى تُقـدم لـك الشـوكولاتة، فتُباركـى لهـا بسـعادة، ثـم تُصبـح حياتهـا كلهـا هـو واتصالاتهـا الطويلـة وقُربـه وخصامـه وأُسرتـه غريبـة الأطـوار، ثـم لا تتحـدث إلا عـن إعـداد بيـت الحيـاة وكل تفاصيلـه، وقـد تحتاجـك لمسـاعدتها فى شـراء مسـتلزمات العـروس، ثـم تدعـوك لفرحهـا، فتُفصّـلى ثوبـا جديـدًا لتكونـى زاهيـة وتظهـرى سـعيدة فى الصـور، ثـم تغيـب وتأتـى بعـد شـهر بوجـه مُضيء وملابـس جديـدة وأحذيـة بكعـوب عاليـة، لا يلبـث أن يشـحب الوجـه الجميـل وتتبـدل ملامحهـا لذبـول أيـام الحمـل الأولى .. ثـم تنتفـخ بطنهـا وتُبطـئ حركتهـا شـيئًا فشـيئًا، وترتـدى الأحذيـة المنخفضـة المريحـة، لا تتحـدث إلا عـن أعـراض جسـدية مقـززة وأغـراض صغيـرة مبهجـة .. ثـم تغيـب لتضـع الطفـل، وتعـود وكأن الزمـان لم يمـر إلا عـلى جسـدها المُترهّـل وعقلهـا المشـغول وتركيزهـا الضائـع، تتكـرر القصـة حولـك بأبطـال مختلفـين، وتبقـين وحـدك المشـاهدة التـى تُبـارك وتُشـارك وتُفصّـل الفسـاتين الجديـدة وتتصنـع الابتسـامة وتـودّع وتسـتقبل ..

ثم تسألينى عن الملل؟!»

«أنـت فى نعمـة لا تُقدرينهـا يـا عُـلا .. أنـت لا تُدركـين معنـى أن ترتبـط حياتـك

بشخص لا تأكلين إلا معه، لا تنامين إلا إذا نام، لا تخرجين إلا إذا وافق، لا تتحدثين إلا إذا كان مستعدًا للإنصات، ويجب أن تُنصتى إذا أراد هو التحدّث، وهذا نادر .. أنت لا تُدركين معنى القيود التى تظل تُلاحقك طوال اليوم، حتى لا تجدين متسعًا من الأكسجين للتنفس، فى الزواج أيضًا تتصنعين الابتسامة والراحة حتى وإن كنت حزينة وتعبة، تبتلعين غضبك حتى يمُرّ اليوم بسلام، تتحملين وتتغاضين عن الكثير من المشارط التى تنهش كرامتك .. ثم تسألينى عن الإحباط؟!»

«اسمحى لى يا عالية .. هذا ضعف، سبب استسلامنا للطرف الآخر ليس قوّته ولكن ضعفنا».

«هناك ضعف إجبارى يا عُلا .. ولا تغُرّنك متصنعات القوة .. فهن إما أضعف من ألسنتهن الحادة وطباعهن الجافة التى يُدارين بها عجزهن، أو أن الطرف الآخر اختار أن يضع فى أياديهن مقاليد الأمور حتى يتخلص من مسؤولياته، فاضطررن أن يكن أقوياء!»

– أشعر من كلماتك بتغيير كبير .. تغيرت يا عالية.

لقد اعتادت أن تسمع هذه العبارة فى الشهور الأخيرة، فلم يُصبح لها صدى غريب فى أذنها، شعرت أنها فتحت بابا من النصائح الغالية عن الزواج والمسؤوليات والتقصير، التى عادة ما توجهها العازبات للمتزوجات، والتى تُصيبها بارتفاع فى ضغط الدم، كيف لا وهن لا يدرين شيئًا عن المشاعر التى لا يتعاطفن معها بل وينتقدنها لصالح الأزواج الطيبين، هن يظنن أن الشكوى عادة للمتزوجات ودلع وسوء تصرف، حاولت أن تُغيّر دفّة الحديث حتى لا ينقلب فى اتجاهها، فسألتها باهتمام:

– حدثينى عن آخر عريس قابلتيه .. قد ألمس موضع المشكلة.

قالت باسمة: إنها مواضع كثيرة يا عالية.

ضحكا بمرح ثم استطردت عُلا:

- كان مُهندسًا يعمل بشركة للبترول فى الصحراء الغربية.
- لا أجد غضاضة فى بُعد عمله أو سكنه.
- ليست تلك المشكلة .. تعرفين أنا لا أهتم كثيرًا بهذه المسائل، لكنه كان بشارب غير مُهذّب، يرتدى بذلة من طراز قديم لونها مشمشى وينثر الرذاذ من فمه أثناء الكلام، الأدهى أنه كان يضع فى إصبعه خاتمًا بفصّ كبير.

انفجرتا فى الضحك وراحتا تستعيدان ذكريات عرسان الغفلة بمظاهرهم المضحكة وتصرفاتهم الكوميدية، ضحكتا بشكل هستيرى حتى اغرورقت أعينهن بالدموع، وكادت عالية تُبلل سروالها الداخلى كعادتها القديمة فى نوبات الضحك الكبيرة، والتى أصبحت نادرة منذ تزوجت، اقتربت منهن الفتيات ورحن يشاركنها قفشات زواج الصالونات، غرق الجميع فى ضحك يُشبه البكاء.

فى طريق العودة اصطحبت عالية صديقتها نورا، هى ليست صديقة بقدر ما هى زميلة دراسة، كانت فتاة منغلقة على نفسها إلى حد كبير، لا تعرف إلا عددًا محدودًا من الأصدقاء، دائمًا تدّعى الثقافة والمثالية، تُعامل الجميع بلهجة متعجرفة وادعاء بالتواضع، لم تكن صديقة لعالية التى تُفضّل التعاملات البسيطة العفوية، لم تتقابلا إلا مرات قليلة عند غزل، كانت تسكن بالقرب منها فاصطحبتها لتوصلها فى طريقها، كانت نورا ساهمة، مكتومة، كأنها على مشارف الانفجار، لم تسألها عالية السؤال المعتاد «ماذا بك؟» رُبما لأنه يُضايقها هى ولا تطيق أن تسمعه فى زُمرة ألمها وحزنها. لكنها لم تجد مفرًا مع لفحة الاحمرار التى لسعت وجه نورا وكأنها قطعة كعك تركت الفُرن توًا، وسألتها فإذا بنورا تبكى دون إجابة، ثم تميل على عالية وتدفن رأسها فى صدرها فى حركة مباغتة وتستمر فى الأنين الحار، أمرت عالية السائق بالوقوف أمام مقهى قريب هادئ، أعطت نورا المناديل حتى تمسح دموعها وربتت على كتفها، ثم سحبتها للمقهى ودعتها إلى كوبين من القهوة الإكسبرسو بالحليب.

كانت نورا تبدو كالدمية مسلوبة الارادة، لم تنطق إلا بعد حديث طويل من

عالية عن مواضيع كثيرة غير مترابطة، لم تكن عادتها الثرثرة إلا مع محمود، لكن هشاشة نورا ونارها المشتعلة أثارا فيها الرغبة للحديث الفارغ فقط من أجل الترويح عنها، أما نورا فبدأت حديثها بفاجعة:

- لقد خاننى يا عالية.

تسمّرت عالية فى مكانها لا تُدرك من الكلام إلا حروفه، إنها تعرف أن نورا مُطلّقة منذ عدة أعوام ولها طفلة صغيرة، لم تُدرك من الخائن، أهو الزوج وقد عاد أم أنه رجل آخر، تقافزت الأسئلة فى عقل عالية التى لم تنطق رغم زخم الكلمات وبزوغ علامات الاستفهام، أنقذتها نورا من حيرتها واستكملت حديثها دون النظر إليها وكأنها تُحدّث نفسها:

- أحببته وشاركته بكل ما فى قلبى، وعدنى بأزهى وأقوى الوعود، كان مُقدّر لنا أن نتزوج فى الصيف القادم، ثم أكتشف بالصدفة خيانته الوقحة لكل ما بيننا.

لم تعرف عالية كيف تهوّن عليها، تشابه الألم واختلفت الجراح، فمنذ عدة أشهر كانت فى نفس الكرسى ولكن شعورها كان أقسى لأنه زوجها بالفعل، والرجل الوحيد الذى سلّمته كل مفاتيح مشاعرها، يا الله؛ مال هذه الليلة تحمل الكثير من الوجع؟! ذهبت معهن بدافع البحث عن سعادة، فما وجدت غير الألم خلف الضحكات العاليات والوجوه المصبوغة، كلمات المواساة تنتحر على شفتيها وقلبها يئن بوجعه الخاص، فلتت منها كلمة واحدة لا تُسمن ولا تُغنى من جوع:

- معلش.

- أنا لست حزينة عليه بقدر حُزنى على نفسى .. على ثقتى التى وهبتها له وهو لا يستحق .. لم يستحق كل ما تجاوزته من أجله .. لقد خذلنى .. لا أحد يعرف الخذلان مثلى.

- لا عليك يا نورا .. سيأتى يوم يندم فيه ويدفع ثمن خيانته.

نظرت لها نورا نظرة حادة وكأنها تقول «توقفى، جئت معك فقط كى أتحدث وتسمعى، وليس لأسمع كلماتك الخائبة»، عادت عالية للوراء بعد أن أدركت الرسالة وتابعت الحديث بعينيها، استمرت نورا فى الحكى الذى يتخلله البكاء، إلى أن قالت جُملة استوقفت عالية وجعلت قلبها يقفز من خلف ضلوع زنزانته.

- ما يؤذينى أكثر أنه سيستمر فى حياته وكأن شيئًا لم يكن .. سيستمر فى ممارسة دوره كزوج وأب، وكأنى ما كنت.

- زوج .. وأب؟!

هكذا استنكرت عالية بصوت ما من أعماقها.

- نعم يا عالية، زوج وأب.

- وكنت ستتزوجينه وهو متزوج؟

شعرت نورا بحرج وأدركت كم تمادت فى حكيها لعالية، وكان لابد من تقديم مستندات الدفاع من تهمة وقعت عليها فى غير وقتها.

- جمعنا الحب يا عالية، لم تكن الظروف عائقًا بيننا.

- خانك وهو متزوج؟ مع امرأة أخرى .. ثالثة!

انكمشت نورا وقد أدركت حقيقة كانت غائبة عنها، ليس حقيقة أنه خانها وهو يخون زوجته، ولا حقيقة أنه لم يُخلص لخيانته، ولكنها حقيقة أنها حكت قصتها للإنسانة الخطأ، كيف نسيت أن عالية هى الفتاة المُتحفّظة المُدللة، التى لم تعرف الحب ولا عذاب الطلاق ولا الخيانة، إنها الطفلة التى تعيش دائمًا كعرائس الماريونيت يتحكم زوجها بكل خيوطها، لا تعرف شيئًا عن الحياة إلا ما سمح لها هو بأن تراه وتعرفه.

- عالية، لا أريد سماع رأيك أرجوك.

ردت عالية كأنها لم تسمع شيئًا، وكانت لم تفق من ذهولها بعد:

- كيف تُساعدين رجلًا على خيانة زوجته وتنتظرين منه الإخلاص؟

- عالية، يجب أن تعرفى أن الحب يأتى دون سبب، أنا لم أقصد أن ..

- أنتِ لم ترى إلا نفسك واحتياجك للحب، لم يهمك سوى تنفيذه لوعوده لك، وماذا عن وعوده لزوجته يا سيدتى؟ هل حلال أن ينقض وعوده لها وحرام أن ينقض وعوده لك؟

- أنت لم تُحبّى يومًا يا عالية حتى تفهمينى.

- لو كان هذا هو الحب فأنا لا أريده.

بكت نورا بحُرقة لم تبلغ مداها منذ بدآ حديثهما، حاولت عالية أن تُطفئ شعلة غضبها دون فائدة، لكن رغمًا عنها تعاطفت مع المرأة المتعجرفة المنهزمة أمامها بدعوى الحب، قالت لها بنبرة أهدأ:

- اسمعى يا نورا .. لو كان يُحبك كان سيُحافظ على علاقة طيبة بك، وصداقة يستطيع من خلالها أن يظل بقربك ويُساندك بعشم الأصدقاء، دون أن يؤذى حياتك أو حياة زوجته، لكن هو لم يُحبك، هو أرادك، أنانية الرجل فيه وطمعه جعلاه يُصرّح لك بحبه ويعدك بما لا يستطيع، ورغبتك فى الحب صوّرت لك ما هو أكثر .. يا عزيزتى لا تشكى بعد اليوم من خيانة خائن .. هو لم يكن لك على أى حال حتى تشعرى بأنه خانك، هو كل ليلة ينام فى حضن زوجته .. تذكرى هذا جيدًا.

قالت الجملة الأخيرة وهى تتكئ على حروفها، ثم همّت بالخروج، لكن نورا رفضت أن تُرافقها وأخبرتها أنها تودّ المكوث وحيدة لبعض الوقت، لم تُلح عليها إنما تركتها ببساطة، عادت للمنزل وهى تستعد لمشاجرة محمود الذى طلبها عدة مرات على الهاتف حتى يأمرها بالعودة أو يُعاتبها على التأخير؛ ولم تُجاوبه، اعتادت أن تخاف مشاجرته وعتابه، حاول جاهدة انتقاء الكلمات التى تُخفف من غضبه، لكنها الآن أصبحت لا تخشى غضبه، هى فقط تستعد بأن تضع مشاعرها فى قمة ثلجية حتى لا يستفزها لارتكاب حماقة تهدم كل ما خططت له، بكاء نورا

وشكوتها المريرة من الخذلان، التى بدت لها شكوى مثيرة للاستياء أكثر منها للشفقة، جعلاها تشعر بأن جرحها بدأ ينزف من جديد والحُزن الثقيل عاد يُخيم على قلبها، لكن شعورها بالاستياء كان أكبر.

وقفت أمام فاترينة المحل فى حالة تردد، فهى تمرّ جواره كثيرًا تشاهده بطرف عينيها، ولم تجرؤ يومًا على الاقتراب، كل يوم يعرض لونًا مختلفًا وموديلات مثيرة، اليوم قررت أن تزوره أخيرًا بعد إلحاح من عقلها، بالصُدفة كان لونه أحمر، الأحمر لم يعد يجذبها كثيرًا .. كانت تعشقه حتى أخبرها محمود أنها تبدو رخيصة بالقميص الأحمر القصير، لم ترتد أحمر بعدها، سرحت بخيالها فى القطع المعروضة، تتخيل نفسها بكل قطعة وتحاول أن تتوقع أيهم سيكون أكثر إثارة.

دخلت المحل بخُطى مترددة، ارتاحت عندما خرج صاحب المحل تاركًا إياها مع البائعة الصغيرة، سألت ببراءة لا تتناسب مع كونها زوجة منذ عدة سنوات:

- أريد قميصًا جيدًا...

ردت البائعة باستنكار: جيد كيف يا سيدتى؟ تريدينه محتشمًا مثلًا؟

- لا، لا، أقصد .. أريده جذابا فحسب.

تنهدت البائعة: هل هو لك أم هدية؟ أشارت إلى نفسها، فعادت البائعه تسأل:

- تريدينه طويلًا أم قصيرًا؟

- قصيرًا .. لأنى قصيرة، سيناسبنى أكثر.

البائعة بغمز: الرجال يحبّون المرأة القصيرة على أى حال .. حسنًا، أى لون تفضلين؟

- أى لون عدا الأحمر.

ردت البائعة باستنكار: لا تذهب عقولهم إلا أمام الأحمر.

حركت كتفيها فى استسلام وأطبقت فمها، تذكرت المرات القليلة التى زارت فيها محلات «لانجيرى» مع بنات خالها، وكانت كل واحدة منهن تعرف جيدًا ماذا يفضل زوجها وماذا يجعلها أجمل وأشهى فى عينه، أما هى فأبدًا لم تعرف يومًا ما يعجبه فيها أو عليها، فكله عنده سواء، كن يسألنها عن نفسها فتجاوب بسذاجة أنه لا يحب هذه القطع .. فلطالما كان رأيه أنها غير مفيدة، لا تقبع على الجسد أكثر من دقائق، فما جدواها؟ يضحكن بهيستيريا من كلامها، تظل لا تشترى رغم الاغراءات، ورغم شغفها بهذا التفنن الراقى فى شتى أنواع العرى.

أفاقت من سرحانها على البائعة التى أحضرت لها قميصًا أحمر قصير، واسع بحمالتين كخيوط النور، وقالت كخبيرة:

- هذا سيناسب ملامحك البريئة وسيجعلك مثيرة بدون الكثير من التفاصيل.

وافقت كالمجذوبة واشترته دون أن تنطق بكلمة، احتفظت به فى مكان سرى، سترتديه الليلة؛ هكذا قررت، مهما كانت ردّة فعله، حتى لو أتى منهكًا ولم يرها ونام، ستنام ليلتها به ربما تختلف الأحلام، سترتديه من أجل نفسها وليس من أجله، فهى تحتاج أن تشعر أنها جميلة ومُدللة وامرأة!

وقفت به أمام المرآة وكأنها أمام امرأة أخرى لا تعرفها، حررت شعرها الكستنائى الأشقر، أحمر أبيض أشقر .. «رخيصة، تبدين رخيصة»، كلماته لا تفارق خيالها. حسنًا، ستُجرّب أن تكون رخصية هذه الليلة، فلطالما مثلت أدوار الأرستقراطية والنضج وعدم الاكتراث، لكنها حقًا تكترث وتتوق لأن تكون مختلفة همجية حافية القدمين هذه الليلة.

جلست أمام المرآة فى مشهد نادر لا تراه إلا فى أفلام السينما، كانت تجرب أن تضع الزواق بشكل أكثر إثارة وكثافة، أحمر الشفاه يجعل شفتيها كحبات الكريز، والكحل الأسود يجعلها ناضجة، أما البودرة الخوخية فتجعل وجهها مُضيئا، لكنها سرعان ما مسحت وجهها بمجرد أن انتهت، فلطالما آمنت أن ملامحها البارزة، بشرتها الصافية وشفتيها الوردية العارية تجعلها أشهى .. ولكنها لا تدرى بماذا يؤمن هو!

ستُعدّ نفسها له بالموسيقى والرقص، ليس فقط لتحلق روحها بعيدًا عن هذا الجسد المحبوس، ولكن ليحيا هذا الجسد، ليفيق من سباته، ليصيح ويضحك ويبكى .. ظلت ترقص، تنثنى وتدور حتى تلاشت كل الأحداث من ذاكرتها فأصبحت كصفحة بيضاء، تخلصت من كل آلامها، جراحها، وحتى روحها التى تعذبها .. جسدها الميت عاد للحياة لكن بلا روح.

ألقت بنفسها على السرير منهكة من الرقص، هذا السرير الواسع، تتذكر جيدًا يوم شرائه عندما قال زوجها للبائع «أريد أكبر سرير لديك»، وقتها غضبت فى أعماقها، كانت تتمنى أن يشترى أصغر سرير، أصغر مكان يجعل الأجساد مُلتصقة دائمًا بحميمية عن دون قصد، جسدها يشع حرارة ورغبة، صدرها يرتفع وينخفض من فرط التوتر، بعض الشعيرات ملتصقة على جبينها بحبات العرق،

أغمضت عينيها وتخيلت يديه وهى تخمش هذا الجسد الناضج تمامًا، نظرته التى تخضع ما تبقى من مقاومتها، وصدره العارى الذى يقترب منها فى حنان حبيب ورغبة رجل، فيصرع خجلها بالضربة القاضية، حتى لو رفضها، حتى لو طلب منها أن تبدأ هى بكل شيء لأنه تعب، حتى وإن لم تغره، ستكون اليوم أنثى جذابة رغم أنفه، ستكون مغرية وشهية حتى لو لنفسها، هذا الجسد الجائع قد ترويه بعض نظراته أو لمساته، وقد يبات ليله جائعًا كأيام طويلة مضت، لهذا هى تخشى الزواق، لهذا هى تكره اللانجيرى، تكرهه لأنه كثيرًا ما يخذلها، كثيرًا ما يجعلها تشعر بأنها لا وجود لها، وبأنها أكثر مخلوق منبوذ على وجه الأرض.

عندما دخل غرفته مساء كانت هى على السرير ببيجامة محتشمة واسعة بلون السماء، منقوشة بدباديب صغيرة صفراء، كان مشغولًا كالعادة، لم تلفت انتباهه رائحة عطر كانت تسرى على استحياء فى الغرفة، لم يرها وهى ممددة باستسلام، لم يشعرها، لم يدر شيئًا عما بها، ولم يلحظ القطعة الحمراء الملقاة تحت قدميه.

❋❋❋

(٧)

التليفزيون لم يكن لها مجرد أداة للتسلية، كان منذ تزوجت أنيسها، مُعلمها، صديقها، ومُهرجها الذى لا تملّه أبدًا، كانت تُتابع بشغف منذ مُدة تطورات أحداث ثورة ٢٥ يناير، التى كانت تُشجعها وتباركها من مكانها أمام شاشات التليفزيون والكومبيوتر، تمنت كثيرًا لو تُشارك فيها بوجودها كما تُشارك بروحها، لكن مجرد التفكير فى مثل هذا الأمر كان مرفوضا بالنسبة لمحمود، الذى صرخ فيها بعنف عندما واجهته بأنها تنوى النزول للميدان يوم جمعة الغضب الأولى، أغلق عليها الباب بالمفتاح، تركها وحيدة وذهب للاطمئنان على أسرته، ظلت تُحلّق بروحها هناك، تُشجّع، تبكى، تُداوى، تزأر وتهتف، دون أن تُغادر مقعدها الأثير أمام الشاشات، لم تكن تثق بكل ما تقرأ أو تسمع من المحللين السياسين وأصحاب الرؤى والمصالح، ثقتها كانت من قلبها وتصديقها كان لعينيها، منذ قيام المظاهرات وهى تتمنى أن تكون نهاياتها وهى تصرخ فى وجه ظلم واستبداد النظام، وقهر البشر والأحلام، لكنها ظلّت تقبع فى البيت مُكبّلة بألف قيد، تنتظر الأوامر كعساكر الأمن البسطاء المنبوذين.

فى هذا المساء كانت تُشاهد معارك المتظاهرين مع أفراد الأمن، والتى تحولت لحرب شوارع، كرّ وفرّ فى ميدان التحرير وشارع محمد محمود، كانت مذهولة من كون الشرطة مازالت على عنفها وغباء تعاملها بقنابل الغاز والرصاص الحى مع متظاهرين عُزّل إلا من الحجارة والألعاب النارية، رغم مرور أحد عشر شهرًا على الثورة وعلى إسقاط نظام كان يلجأ لقمع المتظاهرين بالعنف والقتل.

رأت صورًا عديدة ومقاطع فيديو لضباط وأفراد أمن يصوبون أسلحتهم على وجوه وأعين المتظاهرين، لم يقصدوا إثارة الخوف والبطش بهم، بل أرادوا تشويههم وإحداث إعاقات لديهم، ليس أسوأ من أن تؤذى أحدًا بأن تشوهه فيظل يذكر الجرح كل يوم وكأنه جزء من ملامحه.

لم تكتفى بالبكاء كما كانت تفعل أيام الثورة عند رؤية مشاهد العنف والقتل، هذه المرة كانت داخلها صرخة كبيرة مرعبة، ليست صرخة احتجاج، لكنها صرخة ألم محبوس ومحتقن فى كل شرايينها، ألم من وطن مجروح، كرامة مجروحة، إنسانية مجروحة وقلب مجروح، إنها تشعر بنفس شعور آلاف المصابين، داخلها نفس التشوّه الذى أحدثه الأمن لهم، لكنه تشوّه صعب الشفاء منه، كندبة فى القلب لا تندمل، خيانة محمود، محاولتها لخيانته، تمثيلية الحب التى أوقعت فيها فرح، شعورها الدائم بالمهانة، الصرخة تُريد أن ترتفع فى السماء وتدوى بكل ما فيها من ألم.

فى لحظة تمرد أخرى قررت أن تنزل ميدان التحرير، لن تأبه بأوامر محمود بعد الآن، لقد خرج العصفور من القفص ولن يُقبض عليه من جديد، فهو حتى وإن نسى التحليق البعيد لازال بإمكانه الهروب لأقرب شجرة حُريّة، كل قيم الطاعة والاذعان الآن لن يُصبح لها معنى بعد أن سقطت أوراق التوت عن سوءتها وانكشف مكنون النفوس، نفسه الأنانية الخائنة ونفسها المنقادة التابعة، الكارهة، إنها تكره .. تكره بكل ما أوتيت من قوة فى قلبها.

فى الصباح أرسلت له رسالة هاتفية تُخبره أنها ستزور المركز التُجارى القريب لشراء بعض الأغراض، دخلت الميدان وكانت ترتدى بنطال جينز تحتفظ به من أيام الكلية، حيث لم يزدد وزنها إلا زيادة طفيفة عند البطن والأرداف، وبلوفر أبيض طويل محايد زيّنته بكوفية مزركشة، طرحة منقوشة بوردات صغيرة فوق رأسها، حذاء رياضى خفيف وحقيبة كبيرة بذراع واحد يمر فوق عنقها وصدرها لتستقر الحقيبة على جانبها الأيمن، وضعت بها كعكات منزلية صغيرة

صنعتها فى اليوم السابق بالزبيب وعين الجمل، زُجاجة مياة معدنية، ولوحة طويلة مطوية كتبت بها بخط جميل (يسقط يسقط حُكم العسكر).

لم تكن تعرف أن زيارتها لميدان التحرير فى هذا اليوم ستُغيّر أقدارها للأبد، كانت قد مرت كثيرًا بالميدان قبل سنوات الزواج، لكن الميدان اليوم مختلف، مختلف حتى عن صورته فى التليفزيون والانترنت، يبدو سوقًا شعبيًا، الباعة الجائلون وبائعو المشروبات والأكلات الخفيفة فى كل مكان، بائعو الأعلام أيضًا أكثر عددًا من حملة الأعلام، بدأت تخاف عندما رأت مجموعات من الشباب المُهتاج يُغنون ولا يهتفون، يقتربون كثيرًا من المارة فى خطواتهم، مظهرهم رث وعيونهم الزائغة تدل على نوايا مُبيّتة لأى شكل من أشكال التحرش، كاد سحر المكان الذى طالما تخيلت وحلمت بتواجدها به يتلاشى، إلى أن ظهرت فى إحدى الجوانب مظاهرة كبيرة تسير باتجاه شارع محمد محمود، أفراد الأمن فى كل مكان بالقرب من المظاهرة كانوا قد صنعوا سياجًا بشريًا هائلًا، ربما منع خطوات المتظاهرين لكنه لم يمنع حناجرهم وقلوبهم التى كانت تهتف وتصرخ بقوّة، اقتربت منهم وحاولت جاهدة أن تهتف معهم، لكن صوتها أتى ضعيفًا كأنّه نسمة تسير ببطأ وسط عاصفة عظيمة.

ازدادت أعداد المتظاهرين حولها، شعرت بدوار من جراء زحام لم تعتده، الاحتكاك المباشر بالناس كان غريبًا عليها، تُمارسه الآن مع أطياف متعددة من البشر روائح أجسادهم وعرقهم تزكم أنفها، ولم تتوقف الروائح عند العرق، فبدون أى إنذار فوجئت عالية بسحابة بيضاء تُعبّئ الجو وتخترق جدًار أنفها الدقيق، شعرت أن جلد وجهها يتساقط وأن عينيها تحترقان، وقبل أن تُفكّر كانت رغبتها بالسقوط تعظم، صرخت لتستنجد بهم، فظنوا أنها تصرخ غضبًا واحتجاجًا، حتى سقطت بالفعل.

كانت بنصف وعى تشعر بأشخاص يسندونها وتسمع أصواتًا مُمتزجة دون أن تُميّز الكلمات، تتحرك دون أن تسير، لا تدرى إلى أين، تتمنى أن يكون كل شيء

ليس أكثر من حلم مزعج، فتحت عينيها لتجد نفسها مستلقية على غطاء سرير من الصوف فوق الأرض فى مكان إضاءته ضعيفة، جوارها تقف فتاة فى يدها زجاجة عطر، فهمت أنها كانت تُحاول إفاقتها، وحولها بعض الناس مشغولين بإسعاف آخرين، رأت مشاهد مشوشة لدماء على الملابس ووجوه حمراء كأن دماء الجسد كله تجمعت بها، أصوات أوامر سريعة، كلمات مبتورة ممتزجة بتأوهات، نهضت بجزعها لتتفحص المكان وهى تسمع «حمد الله على السلامة» من الفتاة المجاورة، كان مكانًا أنيقًا بسقف عال تُزيّنه صور جميلة وزُجاج مُلوّن، بعض التماثيل برزت من الجُدران والبعض كان متناثرًا عند الأركان، به منصّة صغيرة، وفى ساحة قريبة رأت مقاعد صغيرة مرصوصة بشكل منظم، كان يُشبه أماكن شاهدتها فى الأفلام الأجنبية لكنها لم تستطع أن تتكهن ماهيته، فعقلها مازال يعجز عن العمل بكل طاقته، ثم أدركت فجأة أنها أول مره تتواجد فى كنيسة.

سمعت كثيرًا عن المستشفيات الميدانية، وشاركت العديد من صورهم على مواقع التواصل، لكنها المرة الأولى التى تدخل فيها الأحداث حيز حياتها الافتراضية التى عايشت بها الثورة، المستشفى كانت داخل الكنيسة والفتاة التى كانت تُفيقها هى طالبة بكُلّية الطب وتعمل بالمستشفى، غادرت المكان وهى مبهورة ومأخوذة بالأجواء الجديدة عليها، ولولا أنها تذكّرت موعد عودة محمود وأنها تُريد أن تسبقه للبيت لمكثت وقتًا أطول فى الميدان، وفى المستشفى تحديدًا، وجدت فى نفسها رغبة للمُداواة، خاصة وأنها حصلت فى إجازة صيف قديمة على دورة فى الاسعافات الأولية، لم تتخيل أنها ستنفعها يومًا ما، فى الشوارع المُحيطة بالميدان وجدت مظاهرات متعددة، لاحظت أن كل مظاهرة لا تُشبه الأخرى، مناظر المتظاهرين وهيئتهم كانت هى مصدر الاختلاف وإن توحدت الأهداف والشعارات، حتى الهتافات مختلفة بين المظاهرة والأخرى، هناك هتافات ناقدة لاذعة، وهناك هتافات تحمل الألفاظ النابية والسُباب المباشر، وهناك هتافات حماسية على دقّات الطبول وأخرى أقل حماسًا، هذه المرة لم تُفكّر بالمشاركة فى أى

من المظاهرات، كانت تُشاهد وكأنها تمر بكرنفال غريب فى بلاد غريبة والأمر كله لا يعنيها، ما يعنيها فقط أن تعود للمنزل قبل محمود، فى الطريق لمحطة المترو وجدت تجمّعًا من عشرات الشباب والفتيات صامتون جميعًا كأن الطير فوق رؤوسهم، اقتربت حتى سمعت الصوت الذى غير مجرى أيامها التالية.

كان لصوته رنّة مميزة حادة، وكان كلامه مختلط بسحر يجعل كل من يسمعه يقف مشدوهًا منجذبًا لكل تفاصيل حديثه، هى لم تكن دخلت هذا العالم بعد، كانت مازالت بعالمها المنزلى الدافئ الآمن وبعقلها الذى يرى الكون من خلف ورق السولوفان، سمعت كلامه بوعى كامل وبدأت تتمعن فى مقاصده، كان يتحدث بانسيابية شديدة، كلامه كان ينبع من التاريخ ليصب فى السياسة ثم يطير للجغرافيا ويعود ليرسو على الأدب، لم يكن الناس مأخوذين بثقافته الواسعة بقدر انجذابهم لأدائه كحكّاء وصديق ومُعلم وصبى ورئيس إن لزم الأمر، تجنبت سحر أسلوبه الذى بدأ يلعب برأسها ورنت فقط إلى الكلمات، أثناء تنقله بين المواضيع وحكاياته الكثيرة المتصلة ارتطمت إحدى أفكاره برأسها العنيد، عندما دافع عن أطفال الشوارع والبلطجية المندسين بين المتظاهرين، قال إن من حقهم أن يتظاهروا ويُنفّثوا عن غضبهم، من حقهم أن يُشاغبوا ويحرقوا ويسُبّوا ويبولوا على عساكر الأمن والجيش إن لزم الأمر، انتفضت هى ولم تصمت كطبيعتها المتحفّظة:

- يا أستاذ حضرتك تُحرّض على المزيد من المشاغبة وأعمال العنف التى تتنافى مع طابع الثورة السلمى.

توقف عن حديثه الشيق ونظر لها بتعجب وتفحص دون أن ينطق، بينما اتجهت أنظار المستمعين إليها، تسرب القلق لقلبها لكنه لم يظهر على ملامحها المُصرّة، وقبل أن يرُد استكملت:

- أيضًا حضرتك تستخدم ألفاظًا وعبارات لا تليق أن تُقال على الملأ، خاصة أن حولك الكثير من النساء.

رد بهدوء وابتسامة حاول أن يحتفظ بهما:

- هل هى أول مرة لك فى الميدان؟

ارتبكت، تساءلت داخلها كيف عرف، ثم جاوبته بثبات:

- ليس من المناسب أن تُجاوب على النقد بسؤال.

- السؤال إجابته متعلقة بردى عليك .. فإذا كنت من مُرتادى الميدان ومعتادى المظاهرات كنت ستدركين ما قلته وكنت ستجتازين الألفاظ والسباب لما وراءه، فدائمًا ما وراء الكلمات أكبر، والتعبير فى الشارع يكون بِلُغته وليس بلغة الكتب والمقالات. أما إذا ساءك حديثى فما كان لكِ أن تقفى وتسمعيه، ثم تقاطعينى لتعلقى تعليقًا خارج السياق.

صدمها رده، ولكنها لم تصمت، قررت أن تُلملم ما بدأته:

- أنا لم أتكلم خارج السياق، وبما أنك تخطب فى الشارع فليس عليك أن تختار مستمعيك وليس عليك أن تفرض شرط عدم النقد لأنه حق لكل من يسمعك.

- أختى العزيزه أنا لم أقصد أن...

- أنا لست أختك!

قالت الجملة الأخيرة بغضب ونفاد صبر بعد أن شعرت أنها تعبة وغريبة تُريد أن ترحل بأى ثمن حتى وإن هُزمت فى الحوار، امتقع وجهه غضبًا من جملتها الحادة وحاول جاهدًا أن يحتفظ بجزء من هدوئه، بينما انفجر العرق من جبهته السمراء:

- وأنا لا يعنينى أن تكونى أختى! أنت لا تُجيدين الحوار لذلك أُفضّل أن أنسحب .. (نظر للناس حوله) عُذرًا سأذهب الآن ولنستكمل حوارنا فى وقت آخر.

بدأ الناس فى الهمهمة والتفوا حوله ليقنعوه بالبقاء، أما هى فانسحبت

بسرعة وخوف، لم تتوقع أن يرد عليها بهذه الحدّة، فمن خلال تعاملاتها القليلة مع الرجال عرفت أنهم مُهذّبو ن .. إلا مع زوجاتهم. طوال اليوم والأيام القادمة لم تكن تُفكّر إلا فى هذا الموقف، النهار كله الذى قضته بالميدان كان يشغلها، لكن تلك الدقائق التى اشتبكت فيها معه كانت تشغلها أكثر، فكّرت أنها لو قابلته مرة أخرى ستعتذر له، ثم طردت الفكرة من رأسها وودّت أن تراه مره أخرى حتى تلومه وتوبّخه، لكن من يكون هو حتى تلومه أو تُعاتبه، ومن يكون حتى تُفكر فيه من الأساس؟

نحن لا نلوم إلا من يعنون لنا شيئًا، لا نُعاتب إلا من تهمنا صلتنا بهم، وهو ليس سوى رجل عابر مرّ خارج أسوار حياتها.

عادت لمتابعة أحداث الميدان وشارع محمد محمود ومشاهدة الفيديوهات التى اشتهرت لقناص العيون، هذه المرة لم تكن مكتفية بالمشاهدة وتمنّى المشاركة، كانت مشتاقة للميدان، صحيح أن الساعات التى قضتها هناك كانت صعبة وغريبة لكنها تعلّقت بالمكان، تراب المكان مثل ماء النيل؛ من يتذوقه يرغب دائمًا فى العودة إليه، وهى لم تعُد تُفكّر إلا فى العودة مهما كلفها ذلك من عناء، فى المساء كانت قد حسمت أمرها، فى الصباح كانت فى الميدان عند الكنيسة بالتحديد، فقد قررت أنها ربما لا تصلح للالتحام مع البشر فى المظاهرات، لكنها تصلح لأشياء أخرى، مكثت هناك طوال النهار، شاركت الطبيبات الصغيرات فى مُداوة المجروحين والمصابين من قنابل الغاز والخراطيش، قضت أجمل ساعات حياتها وهى تُسعف، تمسح الدماء، تضع قطرات العين، تلف الشاش والقطن وتُطهّر الجروح، كانت فخورة وسعيدة، شعرت أنها جزء من هذا الوطن، فى الأيام التالية حرصت على الذهاب من الصباح بعد نزول محمود وحتى الساعة الرابعة قُبيل عودته من العمل، أصبحت أكثر مرحًا ونشاطًا فى البيت، وهو بدا أكثر ذبولًا وانفعالًا، كان يشتم المتظاهرين ويُدافع عن الجيش باستماتة، وكانت حريصة على عدم الخوض معه فى أمور السياسة، فهى تعرف آراءه مُسبقًا ومواقفه

من بداية الثورة، التى تتنافى مع قناعتها، ثم أنها لا تُريد أن تُفسد على نفسها شعورها بنشوة الوطنية.

ثقّفت نفسها كثيرًا فى مجال الطوارئ والاسعافات، لم تكتف بالذهاب والمشاركة، من مواقع الإنترنت عرفت معلومات مفيدة عن قنابل الغاز الجديدة وكيفية الوقاية منها والعلاج، كانت تُحضر معها للمستشفى بعض المستلزمات والأدوية النافعة، وراحت تُسدى النصائح وكأنها خبيرة، هى لم تكن خبيرة لكنها كانت مُخلصة، والإخلاص ينفع الناس ويُثرى العمل أكثر من الخبرة، ترددت أسماء كثيرة على مسامعها وحكايات عن بطولات لم تكن تقرأها أو تسمع عنها، بدأت تتردد أيضًا على بعض الدوائر التى يخطب بها الثوّار و المثقفون، طفقت مراوح عقلها فى الدوران وطرد الهواء الراكد والأفكار الفاسدة، لسبب لا تعرفه كانت تبحث عنه كل يوم وتحرص أن تمُرّ بنفس البُقعة التى سمعته عندها وهو يخطب فى الناس، لكن دون جدوى، لم تجده ولم تحرص على أن تجده، كأنه مجرد شبح عبر دون استئذان ثم رحل كما أتى.

كانت كثيرًا ما تتخيل حوارًا طويلًا بينهما، وأحيانًا تتخيله بطل الحواديت البطولية التى تسمعها، هو لا يُعجبها كما لم يُعجبها رجل من قبل، حتى زوجها ما كان يُعجبها إلا بعد الكثير من محاولات الجذب، هى فقط مغتاظة منه، تُريد أن تُبارزه بسيف، تخرق قلبه أو يخرق قلبها، ويزداد غيظها من نفسها كلما فكرت به، لأنها فكّرت به، فتدخل مرغمة فى دائرة مغلقة من الغيظ، لا تعرف لماذا يشغل هذا الحيز من تفكيرها وهو مجرد شبح، حتى رأت الشبح فى اليوم السادس لها بالميدان، لكنه لم يعد شبحًا، كان إنسيًا بعيون حمراء ووجه مُلتهب، يسنده صديقان من ذراعيه، يضعانه أمامها على فراش أرضى خفيف، كانت تقف عند رأسه تجمع كل مشاعرها المُشتتة لتراه وتحفظه، وتطبعه فى مخيلتها، قبل أن تُساعده.

سبقتها طبيبة صغيرة لتمسح له وجهه وأخرى وضعت قطرة فى عينيه، كنّ

معنيات به كثيرًا لدرجة أثارت اندهاشها، حاولت أن تظهر فى الصورة وتجعله يراها، عاودها إحساس قديم أيام الكُليّة عندما كانت الفتيات يتسابقن للظهور بشكل جذاب أمام أى شاب مميز، طالب أو مُعيد، وكانت هى تسخر منهن ولا تشاركهن فى هذه المواقف الاستعراضية، فى هذا اليوم ضبطت نفسها تتسابق معهن لتجد المكان المناسب الذى يراها منه، لكن ما لبثت أن عادت لطبيعتها المتحفّظة وابتعدت وشغلت نفسها بشيء آخر، عندما استفاق شكرهن بودّ وغادر دون أن يلحظها، سمعتهن يتحدثن عنه بشغف، عرفت أنه ثائر نشط وليس ناشطًا سياسيًا، لا ينتمى لأى حزب أو حركة، لكنهم جميعًا يستعينون به فى الخطب والاجتماعات والمحادثات، لأنه خطيب مُفوّه حلو الحديث ولأن لديه ثقافة واسعة وقُدرة كبيرة على الاستنباط والتكهن وربط الأحداث، كنّ يتحدثن عنه بحب وفخر لمسته فى عيونهن المتسعة وحناجرهن المتحمسة، لم تهتم بحماسهن كثيرًا فهى تعرف أن الفتيات يعشقن الرسم فى الخيال والتهويل والتعظيم لإرضاء هذا الخيال، هى متأكدة أن معظمهن يعشن وهم أنهن يحببنه وبعضهن يعشن وهم أنه يبادلهن المشاعر! أما حقيقة ما رأته أنه رجُل يجيد اختراق القلوب.

لماذا لا تقول لى «أحبك» إلا وأنت فوق السرير، أو فوقى بمعنى أدق؟

لماذا لا تنادينى بحبيبتى؟

لماذا لا تجلس جوارى ونحن نشاهد التلفاز؟

لماذا لم تُعدُ تقبل يدى أو حتى تمسكها؟

لماذا لا تبتسم لى؟ لماذا لا تغازلنى؟

لماذا لا تشاركنى اهتمامًاتى أو تدعنى أشاركك اهتمامًاتك؟

لماذا لا تحضننى وتمسح دموعى عندما أبكى؟

لماذا إذا نمت فوق صدرك لا أسمع نبضًا يهتم بى؟

لماذا لا تفاجئنى؟

لماذا لا تجن وتفقد عقلك معى؟

لماذا لا تحاول أن ترضينى؟

لماذا تتذمر من كل تصرفاتى؟

لماذا كل شيء فيك يقول إنى لا أعجبك؟

لماذا تزوجتنى؟ لماذا لا تتركنى؟

طوت الورقة التى تحمل كل هذه التساؤلات ووضعتها فى جيب السُترة التى أعدتها له ليرتديها، عندما أقبل عليها وجدت الغضب يعلو وجهه قبل أن يصرخ بها «أين روشتة طبيب العيون؟» ردت بهلع:

- لا أدرى .. هل بحثت عنها فى درج التسريحة؟

- بحثت عنها فى كل مكان ولم أجدها .. وكيف أجدها فى الفوضى التى أعيشها معك.

كانت فى أول عام من الزواج تبكى من انفعالاته الشديدة واتهاماته الغاضبة وعدم صبره، ثم بدأت فى العام التالى ترُّد عليه وتقف أمامه كديك شركسى أرعن، فلم ينبها إلا الأذى النفسى والبدنى، قررت فى العام الثالث أن تصمت أمام عاصفته. حتى إن انتزعت كل أوتاد صبرها، ذهبت للبحث عن روشتته فى كل مكان رغم أنها طلبت منه مرات عديدة أن يضع أشياءه فى مكان يسهل تذكره بدلًا من أن يتهمها بالفوضى والإهمال كل يوم، وصلها صوته العالى من غرفة المعيشه وهو يردد:

- إنسانة مهملة لا تتحمل المسؤولية .. تسهر فى المسلسلات وتستيقظ عند الظهيرة لتواصل وخمها .. إنسانة كسولة لا تفعل شيئًا أبدًا إلا التفاهات. إنسانة على هامش الحياة، لا تبتكر، لا تصنع السعادة، ولا حتى تجيد فعل أبسط الأشياء .. كان يوم تعاستى يوم أن خُدعت فى هذا الوجه الجميل.

«حسنًا، أنا أسوأ امرأة فى الوجود» هكذا قررت داخلها باستسلام وحزن دون أن تنطق، واستكمل هو موشّحه اليومى من ندب حظّه معها:

- بيت غير منظم وحياة مملة .. لا تفعلين شيئًا إلا مشاهدة برامج الموضة والجميلات اللاتى لن تصلى لأن تكونى مثلهن أبدًا .. طالما أنك تتشحين من رأسك لإخمص قدميك بالقُطن، وبرامج الطهو التى تملأين كراريسك بوصفاتها ثم تصنعين مصيبة جديدة كل مرة تجربين فيها، لا تستطيعين أن تقودى سيارة أو تتحدثى بلباقة أو تواجهى الناس وحدك .. أنت حتى ليس لك مُجتمع .. عروسة جميلة تجلس فى البيت تنتظر زوجها حتى تؤلم رأسه بالحكى الفارغ وحسب.

عثرت أخيرًا على الروشتة فى جيب أحد قمصانه، أحضرتها له وهى تقول بنفاد صبر:

- هكذا أردتنى يا محمود .. عروسة جميلة .. هكذا حافظت على فى البيت لا تسمح لى بالعمل أو حتى الخروج .. هكذا وضعتنى فى مدينة جديدة أشبه بالصحراء لا أستطيع التحرُك منها إلا بالسيارة التى ترفض كل مرة أطلب منك أن تعلمنى قيادتها، بل وترفض التحاقى بمدرسة لتعليم القيادة .. أنا أحاول دائمًا أن أكون كما تريدنى .. ولو أنى لا أعرف كيف تريدنى امرأة بهائة رجل أم أنثى تهتم بكل تفاصيل الأنوثة، ومع ذلك فأنا أحاول أن أدير أمورى وحدى لأنك ترفض أن تحضر من يساعدنى وترفض أن أنزل للحياة وحدى، تؤنبنى لأنى أعتمد عليك .. تعايرنى دائمًا بأنى لا أفعل شيئًا .. كيف لا أفعل شيئًا وكل احتياجاتك واحتياجات طفلنا ألبيها .. كيف لا أفعل شيئًا وأنا منُ أعطيك وقتى وعمرى .. حتى حسابى البنكى الصغير تنازلت عنه لك .. ماذا بإمكانى أن أفعل أكثر؟

- أموالك لا تساوى شيئًا بالنسبة للأموال الطائلة التى أنفقها عليك وعلى هذا البيت، ومحاولاتك كلها فاشلة مثلك .. أنت إنسانة فاشلة .. لم تقدمى لى شيئًا إلا النكد والحياة البائسة.

هـمّ بالخـروج فاندفعـت خلفـه تحـاول أن تنـزع الورقـة التـى وضعتهـا فى جيبـه، دفعهـا بعيـدًا عنـه وفى يدهـا الورقـة، نظـر لهـا وللورقـة باسـتهزاء وهـو يقـول: «مـاذا كتبـت هـذه المـرة .. أغنيـة أخـرى؟ لا فائـدة منـك .. لـن تنضجـى أبـدًا يـا تافهـة!» صفـق البـاب وراءه تـاركًا نهـرًا مـن الدمـوع فى عينيهـا وقـد ارتفـع صـوت أغنيـة مـن المنـزل المجـاور لفـيروز وهـى تصـدح ..

(معقول فى أكتر .. أنا ما عندى أكتر .. معقول فى أكتر .. أنا ما عندى أكتر)

❊❊❊

obeikandl.com

(٨)

غضبت كثيرًا عندما عرفت بحريق الجامعة الأميريكية، لم يقتصر الخراب على الأماكن البعيدة عنها فقط وإنما امتد ليشمل أماكن مُتعلّقة بها، شهدت خطواتها وشهيق الفرح وزفير السخط، كانت غاضبة من الوضع برُمّته رغم أنها لم تتعمق يومًا فى السياسة، كانت تنفعل وتثور بدافع وطنى فقط وليس سياسيًا، بل إنها تمقتُ البرامج الحوارية ونشرات الأخبار ولا تفقه شيئًا عن الأحزاب والحركات السياسية، حتى عندما بدأت فى نزول الميدان اهتمت بالجانب الإنسانى والوطنى، فدائمًا ما يعطل عقلها عند المواضيع الجادة الجافة، إلى أن وجدت فى أرجاء الميدان روحها التى تاهت عنها طويلًا.

تركت صغيرها عند صديقتها مروة كما اعتادت فى الأيام السابقة وقضت نهارها فى المستشفى الميدانى، كانت تخرج منها للشارع كل حين لتشاهد المظاهرات والاشتباكات دون أن تتجرأ على المشاركة إلا من خلال واجبها كمُسعفة، وأثناء نهار دافئ بشمس نوفمبر الحنون فى الساعة الحادية عشرة تمامًا رأته، كانت تقف على مسافة من الكنيسة وكان يقترب منها وهو ينظر لها دون غيرها، تخيّلت أنه أتى خصيصي ليراها، ابتسمت ابتسامة واسعة لهذا الخيال، ابتسامة حبيبة تستقبل حبيبها بسعادة وترحاب، وقف أمامها بطوله الفارع وقال بودّ دون أى مقدمات «أنا آسف»، رفعت كتفيها فى تساؤل جسدى، وعيناها ترقصان فرحة رغمًا عنها وقلبها يكاد ينخلع من مكانه من شدّة الفرح، إنها لم تره فحسب ولم يأت من أجلها فحسب، ولكنه يعتذر، وهذا لها يُعد من أشدّ المعجزات، أن يعتذر رجل! عرَّف نفسه ببساطة: «أنا حسن المنذر»،

ردت بصوت فرح: «وأنا عالية»، كانت تشعر وهى تُقدم له نفسها أنها غيرها، ربما أصغر أو أجمل أو أكثر تحررًا، هى فى دنيا غير الدنيا وعلى أرض غير الأرض، كأنها تحلم، لقد بدأ الحلم توًّا .. قال:

- رأيتك أمس فى المستشفى الميدانى .. فأدركت كم كنت مخطئًا عندما ظننت أنك مجرد زائرة مُستفزة من سُيّاح الميدان.

ردت بصعوبة: أنت لم تُخطئ يا أستاذ حسن لأنها بالفعل كانت مرّتى الأولى فى الميدان .. وكنت أظنّها الأخيرة.

قال ضاحكًا: إذن أسحب اعتذارى .. فأنت كنت حقًا مُستفزة.

ضحكت وتعجبت من جرأته وغرابته، أول مرة يتحدث معها يتعارك معها ولا يأبه بإحراجها، وثانى مرة يُخبرها أنها مُستفزة، ربما بعد قليل يسُبّ أهلها! ردت وقد بدأت تستجمع نفسها:

- وأنت لم تكن أبدًا gentelman

ضحك بذهول وهو يحاول أن يبحث فى وجهها عن شيء ما، ثم قال بلهجة آمرة وهو يتقدم خطوتين:

- تعالى نتمشى.

نفّذت الأمر دون تفكير، خطت جواره كأنها تُحلّق، وبينها وبين الأرض مسافة من السعادة، كانت خطوته أصغر من خطوتها وأبطأ، فسبقته بمرح طفولي: «أنت مستعجلة؟»، سألها وهو مُصرّ على أن تُجاريه فى خطواته البطيئة، أذعنت. حدّثها فى الطريق عن حادثة اختناقه بالأمس جراء قنبلة غاز، عن الأعداد الكبيرة من قنابل الغاز التى لم يشهدها من قبل، حدّثها عن مواقف بسيطة طريفة حدثت له فى كل شارع، دُكّان وقهوة مرّا بها، حدّثها عن أخته وابنها وعن أبويه وحياته الهمجية، حديثه كان حميميًا عن تفاصيل عائلية صغيرة وليس الحديث المعتاد بين رجل وامرأة غريبان، يعتصر كل منهما نفسه ليُظهر أروع ما فيه وينتقى أوسم الأقنعة وأكثر الثياب مثالية.

أحبّت حديثه الذى حررها وببساطة حلّ كل العُقد وذوبّ كل ثلوج روحها المُتراكمة، الشوارع بدت هادئة أو أنها شعرت أن الكون كله هادئ وخال من البشر، تسير فى طريق غريب بجوار رجل غريب يتصرف بشكل غريب، ومع ذلك تشعر أنها مطمئنة ومسترخية كما لم تشعر من قبل، طلب منها بلهجة جادة أن تحمل عنه حقيبة الحاسوب المحمول لأن كتفه بدأ يؤلمه من حملها، ضحكت ملء صدرها وضربت كفًا بكف، ابتسم بحميمية وهو يُبدى تأففه من حركات البنات كما سمّاها، لم تسأله إلى أين يذهبان، كانت تسير معه فحسب مستسلمة لنشوة المغامرة ولذة المجهول، حتى وصلا إلى مقهى أنيق، طلب منها أن يتناولا القهوة ويتحدثا قليلًا، لم يطلب بصيغة الرجاء إنما بصيغة المشاغبة والمناكشة المحببة للأصدقاء المقرّبين.

- تعالى أدعوك إلى قهوة وأمرى لله.

ابتسمت واستمرت فى مغامرتها دون تفكير، بحسبة صغيرة حسبتها وهى فى الطريق؛ لن يضُرّها شيء إذا خرجت عن قُضبانها فى استراحة قصيرة، تعود بعدها للهث وراء المحطات، ماذا سيحدث لو نزلت من فوق أرصفة العادى وعاشت ولو للحظات فى شوارع اللامنطق، ولماذا تخاف من شيء مجهول إذا كان المعروف المُطمئن القريب غدر بها، ثم إنها لم تشعر طيلة سنواتها التسعة والعشرين بمثل هذه السعادة (من أنت يا حسن لتهُزّ كيانى بهذا الشكل؟) جلست فى المقهى قبالته وكانت مرتبكة، فتلك هى أول مرة ترتاد فيها مقهى مع رجل، حتى زوجها لم تكن تذهب معه للمقاهى، كانت مرتبكة لأن المكان كان مزدحمًا بالبشر، وزاد ارتباكها إلى أقصى حد عندما سألها إن كانت ترغب فى التدخين، ردت عليه بنظرة مصدومة ومستنكرة رغم أن داخلها كان مبهورًا مأخوذًا، امتص هو ارتباكها بعفوية، لم يكن يتحدث باللباقة نفسها التى سمعته بها أول مرة، حديثه كان سهل وقريب للقلب والعقل.

حدّثها عن الميدان بشكل جديد لا يتضمن أطروحات سياسية، حكى لها

عن صور مؤثّرة للسخط والغضب والوطنية التى ملأت البشر، حكى لها عن أوجاع الناس وطيبتهم وإصرارهم، حكى لها عن الأيام القليلة خلال الثورة التى سقطت فيها دموعه، حكى لها عن كتاب يقرأه وأغنية يُحبها، عن أمله فى سقوط رموز الفساد وأن تستكمل الثورة أهدافها ويُمسك الشباب الزمام، حكى لها عن خيباته وإخفاقاته التى لم يعُد يكترث بها، حكى عن حبيبة سابقة هجرته لأنه اعتنق الحُرّية والطيران خارج السرب والسير والناس نيام والصُراخ والناس قتلى الصمت، حكى لها عن إشاعات وأقاويل تُطارده أينما ذهب، حكى لها عنها، عن سبب مجيئها فى هذه الأيام للميدان، عن أشياء يراها فى عينيها وخطوتها الواثقة وكفّها المرتبك، وعن طبيعتها المُختلّة التى لفحته من أول يوم رآها.

كانت تسمعه بشغف وتوتر، أخفت رعشة يديها بأن شبّكت أصابعها وسندت ذقنها فوق يدها وذراعاها ضاغطان على المائدة، لكنها لم تستطع إخفاء الدهشة المزدانة بالفرح التى كانت تحت جفنها الذى لا يرمش، «هو أيضًا سعيد»، قالتها فى نفسها لتؤكد شعورها بأن ما يحدث معها لابد أنه يحدث معه، هذا الفورّان من المشاعر، لم تنطق سوى بكلمات قليلة فضحت سعادتها، حكت له عن موقفها من الثورة ورغبتها فى المشاركة والتى كانت القيود الكثيرة تحول بينها وبين تحقيقها، ضحكت كثيرًا عندما قال لها إنها من (حزب الكنبة)، ودافعت عن نفسها بأنها من (حزب الفيس بوك)، ثم ما لبثت أن أخبرته أنها أم، وكأن هذا يكفى بالدليل أن يعرف أنها متزوّجة، لم تتغير ملامحه ولم يُهمه الخبر الذى ظنت أنه سيُفاجئه، ومع ذلك لم تجرؤ أن تسأله عن نفسه، فضّلت أن تظل هناك مسافة الغريب حتى وإن تخطاها هو.

لم ينتبها أنه مرّت ثلاث ساعات من وقت أن التقيا، أخبرها أن لديه موعدًا مُهمًا، وأخبرته أنها يجب أن تعود للمنزل، فغادرا المكان، سارا باتجاه محطة المترو بخطوات ثقيلة، هناك قرر فجأة أن يستقل معها المترو، وكانت كل قرارته فُجائية

تنبع من نبضه ليس من عقله، ركبت معه عربة الرجال المزدحمة، كان أطول مما تخيلت فى المترو، ربما لأنه كان أكثر قُربًا، حاولت أن تُركز على أى شيء بعيد لكن مغصوبة كانت تنظر إلى صدره الذى يُواجه عينيها ويحيط بصرها، ندّى الخجل جبينها بحبات العرق، وكانت أنفاسها تلهث من نشوة المغامرة رغم فراشة الخوف التى كانت تخفق فى قلبها، والتى طارت وحلقت فى محيط القلب عندما تأرجحت عربة المترو بشدّة فتمسّكت بكُم قميصه وأمسك هو بكفّها للحظات، شعرت أنه يضغط على أصابعها فسحبت يدها بسرعة وارتباك، عند المحطة نزل معها وقال لها: «غدًا بعد صلاة الجمعة سألقى كلمة من أمام مسجد عُمر مكرم .. بعدها ستقوم مظاهرة كبيرة»، ثم بلهجة حانية لم تسمعها منه طوال النهار: «أُريد أن أراك «. ردت بدلال فتاة لم تُكمل عامها السادس عشر «حسنًا، سأحاول .. بكل ما فى وسعى". رد: «وأنا سأنتظرك .. بكل ما أوتيت من صبر».

لا تذكر منذ متى بدأت تكذب على محمود، تقريبًا منذ ثلاثة أشهر، من ليلة العيد تحديدًا، لم تندم أو تؤنب نفسها، بل استمرت فى الكذب أكثر، إما بتمثيل أدوار الهدوء والطيبة، إما بالخروج والحجج وعدم مشاركته تفاصيل حياتها كالسابق، لم تحسب فى حسبتها الطويلة أنه سيكشف كذبها يومًا ولن تكون لديها الحجج، وصلت لباب المنزل فتنهدت وأغمضت عينيها، حاولت أن تنزع نشوة مغامرتها من ملامحها وترتدى ثوب المنطق والعقل من جديد، دخلت فرأته قد عاد مُبكرًا، لم يكن ذابلًا كالأيام الأخيرة، استعاد صحته وشكيمته بالغضب وتورد وجهه من الحنق، انتظرت صرخة تعرفها جيدًا، غالبًا تتلوها هجمة تُسقطها على الأرض أو ترزعها فى الحائط، لم تخف .. لم تعد تخاف، كانت سعيدة فى مزاج صاف لا تسمح مائة هجمة بتعكيره، لكنه لم يصرخ واكتفى بأن سألها بهدوء جاهد كثيرًا حتى يُبقى عليه:

- منذ متى وأن تترتدين بنطال جينز .. أين تنانيرك؟

- التغيير جيد يا محمود .. ثم إن البنطال الجينز أكثر عملية من التنانير.

- وهل تسمح لى زوجتى العملية بأن أعرف أين كانت حتى الخامسة عصرًا.

- كنت عند مروة.

- كاذبة.

كيف فاتها أن مروة زوجة صديقه، وأنه حتمًا قد اتصل بها عندما أتى ولم يجدها هى والصغير بالمنزل، لم تُجهد نفسها فى اختلاق أعذار، كانت الحياة زاهية ومختلفة فى عينيها فلم تعبأ بتحضير كذبة جديدة أو الخوف من نتيجة فعلتها، قالت بأعصاب باردة:

- حسنًا .. أنا تركت كريم عند مروة .. وذهبت إلى ميدان التحرير لأُشارك فى التظاهر.

صدمته كلماتها فهجم عليها وطرحها أرضًا وهو يهذى بكلمات التوعد والعذاب، كانت مستسلمة لقبضته كدمية من قماش، يرفعها من الأرض ليصرخ بها ويلطمها ثم يطرحها أرضًا من جديد، صمتها أشعل ثورته أكثر وكان هذا هو الوقت المناسب للتنفيث عن غضب الشهور الماضية المكتوم فى صدره، شعرت هى بالدماء تنفجر من أنفها وتُغرق ثيابها لكن ما أزعجها أكثر من منظر الدماء، هو منظر صغيرها المذعور الذى كان يرتعد خلف باب غرفته وهو يمد رقبته وينظر لها بأسى، انفلتت من بين يديه ودخلت الحمام، همّت بإغلاق الباب لكن قوتها لم تُسعفها، ففتح عليها الباب وصفعها كما لم يصفعها من قبل بكل غضب الرجل وقهره، سقطت على السيراميك الأزرق البارد الزلق مغشيًا عليها.

- لماذا فعلت هذا؟

كان سؤاله أول ما سمعته عندما أفاقت فى سريرها، تحسست رأسها الذى يؤلمها بشدّة وبعض مواضع الكدمات التى بدأت فى الازرقاق، كان يجلس على طرف السرير وفى عينيه آثار دموع وقلق، أشفقت عليه رغم ما نالها منه، وللحظات شعرت أنها كانت تحلُم وعادت إلى ما كانت علية منذ ثلاثة أشهر،

أعاد سؤاله ولم تكن قادرة على الإجابة أو حتى الحركة، همّ بالانصراف وقبل أن يُغادر الغرفة قال تحذيره الأخير «إذا كررت فعلتك وخرجت لمكان دون علمى فاعلمى أنها ستكون النهاية».

ما إن خرج حتى دخل كريم الصغير واندسّ فى حُضنها، يؤلم جسدها المجُهد ويُداوى قلبها بقُبُلاته الحنون، تعرف أنه ليس طفلًا عاديًا وأن إحساسه أكبر من عُمره، هو لا يُعبّر عن مشاعره حتى من الرفض والقبول سوى بنظراته التى لا يفهما غيرها، ربما لطبعه المُتحفّظ الذى ورثه عنها، بكى كثيرًا وبكت حتى اختلطت دموعهما، أخبرته من بين الدموع أن أباه رجل طيب ويحبهما، وما حدث كان من فعل الشيطان الذى وُجد ليُفسد حياتنا ويُشعل من غضبنا حتى نُخطئ، طمأنته أنها وأبوه بخير، وبأن غدًا الحياة ستُصبح أجمل.

أمسكت بالبطاقة لتحفظ العنوان والاسم (Feminine gym)، جّهزت حقيبة صغيرة بها بنطال رياضى وبلوزة خفيفة بدون أكمام ومنشفة، حضنت الصغير ذا الستة أشهر فإذا به يئن ويشد ثيابها حتى يظهر له مبتغاه، ضمته برفق لترضعه وتتصل عيونهما فى لقاء حميمى يجمع بينهما كل رضعة، تداعب رأسه الصغير المستدير والزغب الأشقر الذى يكسوه، وُأذناه الصغيرتان وعُنقه الدقيق، كانت تمسّده بحب عندما دخل محمود فنظر إلى ما ظهر منها نظرة خالية من الشهوة ومن أى شيء، ثم قال ساخرًا مداعبًا مؤلمًا «صدرك رحمه الله .. كان رجلًا طيبًا قبل أن يتحول لمطعم ويلقى نحبه». حاولت أن تبتسم أو تضحك على المزحة فلم تستطع، انتهى الصغير وغادرا المنزل للنادى الصحى الجديد، حيث قررت أن تمارس الرياضة لُتحارب هذه البطن الجديدة التى اكتسبتها من احتواء الصغير وهو ينمو بين أرجائها، والتى يسخر منها ويعايرها بها محمود فى كل مناسبة، ويتأفف منها فى مناسبات أخرى!

ولأنها تحبه لم تكن تلحظ كرشه الصغير حتى تبا دله المعايرة، وإنما كانت مكتفية بالغضب المكتوم الذى تنفث عنه أحيانًا بتنهيدة أو نظرة غاضبة معاتبة

لا يكترث بها، ولم تكن بطنها الشيء الوحيد الذى يّعلق عليه بسخرية، كان يسخر أيضًا من شعرها ويصفه بأنه بلا شكل، وأنه كان يفضّله متموجًا غجريًا. ويسخر من رقة جسدها يسميها ضعفًا، كانت تغضب وأحيانًا تبكى، لكنها لم تفقد أبدًا اعتدادها بنفسها الذى بناه فيها والداها، تحسست بطنها التى تشبه وسادة صغيرة وهى تبدل ملابسها لتنزل صالة الألعاب، حيث الموسيقى الأجنبية الصاخبة ملأت أرجاء المكان، الاضاءة نيون قوية والأرض خشبية لامعة، أصوات الآلات الرياضية مع الموسيقى أغرتها بالتحرر، عقصت شعرها ذيل فرس طويل ونزلت للعب.

بعد القليل من اللعب تغيرت الموسيقى الغربية لُأخرى شرقية، ترك الجميع الأجهزة ونزلن بساحة اللعب الخشبية، وقفت المدّربة فى المنتصف، تحركت بخفّة ما بين الرقص والرياضة وّقلدها الجميع، وقفت هى لدقائق خجلة حتى تجرأت وشاركتهنّ الرقص، لأول مرة ترقص خارج جدران غرفتها، رقصت وتعرّقت، كانت فى منتهى السعادة وهى تحرر جسدها من جمود الحياة وتختلط بنساء يبدو أنهنّ سعيدات، يضحكن ويتهامسن ويرقصن بمرح، سألتها امرأة عن سبب نزولها للنادى الرياضى رغم نحافة جسدها، فأشارت إلى بطنها وقالت من أثر الحمل، ضربت المرأة كفا بكف وقالت لها إن زوجها يجب أن يبنى لها تمثالًا لأنها مازالت بهذه الرشاقة والجمال بعد الولادة، لوت شفتيها فى مرارة، عادت للمنزل وهى تغنى وقلبها مازال يرقص، حكت لمحمود عن القاعة والتدريب والرقص، انتبه على سيرة الأخير وسألها باستنكار:

- إذن تعرفين كيف ترقصين؟
- أكيد يا محمود .. هل توجد بنت مصرية لا تعرف!
- ولماذا لا تستغلين مواهبك هنا بدلًا من أن تمتعى بها الناس.

جمدت فى مكانها لا تعرف هل هو جاد أم يمزح، وهل تردّ عليه بما يستحق أم تصمت اتقاء لشره؟ خُيل إليها أنه لا يفهم ما كانت تحكيه، عاد ليسأل:

- لماذا لا ترقصين لى؟
- لأنك لم تطلب.
- وهل على أن أتوسل حتى ترقصى.
- لا، عليك فقط أن تجهّز الطقس المناسب، أم تريدنى أن أدخل عليك راقصة هكذا دون مناسبة.
- الهانم لا ترقص إلا بتقديم؟
- قدّموا لأنفسكم يا محمود، إنه ديننا يا عزيزى.
- أنا سأعرف دينى منك إذن؟

كانت تعرف أنه سيحول الحديث لمُشاحنة، وكانت تعرف أنه مغتاظ من خروجها، وأنه يغتاظ من سعادتها لأى سبب غيره، وبدأت تتأهب أنه يحضر لشيء يقسم به سعادتها، كان حدسها صحيحًا، إذ قال ببساطة وهو يستعد للنوم:

- لا داعى للذهاب للنادى الصحى مرة أخرى، أنا لست مطمئنًا عليكِ هناك ولا لركوبك سيارات الأجرة، سأحضر لك اسطوانة لبعض التمارين إن أردت أن تمارسيها فى البيت.

***

(٩)

المنظر من شُرفة مروة أجمل لأن شقتها فى الطابق الخامس وتُطلّ على الشارع العمومى بتفرعاته، بخلاف شقتها التى تُطلّ على شارع خلفى هادئ لكنه يروقها، الطريق خال إلا من بعض باصات المدارس شبه الفارغة والحافلات الثقيلة، بعد قليل سيُصبح أكثر ازدحامًا مع وقت خروج التلاميذ، المدرسة القريبة أنيقة البناية وصوت التلاميذ فيها هو مزيج من اللهجات الأجنبية والضحكات المرحة، وقفت مروة ساهمة وهى ترتدى بيجامة شتوية من القطيفة الناعمة وتُراقب المدينة الهادئة من حولها، أما عالية فجلست ترّص الكعك الذى صنعته توًّا فى طبقين صغيرين وهى ترتدى إسدال صلاة أزرق فضفاض، مرّ أسبوع على واقعة الضرب، لم تُحاول إخبار أهلها لأنها تعرف أنهم سيتألمون على كرامة صغيرتهم التى أُهدرت، بدأت محاولة جديدة لاستعادة بيتها من أجل عيون كريم البائسة ونظراته المذعورة، لن تسمح لشيء بأن يُعكّر نفسيته ويجعل منه طفلًا مُعقّدًا، ستُحاول بكل ما فيها أن تُصلح ما أفسده أبوه، حتى إن اضطرت لأن تتخلى عن بعض من كرامتها وعن أشياء تُسعدها، ستبحث عن هذه السعادة هنا فى بيت محمود.

الشيء الوحيد الذى لم تستطع القيام به هو أن تُعطيه جسدها، فكل قطعة أصابها بقسوته لا تقبل أن يقترب منها بحنانه، جسدها له بقايا كرامة تأبى التسامح الأحمق وقلبها لم يغفر، هى فقط ستُحاول إصلاح الأمور الظاهرة أمام عيون ابنها الغالى.

مروة هى التى حضّرت لهذا اللقاء وأخذت إجازة من العمل حتى تستطيع الجلوس منفردة مع عالية دون صخب الأطفال، ومع ذلك لم تنبس بكلمة سوى كلمات الترحيب العادية، يبدو أنها كانت تودّ الجلوس مع نفسها أكثر، أحيانًا نُفضّل الجلوس مع أنفسنا أمام شخص نُحبّه ونثق به، فحوارنا الصامت وأنفاسنا المتبادلة تُساعدنا على ترتيب الأفكار التى تُبعثرها الوحدة، لكن عالية لا تُريد الصمت، فالصمت يجعلها تُفكّر بوضوح وهى تُريد أن تُشوش على أفكارها، تُريد أن تمضى فى الحياة عمياء صماء بكماء دون شعور، تُقدّم خدماتها للبيت ووقتها وحبها لهما فحسب، تحدّثت عن الكعكة وطريقة صُنعها وطريقة صُنع أنواع أخرى من الكعكات والبسكويت، حتى وجدت مروة تدس يدها فى جيبها لتُخرج علبة سجائر وببساطة تُشعل واحدة وتنفث الدخان باستمتاع، اتسعت عينا عالية دهشة، فهى لم تر مروة خلال صداقة الأعوام السبعة الماضية تُدخن، بل ولم تتوقع منها هذا. قالت:

- كنت أظن أنى الأكثر بؤسًا هنا، لكن يساورنى شعور أنى لست وحدى.

ابتسمت مروة بمرارة، لم تكن كثيرة التذمر والشكوى من الزواج وسنينه مثل بقية المتزوجات، وكان هذا هو سبب ارتياح عالية لصداقتها، لكن اليوم مروة تبدو مختلفة، ما بها فاض وبدأ يبحث عن طريقه للخروج، انتهت من سيجارتها ثم بدأت فى الحديث بانفعال غريب لم تُشاهده عالية عليها من قبل:

- أنا أسعد امرأة فى الوجود. هكذا يقول المنطق ويرى الناس، زوجى يعشقنى ويُخلص لى، ابنتى جميلة وتشُر البهجة أينما وُجدت، أعمل فى مكان مميز وأتقاضى راتبًا يكفينى ويزيد، زوجى يحاول أن يُرضينى بكل الطرق، بيتى منظم وأنيق، لدى خادمة تُساعدنى فى كل شيء، خزانة ملابسى تحوى أجمل وأغلى الثياب، الظاهر أنه لا ينقصنى شيء.

لكن لا أدرى يا عالية .. أشعر أنى أتعس امرأة فى الوجود، وبأنى لست حُرّة، أشعر أن زوجى وابنتى قيود ثقيلة تُكبّلنى وتحُد من حركتى،

أشعر بعدم تواصل معهما وعدم انتماء لهذا البيت، عندما أجلس معهما أضع سماعات فى أذنى لأُشغل نفسى بأى شيء وأحيانًا أهرع للنوم لأهرب من عيونهما السعيدة المُتسائلة عن حالى، أصبحت أبكى لأشياء غامضة وأنهار لأسباب أكثر غموضًا، أشعر بالحنين لشيء لا أعرفه، بداخلى رغبة جامحة للهروب من دُنيتى المثالية، ثم أعود لأشعر بالندم من رغباتى غير المُبررة، وأبكى كلما رأيت زوجى وهو يُدلل الصغيرة ويناديان على لأشاركهما ما يفعلان فى سعادة جمّة، لا يدركان ما تُخفيه نفسى من غدر، فأسقط فى دائرة من تأنيب النفس والألم بجانب مشاعرى المضطربة ورغبتى بالهروب.

لاحظت عالية شرودها فى الفترة الأخيرة، كانت تسرح بعيدًا وتتغرب عيناها، لم تتصور أن يكون داخلها كل هذا الاضطراب الذى بدا لها عدم الرضا، لكنها لم تتطوع بالنصيحة وأبدًاء الرأى واكتفت بأن تكون مستمعة جيدة، تسمع بقلبها أولًا وتُعطى صديقتها حق وأريحية الاعتراف، مروة استمرت فى الحديث وهى منفعلة وشبه باكية، لم تستطع عالية أن تفهم مشكلتها، أو ربما لأنها صاحبة مشكلة كبيرة؛ وهؤلاء يرون أن أى مشكلة للآخرين تافهة ولا تستحق العناء والمعاناه، فالبشر كلما تألموا كلما ازدادت أنانيتهم وسخطهم على الجميع، ما وصلها أن مروة تبحث عن اللذّة فى الحياة وأنها لاتجدها فى كل ما حولها، لكن هل يفوق شعور البحث عن اللذة فى المرأة شعور الأمومة؟ وهل الحُرّية التى تفتقدها فى حياتها غير مرهونة بمسؤولية؟ كانت عالية أيضًا باحثة عن لذّة الحُرية، لكن لم تسمح لهذا الشعور بأن يُسيطر عليها حد الأرق والاكتئاب، كانت تغوص فى خيالها مع مسلسل أو فيلم أو رواية، وتنتهى بمجرد أن يدُق ناقوس الواقع فى عقلها، فتنهض نشيطة لتُمارس دورها فى الحياة، حتى لو بدون متعة، لم تتوقف مروة عن حديثها إلا عندما سمعت صوت الخادمة وهى تُحضر الشاى وبسكويت اليانسون والقرفة،

ارتشفت الشاى وهى تفتح مشجب الصدر فى بيجامتها من أثر حرارة

الشاى، لاحظت عالية كدمة على شكل تجمع دموى كبير فى عُنق صدر مروة، تبدو كعضّة، لم تستطع أن تُمسك نفسها عن سؤالها عنها،
ربما لأنها كانت فى حاجة أن تعرف أن هناك زوجات أُخريات غيرها يُضربن وتمتلئ أجسادهن بالكدمات، كانت ستسعد من داخلها- وإن أظهرت الضيق- لو أخبرتها مروة أن زوجها يضربها ويترك الآثار على جسدها وفى قلبها، لكنها ردت ردًّا مختلفًا تمامًا عما تمنت عالية:

- إنه حسام .. يترك آثاره دائمًا بعد كل لقاء.

شعرت عالية بالحرج، واستغربت كثيرًا تلك اللهجة المستنكرة التى تكلمت بها صديقتها، فى حين أنها حتى وقت قريب كانت تتمنى أن يترك محمود عليها آثارًا لعشقه واشتهائه لها، لكنه كان يأتيها بتحفظ وخمول يُشعرها أنه غير راغب بها وأنه ما يفعل هذا إلا استمرارًا لفيسيولوجية الحياة! حتى فقدت ثقتها بكونها امرأة مشتهاة، لم تتوقف مروة عند هذا الحد، إنما استكملت باستنكار قصة الكدمة!

- يُرهقنى إفراطه فى العلاقة .. لا يشعر بى، وأنا أسأل نفسى متى ينتهى، أشعر معه أنى أداة للذّة، جسد يطوّعه حسبما أراد، يأمرنى بأشياء أفعلها فقط حتى لا أُغضبه، لكنى لا أستمتع، ربما السبب شرودى .. لا أدرى.

كادت عالية أن تصرخ بها وتقول «أنتِ امرأة أنانية وجاحدة، كيف لا تشعرين بالمتعة مع رجل يعشقك بهمجية ويترك آثاره عليك؟! كيف تشعرين أنك أداة للذّة وأنت تتصرفين كالعاهرات؛ تُعطينه جسدك دون روحك فتُفقدينه المتعة التى ينشدها، ويضطر للافراط حتى يحصل على متعة الجنس بالألم طالما أنك منعت عنه الإحساس!» لم تدر عالية هل كان حنقها الداخلى على مروة، أم لأنها قارنت بين حالها وحالها مع محمود الذى لم يُحاول أن يتّخذ منها أداة للذّة أو الحب، هو فقط يقوم بالواجب الذى تُحتمه عليه الحياة، استمرت مروة فى حديثها المضطرب الذى لم تتعاطف معه عالية، ولولا أنها تثق فى صدق مروة لكانت ظنّت أنها امرأة أخرى تمارس دور الضحية كعادة النساء.

- لماذا لا تُعطينه تركيزك حتى تستمتعى معه؟

- التفاصيل الصغيرة تفصل كل مشاعرى يا عالية، قشر شعر أجده فى رأسه، شعرة غريبة نبتت فى عُنُقه، ظُفر طويل ألمحه فى يده، صوت عال فى الشارع، أى تفصيلة صغيرة تلفت نظرى وتجعلنى أفقد تركيزى تمامًا.

تيقنت عالية أن مروة لم تعُد تُحب زوجها، فالحب يخفُت والمشاعر تفتر لو لم نروها كل حين بضجيج الجنون. الحيدة عن مسار الروتين اليومى ومحاولة الخروج عن النّص، هذا ما تفتقده هى أيضًا، لكن لأنها كانت تُحب محمود كانت تفقد معه كل شعورها بالتفاصيل الصغيرة، فالعقل لو لم يغب فى لحظات العشق الصارخة وظلّ متيقظًا فهو لم ولن يصل لذروة العشق أبدًا.

كانت تُجيد دور الأمهات فى الإرشاد والانصات، لكن هذه المرة شعرت بالسأم من كلمات النصح الجامدة التى اعتادت ترديدها وتُجاهد حتى تُصدّقها وغالبًا لا تعمل بها، ليس لأنها لا تُؤمن بالقدرة الإلهية، ولكن لأنها لا تُؤمن أن كل سوء هو من عمل الشيطان، ماذا عن عمل ابن آدم نفسه؟ أين العقل والمنطق والدوافع والمبررات؟ هى لا يُقنعها إلا حديث عقل لعقل، أمّا الكلام العائم والنصائح العامة التى تُقال بالجُملة فى كل المحن ومُصادمات الحياة؛ فهى لا تُجدى، تُكررها فقط كعادة لم تُفلح فى قطعها، مروة شعرت بحيرة صديقتها ومجاهدتها فى ارتداء عباءة النصح والتهوين، فغيّرت مجرى الحوار وحاولت أن تعود لمرحها القديم.

فى المساء كانت لاتزال تُفكّر فى الميدان وأيامها هناك، أصوات المظاهرات، المصابين وتأوهاتهم، حماس مرتادى الميدان والروح الوطنية العالية التى كانت تشتمها فى أرجاء المكان، إنها تفتقد كل لحظة قضتها هناك، ولا تمنع نفسها عن استعادة كل تفصيلة وكلمة، كل كلمة قالها حسن، عيناه كانتا تتسعان وتضيقان مع الحوار، حاجباه كانا يُشاركانه الحديث أيضًا، إنه حين يتحدث أو يسير أو حتى يصمت يُحدث شغبًا من حوله، إنه مشاغب .. وهى تفتقد المشاغب الذى حرّر فراشة كانت تسكن صدرها، لكن هذا لن يُثنيها عن قرارها بإصلاح

حياتها والتجاوز عن ذنوب محمود، لأجل الصغير، ستجعل هذه الأيام فى الميدان وهذا اليوم بالذات، يوم أن رافقت حسن فى وسط المدينة، كذكرى جميلة ليوم تحررت فيه وحلّقت عاليا دون أن تترك الأرض، ستعيش عليها وتهرب لها كلما ضاقت بها الحياة، ستُبقى على ذكراها فى خيالها، تُسافر معها كل حين لتعود بروح حُرّة عالية وبابتسامة كبيرة تكسو وجهها كلما مرّت بها الذكرى.

رتقت جواربه، فرشت ملاءات نظيفة، رتّبت الغرف، نظّمت أغراضه، أعدّت الملوخية بالأرانب التى يُحبها، أشعلت البخور ووضعت كل أعصابها التالفة فى قطب بعيد بارد، عاد من عمله متجهمًا كعادته فى الشهور الأخيرة، تجاهلت لفتاته المحتدة عليها وتأهبت لأن تكون لطيفة مهما كان الثمن، قدّمت الطعام وبمجرد أن تذوقه صرخ:

(ما هذا القرف؟ طين فى الطعام؟) تذوقت بدورها فلم تشعُر بأى طين، نهض عن المائدة وهو يقول بلهجة عصبية (كل طعامك خراء!) ابتسمت فى مرارة وهى تُقلّب بالملعقة فى صحنها، هل جزاء التسامح المزيد من العنف؟ هل يظنها ضعيفة وبائسة إلى هذا الحد؟ ظلّت فى مكانها حتى أتاها وهو مستمر فى الصراخ (أهلك لم يُفلحوا فى تعليمك أى شيء .. بئس الزوجة أنت!) ردّت بهدوء وهى تكظم كل ما فى قلبها من غضب (لا شأن لك بأهلي)، بذراع واحدة جذبها من شعرها وأمسك بها بقوة آلمتها كثيرًا، آلمها أكثر حين نظرت له وهى تحت قبضته بعتاب واستجداء أن يتركها، ولم تجد فى عينيه إلا القسوة، حين تركها لم تبك، وحين باتت ليلتها على أريكة فى البهو لم تبك، لقد فقدت الدموع طريقها إلى عينيها، كما فقد الحب طريقه إلى قلبها منذ مُدّة طويلة.

«سأحاول مرة أخرى» .. هكذا قررت بعد تفكير طويل، «كريم يستحق المحاولة». لم يكن كريم فقط من يستحق المحاولة، كانت تُبقى أيضًا على سنواتها الطويلة مع محمود وذكرياتها القديمة معه، أصعب شيء على المرأة التخلى عن ذكرياتها الحُلوة، فهى وقود الحياة والشاطئ الذى تلجأ

إليه كلما تكاثرت الهموم، كانت تُحاول بكل جهدها ألا تتذكر إلا أيامهما المميزة، وكل كلمة أو فعل قام به ليجعلها أسعد وليُثبت حبه عمليًا كما كان يؤمن، فعلت هذا بدافع الحفاظ على آخر فرصة لاستمرار زواجها، فلم تكن عائلتها تعرف معنى كلمة (طلاق)، رغم النسب العالية لكن عائلتها الكبيرة ميسورة الحال حققت نسبًا أكبر فى الاستقرار الزوجى والإنجاب، فكل واحدة من قريباتها لها ثلاثة أطفال على الأقل، وبينهن هى الغريبة، يرمقنها بشفقة كأن لديها عيبًا صحّيًا يمنعها من مُحاواة ابنها، ولم تكن تكترث بظنونهن، فكريم قد حقق لها الأمومة التى ترجوها، وما حدث منذ ليلة العيد قطع عليها كل الطرق التى تجعلها تُفكّر فى المزيد من الارتباط بمحمود.

سبب آخر كان يحفّزها على الحفاظ على البيت، هو ضميرها المُتألم من جراء التفكير فى ذاك النهار الشارد بوسط المدينة، كانت تُقاوم هوسها بهذا اليوم وهذا الشخص الذى أثار فيها جانبًا لم تكن تعلم حتى بوجوده؛ بأن تبذل المزيد من المجهود فى البيت والمزيد من الصبرعلى محمود، فى الأسبوع التالى كانت مازالت على هدوئها واستمر هو على فظاظته، اشترت لوحًا كبيرًا وضعته بغرفة المعيشة ونثرت فوقه صورا كثيرة لهما، ثمانى سنوات جمعتهما لقطات سعيدة منذ الزفاف مرورًا بالسهرات القليلة والنزهات والشواطئ، أعياد الميلاد، أول يوم مدرسة، ثم حفلات المدرسة المتتالية، لاحظت وهى ترصّ الصور أن صورها مع محمود وحدهما كانت نادرة باستثناء صور الزفاف، كما لاحظت أن جميع الصور كانت مقصودة، حاولت أن تجد صورة عفوية طبيعية لا ينظران فيها إلى عدسة الكاميرا لكنها لم تجد، هكذا هى حياتها مع محمود وهكذا هو محمود، مُرتب، أنيق، يعرف كيف ومتى يبتسم حتى يحتفظ بابتسامة الصور، التى تُشبه حياتهما كثيرًا، يراها الناس فيظنون أنهما أسعد زوجين، يرون ضمة يده على كتفها فى الصور فيظنون أنه مثال الحنان والحب ولا يدرون أنه لا يُضمها ويقترب منها فقط وفق رغباته المُنظمة أيضًا.

عندما أتى فى المساء ووجد اللوح المُزدان بلقطات الثمانى أعوام، راح يُعدّل من وضعية بعض الصور، ثم نقد جودة اللوح التى بدت له سيئة، وبعد قليل بدأ ينقدها هى أيضًا لأنها أضاعت المال فى غير محلّه وكان بإمكانها شراء شيء أفيد للبيت، ثم لم يشكرها ولم يُقبّلها ولم يضُمّها وذهب للنوم، وذهبت للاستلقاء جواره كجُثّة، أغمضت عينيها وطافت فى الميدان.

الأمور فى البلد أصبحت أكثر سوءًا وأشدّ خطورة، لن يغفر أحد للجيش، الجميع غاضبون ساخطون، كعادة كل من بيده الأمر يتمخض كالجبل ليلد فأرًا، وهذا ما ظنّه الناس بالحكومة الجديدة التى بدت شيخة كبيرة لا تُعبّر عن عنفوان الثورة، لكنها احتارت من ممكن أن يُعبّر عن الثورة؟ فالكل ملوّثة يداه إمّا من النظام القديم الفاسد، أو من أنظمة المصالح والالتفاف على الثورة، الكل يزعم ويدّعى ويندد ويسُبّ غيره وينتقده، لا أحد فى الأفق يُعبّر عن أحلام هذا الجيل الثائر السياسية، كانت هى تُتابع الموقف بشغف وعادت لحزبها الأثير، حزب الفيس بوك، إلى أن كانت هذه اللحظة التى رنّ فيها هاتفها برقم غريب، كانت «صفا» الطبيبة الصغيرة التى شاركتها العمل بالمستشفى الميدانى، عرفتها دون تردُد، راحت تطمئن عليها وعلى سبب توقفها عن المشاركة، وكانت عالية فرحة بالمكالمة، شعرت أنها تشتم رائحة الميدان وتسمع أنّات الثوار وهتافاتهم المدوّية، وفى عزّ تلهفها عرضت عليها صفا المشاركة معهم الجمعة القادمة وشددت عليها أنها ستكون فى انتظارها، وإن تقاعست ستحضر لتأخذها من البيت بنفسها، أغلقت الخط وهى شاردة، خائفة، تشعر بالتهوّر يملؤها ورغبة جديدة بالتحرر تزحف إلى صدرها.

وقفت أمام المرآة تراقب نفسها فى الثوب الجديد، تتأكد من أن خط الكتف عمودى على الكتف، وأن الخصر مضبوط والذيل لا يحتاج لتقصير، الثوب كان يناسبها تمامًا كما توقعت، فقد تواصلت معه بمجرد أن رأته فى الفاترينة وشعرت أنه لها، أو أنها له، البائعة أيضًا أشادت به عليها، هى لا تصدق البائعات،

تعرف أنهنُّ يعجبن بأى شيء تقيسه من المحل، حتى وإن كان ملابس رجالية ستجد البائعة الكلمات لتجعلها تصدق أنها تناسبها، «حسنًا، سآخذه». راجعت ثمنه والمبلغ فى حافظة نقودها فوجدت أنها ستحتاج لمائتى جنية على الأقل حتى تستطيع شراءه وشراء ثوب آخر، لم تكن تتوقع أن الأسعار ارتفعت بهذه الصورة منذ آخر مرة اشترت ثيابًا فى العام الماضى.

أسبوعان وهى تذكر كلما مرت أمامه أنها بحاجة لشراء ثياب جديدة لأن ثياب زواجها أصبحت ضيقة، فقد استدار جسدها ولم تعد تستطع غلق كل الأزرار، لكنه لم ينتبه، حتى عندما قالت له إنها ستخرج اليوم لشراء ثياب جديدة اكتفى بأن أمرها ألا تتأخر، لم يكمل زواجهما عامه الأول وكانت هى خجولة فلم تسأله طيلة هذه الشهور عن مصروف، كل احتياجات البيت كان يأتى بها وحده أو وهما سويًا من متاجر الجملة الكبيرة، حتى احتياجاتها الصغيرة كانت تحضرها فى وجوده حتى يحاسب هو، لم تجرؤ قط أن تطلب منه مالًا، واكتفت بأن تصرف فى حدود ضيقة جدًا من أموال قليلة كانت تحتفظ بها قبل الزواج، وعندما لم تجد منه أى استجابة على تلميحاتها بشراء الثياب، قررت ألا تذلّ نفسها أكثر وأن تشترى بقدر المال المتبقى معها.

يؤكد عليها فى مناسبات كثيرة أن ترتدى أجمل وأثمن ثيابها، ليزهو بها أمام معارفه، ينتقدها بشدّة إن ارتدت أقل من المستوى المطلوب الذى يليق بمكانتها، أو مكانته بالأصح، مّثل هذا عبئًا أكبر عليها عند الشراء، فهى تريد ما يجعلها أنيقة فى عينيه، فما أكثر ما أثار حنقها بمقارنته بينها وبين زوجة فلان وخطيبة علان، بحجة أنه يريدها الأفضل، مما أثار رغبتها فى المزيد من البعد عن الحياة الاجتماعية التى يفرضها عليها. لم يكن أمامها سوى سبيل واحد لتتخلص من هذا الموقف السخيف أمام البائعة دون أن تجرح كبرياءها أمامه، اتصلت بوالدتها وطلبت منها أن تأتى وُتحضر معها بعض المال.

لم تتردد والدتها فى القدوم، فمنذ زواج عالية وهى لا تراها إلا نادرًا ولا تطمئن

عليها أبدًا، دائمًا تلمس هذا الحزن الشفيف فى صوتها، وتعرف أنها لن تشكو شيئًا فى حياتها لأنها هى من اختارت زوجها بمحض إرادتها، كانت صغيرة بدون خبرة ولكنها أيضًا كانت عنيدة ولم تستجب لنصائح أمها، نصحتها بأن تحفظ كرامتها مهما كانت العواقب، وألا تسمح له بأى تجاوز وأن تكون أكثر صلابة ولا تنهار بسرعة من قسوته وتخضع له دون تفاهم، نصحتها أن تكون لها شخصية وإرادة وليس فقط حبيبة ضائعة بين خطوط يديه. لكن هيهات، فعالية كانت هائمة به فى فترة الخطوبة، وبعد الزواج بعُدت، ولم تحاول هى أن تتدخل فى حياة ابنتها، اكتفت بأن تستمر علىُ نصحها لها بأن تكون ذات شخصية قوية وأن تثق فى نفسها وتخرج للحياة وتتمسك بالصداقة ولا تعيش فى حدود دائرته.

كانت امرأة قوية عكس عالية، تعمل منذ سنوات تخرجها حتى أصبحت مُديرًا عامًّا، امرأة أنيقة، مثقفة، وسيدة مجتمع تحوذ الإعجاب و الاهتمام أينما وُجدت، صاحبة الكلمة الأولى دائمًا فى البيت؛ ليس لضعف فى شخص زوجها، لكن لأنه دائم الانشغال بعمله وحياته، فترك لها مقاليد الأمورعن تفاهم واتفاق، وبقى هو صديق الأبناء وليس واعظهم، أحبته عالية حبًا عظيمًا لأنه لم يكن مصدر الخوف والرهبة وكان مُفعمًا بالخيال والرومانتيكية، كما أحبت والدتها الحنون، لكن جدًارا كان بينهما من الصمت الجامد بسبب تربية والدتها المثالية وجزعها إن حادت عالية عن المسار الذى رسمته وحلمت به لها، مما قاد عالية لُتخفى حقائقها، كانت حريصة على ألاُ تشبهها، فكانت تسير فى حياتها بعكس كل ما رأت عليه أمها، لم تعمل حتى توفّر وقتًا أكبر للبيت، وكانت أكثر تحفظًا فى مظهرها ومعاملاتها مع الناس بعكس والدتها الاجتماعية صديقة الجميع، وكانت تنصاع لزوجها وأسلوبه الجاف ولا تقف فى وجهه كأمها الحرون، التى كانت لا تسمح بأن يفرض عليها زوجها شيئًا لا تريده.

اشترت الثوب وثوبًا آخر اختارته والدتها وكان أجمل، لم تشأ أن تفتح معها الموضوع بسبب الحرج، لكن والدتها كانت قلقة وغاضبة، قالت جملة واحدة

اعتراضية بين حديث هامشي: «إذا لم يُرد إعطاءك مالًا يكفى احتياجاتك .. فعليه أن يدعك تعملين حتى تصبح لك ذمتك المالية المُنفصلة». كادت عالية تبكى من الحرج، فهى تعلم أنه ضد عملها، وهى أيضًا لا تميل للعمل، فمنذ طفولتها الناعمة كانت تحتاج لوالدتها ولا تجدها، أو تجدها فى نهاية اليوم مرهقة وتعبة لا تستطيع أن تتواصل معها، فى الصباح الباكر تجدها منهمكة فى تكويم الأثاث ومسح المنزل، وعندما تعود تفرش المنزل وُتنظّمه وتؤدى كل شيء وحدها تمامًا، كبرت وأصبحت ترى والدتها وهى تعانى معاناة مبكرة من الروماتيزم والديسك وضغط الدم، لماذا تعمل؟ حتى تخسر صحتها ورونقها وعلاقتها بابنها؟ لا حاجة لها بعمل يفسد حياتها كامرأة مدللة وملكة بيت.

المشكلة أنها عندما تكون مع صديقاتها أو قريباتها تخجل أن تفتح حافظتها حتى لا ينكشف خواؤها إلا من الفكة البسيطة، حاولت أن تتخذ لزوجها العُذر، قد يكون غاف لا أو قد يظن أنها تملك مبلغا ماليا كبيرا يغنيها أن تطلب منه.

فى المساء اختارت وقتًا مناسبًا بعد العشاء لتريه صيدها الثمين، أبدى إعجابه بالثياب فاطمأنت، لكنه لم يذكر شيئًا أكثر، فأخبرته هى أن أموالها لم تكف وأنها اضطُرت للاستعانة بوالدتها، اكفهر وتلبد وجهه وبلهجة قاسية طلب منها ألا تسأل غيره عند احتياجها للمال، وفى الحال أعطاها مبلغ خمسمائة جنيه وأنهى الموضوع بإشارة من يده، كانت هى سعيدة رغم قساوة أسلوبه، بعد عدة أيام طلب منها المبلغ لأن البنوك إجازة ويجب أن يشترى قطعة غيارُ مهمّة للسيارة .. واستمرت حافظتها لا تعرف إلا الفكة.

❋❋❋

(١٠)

أذهب لا أذهب، أذهب لا أذهب، تكررت الكلمات داخلها وهى تقطف أوراق صبرها فى تردد صعب، هل تذهب وتُرضى روحها ورغبتها العميقة فى الانضمام للمظاهرات؟ أم تظل على محاولاتها لكبح زمام الاستقرار وضمّ أوصار البيت، لماذا لا يفهمها محمود ويشعر بها؟ لماذا لا يُشاركها حياتها وينزل معها، أو يسمح لها بالنزول دون أن تضطر للكذب عليه؟ هى تعرف جيدًا أن مشاعرها تجاهه تغيرت منذ ليلة العيد الماضى، وبشكل أكبر من يوم أن أطاح بها على سيراميك الحمام، لم تعد تُحبّه، حتى محاولاتها تقوم بها من أجل الصغير. والآن عليها أن تختار؛ إما أن تُبقى على حياتها الماضية وتستمر فى تمثيل السعادة إلى أن تُصدّق الدور الذى تُمثّله، أو أن تُحرر روحها وتُخرجها من القُمقم الذى سجنتها فيه طوال الثمانِ سنوات، وبهذا تكسب عودة إرادتها وحياة جديدة تُشرع أمامها خالية من الإهانة والخيانة. فكرت كثيرًا فى خلق حل وسط يُرضى كل الأطراف، لكن بدا لها أن محمود لا يُرضيه شيء أبدًا غير أن تكون محفوظة فى خزانته، وروحها ما عادت ترضى بالذُلّ فى الهوى.

لم تنم، ظلت تتقلب على فراش التردد والحيرة بعيون مفتوحة وقلب مُتعب، كانت فى زمن ماض تنام ملء جفونها جوار محمود، تشعر أنها امتلكت الدنيا لمجرد أن أنفاسه تتردد فى فراشها، الآن تشعر أنها وحدها فى الفراش أصبح لا يشغلها إلا عندما تحسب الحسابات وتضع الخطط، أصبح مرتبطًا عندها بالألم والغضب المكتوم، خرج من كل أحلامها الجميلة التى استأثر عليها أعوامًا

طويلة بطمعه فى حبها الرقيق الفياض، وبتصوره أن رصيده عند قلبها لن ينضب أبدًا.

قامت بهمّة عالية مُنفّضة عن رأسها أوهام المساء وتعبه، مُصوّبة عيناها تجاه هدف واحد دون عناء التفكير فى جوانب الصورة وخلفيتها، راحت تُنظّم خزانات الملابس ثم صنعت الغداء وكعكة الشيكولاتة التى يُحبها محمود، تزينت وارتدت الفستان السماوى القصير الذى أثنى عليه فى سابقة نادرة، رفعت شعرها لتُظهر عُنقها الطويل الذى كان يشتهى تقبيله فى زمن مضى، وانتظرته وهى تشعر أن قرارها هو الصواب وأن لا حياة سوى بين جدران هذا البيت.

كان عنيفًا معها فى الفراش على غير عادته المُتحفّظة، شعرت أنه يصب فيها غضبه وليس عشقه، كانت لمساته مُلتهبة، قُبُلاته محمومة وعيناه زائغة أومُغمضة، كأنه يتحاشى النظر إليها، كانت معه بكل مشاعرها، تستقبل كل رسائل الجسد والروح، لكن روحه لم تكن معها وجسده كان ينتفض بكاء دون دموع، آهاته كانت تُعلن عن وصوله للقهر وليس للنشوة، كادت تلفظه عنها، فهى وإن أحبّت زخم العلاقة لكنها تعتبر انفصال روحه مع التصاق جسده إهانة لا يغفرها القلب، كل ما فيه كان يُخبرها أن الحدث جلل وأنها ليست المقصودة بهذا المجهود والعرق، عندما انتهى غادرها فورًا دون أن يطبع على شفتيها قُبلته الأخيرة المعتادة التى تحمل العرفان والود، ذهب ليغتسل بسرعة دون كلمة واحدة، فى مشهد يحمل إهانة أكبر.

راحت هى تبحث بين طيات ملابسه عن دليل لهواجسها، فى الهاتف وجدت الدليل، إنها مرتها الأولى التى تعبث فى هاتفه، حتى بعد اكتشاف خيانته لم تفعلها، كانت تخشى هذا اليوم وتحاول عبثًا أن تُوهم نفسها أن كل شيء سينتهى وسيعود لها فى النهاية، لكن بعد أن قرأت رسالته الطويلة لفرح على الهاتف أيقنت أنه لن ينسى، وأنها له مجرد أداة لاستكمال المظهر الاجتماعى، أداة لتنظيم أمور البيت، أداة لإنجاب الأطفال، أداة للذّة، أداة للتنفيس عن غضبه، أمّا فرح فهى سر الحياة وروعتها كما ذكر فى رسالته على الهاتف.

بدأها بأبيات لا تعرف إن كانت له أم منقولة، ولم تكن تعرف عن اهتمامه بالشعر، كان يهزأ من المُهتمين بالشعر والأدب أمامها، زاعمًا أنهم كاذبون ويقولون ما لا يفعلون، وأنهم لا ينتمون للواقع ولا يؤثرون إلا الخياليون، وقد انتهجت نهجه طوال السنوات الماضية، فلم تُبدِ أى اهتمام بالأدب على أنواعه، ثم كانت كلماته المتوسّلة بالعودة، والتى ترمى بأى شيء دونها عرض الحائط، وصف نفسه بالميت الذى يتلمّس طريقه فى الظلام ويتسول النور بعدها، وأنها له كل النساء ولا أحد يمنحه سحرها، كانت كل كلمة فى الرسالة طعنة فى قلبها المهزوم وصفعة لبقايا كبريائها، النهاية كانت رجاء بالإبقاء على أى شكل من أشكال العلاقة حتى وإن كانت صداقة، بسرعة بحثت فى الردود، وجدت أن الرسالة بدون رد؛ فأيقنت سبب ضجيج الحزن فى جسده، أعادت الهاتف كما كان واختبأت خلف وجه جامد وملامح باردة تُخفى نيران صدرها، تنزّ الدموع داخلها وتحتضن الصغير كل حين دون مناسبة، كأنما تحتمى به من موتها، عند الصباح وهى تُخرج القمامة كعادتها وجدت عتبة البيت مكسورة.

هذه المرة نزلت الميدان بدون عذاب الضمير الذى كان يُلازمها، المكان كان أكثر ازدحامًا وتوترًا عمّا توقعت، لم تشعر بألفتها السابقة معه، لكن شعرت بخوف شديد يزحف إلى صدرها، هناك شيء ما تجهله لكنه يُثير قلقها، منظر رجال الجيش كان مختلفًا عمّا اعتادته، كانت ملامحهم أشدّ قسوة وعيونهم أكثر عنادًا، المتظاهرون أيضًا كانوا أكثر إصرارًا، أغلبهم يسيرون فى مسيرة كبيرة طويلة مُتجهة إلى مجلس الوزراء، أمّا هى فقررت البقاء فى الميدان مع بعض المتظاهرين وعدد من الفتيات، لا تعرف ماذا ينتظرها لكن روحها كانت غاضبة، ثائرة على كل شيء، تهتف ضد حُكم العسكر وقلبها يهتف ضد حُكم الزمان، تبكى تأثرًا على وطنها المجروح الضائع حقّه وتنزّ دموعها الداخلية على قلبها المجروح الضائع حقّه، تسمع أحاديث سياسية عن القهر والظلم وكشوفات العُذريّة والأهداف الضائعة والمحاسبات المؤجلة، تُفكّر كيف تضافرت آلام الوطن مع آلامها

وكيف سكتنا حتى تفاقمت الأزمات، كيف وثقنا واطمأننا لمن كان يُبيّت لنا الغدر، إن كانت هى قطة منزلية طيبة فماذا عن شعب بأكمله تربى نصفه فى الشوارع؟ كيف صمتنا؟ وهل افترضنا أن الاستقرار فى وحل الجهل والمرض والفقر والاستغلال والفساد الصريح أحمد من التغيير؟ وحتى عندما زأر الناس فى الشوارع والبيوت وانتفضوا بعد طول سكون لم تدُم لهم الأحلام، فانتهت على فرحة قصيرة وحماس جعل الشوارع نظيفة والأرصفة مدهونة لبعض الوقت، ثم مالبث أن تحوّل كل شيء إلى كابوس عظيم.

بينما تقف مع البعض كان جزءًا منها يبحث عنه، عن الشبح الذى مرّ بحياتها كالطيف فلا تذكُر ملامحه أو تفاصيله، فقط تذكُر أنه كان هنا شبح ألقى الدفء فى قلبها البارد ثم ذهب، المكان كان مُعبّأ برائحته، هى لا تذكرها أيضًا لكنها تذكر أنها تُشبه رائحة الميدان والبشر الملتحمين، رائحة إنسانية خافتة لكنها تعلق بالأنوف، تعبت من الوقوف فجلست على سور حديدى أخضر بال يُحاوط مُجمع التحرير، تترقب المكان فى صمت وقد بدأ الخوف يتلاشى من قلبها، فمعظم المتظاهرين فى طريقهم للاعتصام عند مجلس الوزراء والميدان شبه خال، لكن ما لبث الهدوء أن تعكّر بصُراخ حاد، سمعت ورأت كل شيء، إنها الفتاة التى كانت تهتف معها منذ قليل مُمدّدة على الأرض ونصف عارية، رأتهم وهم يلاحقونها ورأتها وهى تتعثر فى عباءتها الطويلة السوداء، رأتهم وهم يسحلونها ويركلونها دون رحمة، ورأت ملابسها وهى تتمزق وتُغادر جسدها، صراخها كان مؤلمًا وكأن كرامتها وشرفها هو ما تعرّى وليس فقط جسدها، لا أحد يستجيب للصراخ، اندفعت تجاهها وقد سبقتها سيدة أخرى تحاول أن تُغطّى الجسد المُلقى على الأرض، لكن ما لبث أن طالها ما طال الفتاة من سحل وضرب بيبادة العساكر حتى إنها سقطت هى الأخر حتى وفقدت الوعى، أمّا عالية فراحت تصرخ بهيستريا، اقترب منها بعض العساكر فى محاولات بذيئة لإبعادها عن الميدان بملامسة جسدها، لكنها تصدّت لهم بكل روح الوطن

فيها وانهالت عليهم بحقيبتها الثقيلة وهى تسُبّ وتصرخ كما لم تفعل طوال عُمرها، حتى رحلوا عنها لفتاة أخرى يلاحقونها ويلامسون جسدها ببذاءة حتى تستسلم وتبتعد.

تسمّرت عالية بالقرب منهما تخشى الاقتراب أكثر ولا تستطيع الفرار، دماؤها فقط هى من فرّت منها وتركتها دُمية بلا حراك، لقد رأت كل شيء ولن تصمت بعد الآن، توجّهت للفتاتين وقد تجمع حولهما البعض ليحملوهما لأقرب مستشفى، ذهبت مع الموكب الصغير إلى المستشفى وهناك كان عليها أن تُقرر ماذا ستفعل، فى قسم قصر النيل وقفت أمام الضابط فى ثبات وقصّت كل ما رأته جُملة وتفصيلًا، كانت منفعلة وباكية، لكنّ هذا لم يمنعها من أن تستجمع كل شجاعتها فى البلاغ الذى شهدت به بكل ما حدث، عندما انتهت خرجت من غرفة المباحث لتجده، نظرت له بعمق وهى تشعر أنها فى حلم، لكن ابتسامته الواسعة التى لاتصل لعينيه الجادتين، إنما تنبت فقط على شفتيه فتكسبه وقارا،أعادتها للواقع.

سلّم عليها بحرارة وأبدى اندهاشه من وجودها، كانت قد فقدت كل ثباتها عند الضابط فراحت تُجاوبه بتلعثم وتوتر شديد، سحبها من يدها كما فعل فى ثانى لقاء لهما عندما سحبها من خيالها، وكان له سحر غريب كأنه يجذبها دائمًا بخيط غير مرئى، هناك على رصيف عال جوار قسم الشرطة جلسا متجاورين، هدأت قليلًا عندما أحضر لها مياها غازية وشكولاتة، بدأت تشرب على مهل حتى تنتهى ارتعاشة جسدها، وأعطته من كعكاتها المنزلية التى كانت تحتفظ بها فى حقيبة يدها، روت له ما شاهدت وحكت له عن حديثها الداخلى الذى استقرعلى ألا تصمت وأن تشهد على كل ما رأت، أمّا هو فعرفت أخيرًا أنه محامٍ لا يعمل إلا وفق إرادته أو حاجته، وقد ترك اعتصام مجلس الوزراء عندما سمع بأمر سحل الفتيات وتعريتهن وأتى ليكون لسان الثوار فى البلاغات التى ستُقدّم، ضبطت نفسها تنظر لصدره، لاحظ وأشار لها عليه وهو يُخبرها أن به

ندبة يعتز بها كثيرًا لأنها من أثر الرصاص فى ثورة يناير ويوم جمعة الغضب بالتحديد، وأنه لا يُخبر عنها أحدا لأنه يُفضّل أن يحتفظ بذكراها لنفسه ولا يُتاجر بجراحه فى حب الوطن، لكنه حكى لها لأنها هى .. هى فقط، هكذا قال، وهكذا لمست وأحبّت رومانسيته الثورية. قبل أن يُغادرها قال بصوته الكسول:

- كعكاتك جميلة .. مثلك.

ابتسمت وأسبلت عينيها بخجل فتاة لأول مرة تسمع مجاملة من شاب، وأكمل:

- سأذهب الآن لكنى أُريد أن أراك ثانية.

- بجُرأة وجدت نفسها تقول: وأنا أيضًا.

- رقم هاتفك؟

بمراوغة: فى المرة القادمة.

رد بثقة رجل يعرف وكان دائمًا يعرف: فى المرة القادمة ستُرافقيننى فى مُظاهرة.

أمام سيارة الأجرة التى استوقفها لها حضن كفها الذى لم تسحبه بسرعة هذه المرة، ثم ضاع بين الزحام لكنها حفظت فى مُخيلتها صورته وهو يمشى ببطء وخيلاء كأنه ذاهب لإنقاذ العالم بقُدُراته الفائقة، عند المساء كانت تعبة ومريضة، مازالت ترتعش وتفشل كل محاولات التدفئة بالبطاطين والمدفأة الكهربائية والأدوية فى إعادة الحرارة الطبيعية إلى جسدها، لم تكن معتادة على المشى الطويل أو بذل مجهود أكثر من مجهود تنظيف المنزل، واليوم هى مشت وهرولت وقاومت ودافعت، اليوم هى صرخت وفزعت وشهقت من الألم وأدلت بشهادتها بضمير مستريح ودون حساب لشيء، نامت كالعصافير فى حُضن صغيرها، واستمرت عيناها فى نزف الدموع حتى تاهت روحها فى غياهب الأحلام التى استأثرت بها الفتاة المسحولة.

لم تُصدّق نفسها فى الأيام التالية مما قرأته وسمعته، كانت تظُن أن العالم والمجتمع سينقلب على مرتكبى الجريمة وستُصبح فضيحة وسُبّة فى جبين

المجلس العسكرى، كانت تظن الرجال سيهبّون وينتفضون غيرة وغضبًا على فتيات ونساء مصر، كانت تظن أن الفصائل الإسلامية لن تسكت على ما حدث وستقوم مليونيات جديدة وستتقدم استقالات واعتذارات لا حصر لها، لكن ما حدث أن الكل كان ينهش فى الفتاة، باتت هى العجل الذى سقط وكثُرت حوله السكاكين، وأحمى السكاكين كانت من الاسلاميين، فبدلًا من أن يُهاجموا الفعلة هاجموا الضعيفة التى كانت تتلوى على الأرض بين ركلاتهم، راحت تُدافع كالمحمومة عبر مواقع التواصل وترد على اتهامات من عينة « ولماذا ذهبت إلى هناك؟» و«كيف ترتدى عباءة بكباسين؟»، وفجأة أصبح الجميع مُلمًّا بملابس السيدات وماذا ترتدى فوق وتحت وما الفرق بين هذه وتلك، حتى نوع مشدّ الصدر الذى ظهرت به الفتاة بعد أن مُزقت عباءتها صنفوه على أنه من نوعية لا ترتديها إلا العاهرات، هكذا قضت ليال لا تنام ولا تفارق ذهنها صورة الفتاة، كانت تعرف أنه مجتمع ذكورى لا يضع المرأة إلا فى قائمة المتع والمهمات، لكنها لم تتصور أبدًا أن تكون المرأة هيّنة إلى هذا الحد الذى تُتهم فيه فى شرفها وهى تدافع عن شرف الوطن، إن أسهل وأرخص طريقة لدرء المصائب هى بإكالتها للمرأة، وهى من تدفع دائمًا الثمن شاءت أم أبت.

كانت مشاعرها مُختلطة ما بين رثاء لحال المرأة عامة وحالها هى بالأخص، وما بين لحظات من السعادة التى تعبر بها فتنتزع منها ابتسامة غصب لا يدرى أحد كنهها، حتى إن الصغير كان يسألها عن سبب الابتسام المفاجئ، كانت تراه فى حلم يقظة وتسمع صوته الكسول وهو يقول «جميلة مثلك»، أعادتها كلماته إلى الصبا، إلى الفتاة الصامتة التى ترقب العالم من وراء الشبّاك وتُسافر فى أحلامها إلى أبعد من الخيال، وتسمع كلمات تُطرب «جميلة مثلك .. هل أنا حقًا جميلة؟ متى يرى الرجل المرأة جميلة؟ عندما يريد أن يثير شغفها أم عندما يكون شغوفًا بها؟ ولماذا لا يرانى محمود جميلة؟ لم أسمعها منه منذ سنوات طويلة، هل لأنى لم أعد أُثير شغفه؟ لم يعد يعنينى أن يقولها محمود .. لم أعد أنتظر. لكن هذا الغريب..

لماذا قالها لى؟ هل لأنه ممن يتفوهون بكلمات الغزل على سبيل الكلمات العادية اليومية، أم لأنه رآنى بعيون قلبه؟»

أصبح يقضى معظم وقته بالخارج، هى أيضًا لا تجد رغبة فى نفسها أن تحتضنه كالسابق وتضع رأسه على فخذيها وتمشط شعره بأصابعها وهى تسأله «ماذا بك؟»، لم تعد تلك الفتاة التى تحتوى نوبات غضبه بصبر، وبصبر تُخفى عنه غضبها وترسم الحب فى كل زاوية فى البيت، كانت عندما تتدلل عليه كطفلة يُريدها أُمًّا، ولّما تتفهمه وتدعو له كأم يُريدها عشيقة، وعندما تُبرز مخالبها، تموء بشوق، وتلعب دور القطة المُثيرة يتململ؛ يُعاملها كطفلة، هل كانت لا تُجيد لعب الأدوار أم أن بينهما فارق توقيت تفشل فى اجتيازه؟ ومع كل الأدوار التى لعبتها معه ولعبها معها، لم يكن لها أبدًا الصديق، كانت تفتقد معه حوار العقول ونديّة وحميمية الصداقة، تفتقد أن يسألها عن رأيها فى شؤونه وأن يُناقشها فى أمور الحياة، تفتقد مزاح الأصدقاء، تفتقد هذا البراح الذى يجمع الأصدقاء على أرض محايدة بين فورة العشق وعناد الخلاف، والآن هو حتى لا يُحاول أن يجذبها لأى الشاطئين، فلا عشق ولا خلاف، إنّه الجمود الذى يتسلل لخلايا الحب ببطء ليسلبها الحياة.

❋❋❋

(١١)

صرخت مروة من الألم وهى تجلس قبالة امرأة أربعينية وتمدّ لها ساقها، كانت قد اعتادت على فاطمة، ثلاثة أعوام تأتى لها مرة كل شهر حتى تُساعدها على الحفاظ على نعومة أنوثتها، كانت فاطمة ماهرة رغم صغر سنها، ولولا أن خطيبها الأحمق أصرّ أن تترك العمل ما كانت اضطرت لأن تُسلّم نفسها للأصابع الغليظة التى تسلخ جلدها الآن، تتعرق المرأة السمينة وتشدّ عجينة السكّر بقوة من فوق جلد مروة وهى تترقب آهاتها بحذر خوفًا من أن توبّخها أو تتراجع عن إعطائها إكرامية عندما تنتهى، فاطمة لم تكن تنزع الشعرات فحسب، كانت تُدلل بشرتها وترشّ تحت الإبطين ببودرة التلك قبل أن تدعكهُما بحنان، وتفرُك جسدها برقّة، تُدغدغ باطن رُكبتيها بطريقة ساحرة كانت تنتظرها مروة من الشهر للشهر.

عندما اكتشفت مُتعتها من الدعك والفرك لثنايا جسدها، وكان اكتشافًا عظيمًا، لم تعد تنتظر هذه الجلسة الشهرية التى تُرافق فيها اللذّة الألم، بدأت تبحث عن طريقة أخرى تنتصر فيها اللذّة، ووجدتها عند مركز التجميل الذى يقع فى الشارع الخلفى لمقر عملها، مما سهل عليها زيارته كل أسبوع، الزيارة المقدّسة، هكذا أسمتها، حيث تضع جسدها كله رهن شادية، تلف نفسها بدثار أبيض يُثير فيها الصفاء والهدوء النفسى، ثم تنام باطمئنان كبير على مائدة مُبطّنة مُريحة، تُغمض عينيها وتُسلّم نفسها لأروع شعور يمرّ بها فى الحياة، تنزع شادية الدثار بتأنّى وهى تضغط ضغطات خفيفة برؤس أصابعها الندية بزيت له

رائحة عُشبية فوّاحة على عُنق مروة مرورًا بسلسلة ظهرها، تُدلّك كل قطعة فيها برقّة تجعلها تشعر أنها تنزع الألم والحيرة من روحها وتهبها جنّة من اللذّة، كانت مروة فى هذه اللحظات ترى نفسها صبية صغيرة تركُض مرحًا فى بستان واسع أو فوق سفح جبل أخضر، وأحيانًا تكون ظبية أو أرنبًا برّيًّا صغيرا، حورية أو جنّية يطير وراءها ذيل فستانها الأبيض الخفيف، سعيدة بوحدتها، منتشية لا تملّ أبدًا من الركض.

تنتهى الجلسة التى لا تطول بها حتى تصل عنان السماء، فترتدى ثيابها بتململ وتنفح شادية إكراميتها وتُغادر دون أن ترى أو تحفظ ملامحها الزجاجية الباردة، فكل علاقتها بها أصابع تُرسلها إلى الجنّة، تعود للمنزل وقد زال عنها تعب الجسد والروح، تُقبل على زوجها وابنتها بحب وتنغمس فى حياتها، منذ واظبت على «الزيارة المُقدّسة» أصبحت أهدأ وألطف، وأصبح زوجها سعيدًا بهذه البهجة التى ملأت حياتهم ويمتدح باستمرار الصحوة التى طرأت على شخصيتها بعد أن كانت غارقة فى حالة من سوء المزاج، لكن بعد مرور شهور كانت قد بدأت تشعر بتغيير طرأ على قلبها المُلتاع، إنها تُريد المزيد، تُريد أكثر من تدليك حنون يُغلّف جسدها باللذّة، بدأت تُعانى وهى تتخيل اللذّة الكبيرة التى من الممكن أن تحصل عليها وتحملها إلى قمة النشوة، وبدأت تخاف من الزيارة المُقدّسة، تخاف أن تشعر شادية بسيطرة أصابعها عليها ومدى تحكمها فى حياتها، تخاف أن تُفلت منها حركة أو كلمة أو تصرف يُنبئ بأنها تُريد أكثر، تُحافظ على ثباتها تحت يدى شادية بصعوبة وهى ترتعد من النشوة وتحلم بما هو أبعد.

من فرط الإرهاق الذى أصبح مسيطرًا عليها أصبحت لا تنام ولا تُنجز شيئًا فى عملها ولا تسمع ابنتها وهى تشكو لها من مُدرّسة الإنجليزى الفظّة، عندما زارت الطبيب النفسى بكت كثيرًا، ظنّت أنه سيُطالبها أن تقصّ عليه حياتها منذ الطفولة، ولكنه كان كصديق عادى يُبادلها الحديث بحميمية ومُحايدة،

لم تحك له عن مُتعتها وزيارتها المقدّسة، لكنها وجدت نفسها تحكى عن والدتها التى كانت تُرعبها من مُجرد النظر إلى الجسد، ولّما خُطبت لحسام بدأت تشعر بجسدها وتلهو به عندما تكون وحيدة، أيقنت أنها تستطيع أن تجد متعتها بنفسها، لم تعرف شيئًا عن الجنس إلا معلومات قليلة جمعتها من صديقاتها فى الكليّة، كانت فكرة الزواج ورجل يعبث بها فكرة مُرعبة، حتى إنها مدّت فى الخطبة قدر المستطاع ومرة واحدة وجدت نفسها مع رجل يُكسّر عظامها كل ليلة عدة مرات، يعشقها وتعشقه لكنها لا تشعر بجسدها معه إلا وهو مُحطم وموجوع وجاف كقطعة لحم تمامًا قبل أن تحترق، هو لا يلمسها برقّة، يعتبره عارًا أن يكون رقيقًا معها.

يفخر بفحولته دائمًا، وهى تُحاول أن تُصدّق أنه رجل خارق وأنها من المفترض أن تكون أسعد امرأة فى الوجود، لكنها بدأت بعد أعوام قليلة تضيق به وبطريقته، تشعر أنه يفعل ذلك لحبه للجنس وليس لها، أصبحت تُريد أن تشعر أنها امرأة صاحبة شخصية ورؤية وليست فقط فرسه الجميل كما يدعوها، كان صخبها يضيع مع إخضاعه التام لها، وكلماتها تضيع مع انشغاله بجسدها عنها، ونشوة النهاية تضيع عندما تجده ينتهى منها فيفتح الأنوار ويُتابع مبارة كرة قدم وهو يُطالبها ببعض المُسليات والمشروبات، وكأن من كان معها قبل دقائق شخص آخر، تذهب كل يوم للعمل وتعود مُحمّلة بطلبات البيت، تطهو الطعام، تُذاكر للصغيرة، تقوم بكل واجباتها بشكل آلى وهى غارقة فى التفكير بلذّتها الخاصة دون استمتاع، حتى تصل للمساء وتُشاركه الحب بشكل آلى، فهو لا يغير طقوسه العنيفة وهى لا تُغيّر طريقتها فى مقاومته باستماتة تُصيبه ببعض الجروح أحيانًا وتُثيره للمزيد من العُنف.

بدأت تنفصل عنه تدريجيًا، والقشور السعيدة بدأت تقع ليظهر ما تحتها من اضطراب ويأس، أصبحت ممزقة بين أمرين متعارضين، بحثها الدؤوب عن اللذّة ولوم نفسها عليها، كانت تُوهم نفسها بأن متعتها فى مركز التجميل

أو الكوافير أمر طبيعى يُعطيها طاقة لتسير فى أيامها بشكل أفضل، لكن ما إن بدأت تشعر فى نفسها رغبة فى المزيد أدركت أن الأمر جد خطير وأنها على شفا حفرة من الآثام، ويجب أن تجد المخرج قبل أن تنزلق فيها للأبد.

بعد ثالث زيارة صارحها الطبيب أن لها ميولًا جنسية مثلية بشكل عارض، لا تعنى أنها بالضرورة ستعيش حياتها بهذه الرغبة، لكنها ظهرت كحل عارض للهروب من الواقع، وطريقة سهلة للحصول على لذّة مؤقتة تؤجج مشاعرها وتُشعل نيران اللوم والاحتياج عندها، كانت مناقشته والفضفضة إليه وحدها كافيه أن تحمل العبء عنها وتجعلها ترى الأمور بشكل أوضح وأكثر صراحة، لكنها لم تنتبه إلا بعد أن مرضت ابنتها بالتهاب رئوى وحملتها نصف ميتة إلى المستشفى، بكت حينها وسقطت على الأرض خوفًا وهى تشعر أنه عقاب السماء المنتظر على أفكارها الشاذة، توقفت بعدها تدريجيًا وبصعوبة عن زيارتها المُقدّسة، استبدلتها بالخروج مع الأصدقاء وزيارة الطبيب النفسى، لكن أعصابها عادت للخراب والألم الذى يعتريها، وبدأت تشرب السجائر والقهوة الداكنة على غير عادتها، تعبة لكن مُصّرة على ألا تعود.

ديسمبر البارد لم يكن باردا هذا العام، والشوارع لم تكن مغسولة ورطبة كعادتها فى هذا الوقت، كل شيء كان صامتًا، مُترقّبًا، حزينًا على من سالت دماؤهم على الأسفلت وهم ينادون بالحُريّة، جنازة الشيخ عفّت كانت مهيبة، جمعت القلوب المصرية الحزينة الصادقة، مسلمون وأقباط وقفوا ليصلّوا عليه ويدعوا له، لم تستطع أن تحضرها أو تتابعها إلا من المنزل، كانت تبكى على رجال أمناء شرفاء يفقدون حياتهم من أجل ثلاثة أحرف «و ط ن».

بصعوبة هذه المرة أقنعت عالية محمود أنها ذاهبة إلى أهلها، وهى تعرف أنه لن يسألهم، فعلاقته بهم لا تتعدى المجاملات فى الأعياد والمناسبات الرسمية. فى الميدان قابلت صفا الطبيبة الصغيرة وبعض الفتيات والسيدات اللاتى تعرفت عليهن من الميدان، وقفت غريبة بينهن كعادتها بمظهرها الأنيق ونظرة الخجل

والحذر التى تعلو وجهها، بينما هنّ كنّ بسيطات غير متزينات ويعلو وجوههُنّ الإصرار والأمل، صفا كانت تُعانى من بعض الكدمات التى تلقتها دون إنذار من أحد الجنود وهو يُحاول أن يُخرجها هى وذويها من الميدان، لكن لم يُثنِهم هذا العنف عن النزول بشكل يومى بل والاعتصام عند مجلس الوزراء، وهاهى الآن مع الكثيرًات يبدأن مسيرة كبيرة للتنديد باعتداءات القوات المسلّحة على المتظاهرات.

قبل أن تبدأ المسيرة فى التحرك رأته، كادت تفرك عينيها حتى تتأكد من وجوده، كان يرتدى سترته الزرقاء التى رأته بها أول مرة، يقف مع بعض الرجال بالقرب منها ويتحدث بعصبية، ميّزت بعض الشتائم من العيار الثقيل بين أحاديثه، لا تعرف لماذا لم تجزع أو تلوى شفتيها امتعاضًا كما تفعل عندما تسمع محمود وهو يشتم، إنما ابتسمت ومنعت نفسها من الضحك بصعوبة، قادتها قدماها له فسمعته وهو يتحدّث عن تحفّظ حزب الحرية والعدالة على انتخابات رئاسية مبكّرة وإصرارهم على الاستفتاء على الدستور أولًا، نبرته كانت تقطر بالخذلان والخيبة، من خلفه نقرت كتفه بطرف إصبعها، استدار ليجدها، ابتسم لها من بين غضبه، بدأت المسيرة وسار هو جوارها بطوله الفارع كغصن شجرة عتيقة بجوار عود ياسمين، تختلس النظرات الفرحة له وهى ترسم ملامح وجهه فى ذاكرتها برموش عينيها حتى لا تنساها أبدًا، مال عليها وهمس «ألم أقل لك أنك سترافقيننى قريبًا فى مظاهرة؟» ضحكت وهى تُبادله نظرات كأنها الحب.

****

ملّت مروة من هرطقة كُتّاب التنمية البشرية ومحاولاتهم الفاشلة للتأثير فى حياة البشر، كل تغيير مرهون برغبة وقوة، الكلمات لا تُغيير إلا من أراد أن يتغير فعلا وآمن بهذا التغيير، عشرات الكتب قرأتها لكُتّاب عرب وأجانب دون فائدة، لا تزداد بعد كل كتاب إلا اكتئابًا لأنها لا تستطيع أن تُنفّذ ما قرأت، أصبحت تمقُت هؤلاء السعداء الذين يبتسمون دائمًا ويتشدقون بأسباب السعادة

والنصائح لليائسين مثلها، أصبحت تنظر للفتيات العازبات حولها بحقد وتتمنى لو عاد بها الزمن للتخلص من كل هذا العذاب، فكم كانت معاناتها ستهون لو كانت وحيدة وحُرّة، حاولت الاشتراك فى عدة نشاطات دون جدوى، ألقت بنفسها فى صخب المجتمع وشغلت نفسها بمشاكل الصديقات والأقارب، لكن هذا أيضًا لم يُنسها لذّتها المفقودة، حتى اتخذت قرارها أخيرًا، فى اليوم الذى تقدمت فيه بأوراقها لدراسة الماجيستير فى الأدب المقارن.

فى مساء هذا اليوم سبقته إلى السرير، كانت تعرف أنه يتزين، فهو يُحب أن يأتيها وهو متعطر ونظيف الأسنان والبدن، كانت مضطربة وقلقة، استجمعت كل لحظات الخوف والضيق التى مرّت بها الفترة الماضية، استرجعت وجه شادية البارد وكلمات الطبيب الصادمة، تذكرت ابنتها وهى متعلّقة بصدرها فى المستشفى، أغمضت عينيها لتُركّز أكثر، إنها ليست الظبية التى تجرى بين المروج، وليست العاهرة التى تشعرها فى أعماقها كلما قرأت أو شاهدت ما يمس العاهرات، إنها حبيبة وعشيقة هذا الرجل الذى يفعل المستحيل ليرى منها ابتسامة رضا، من الشبّاك ألقت القرص الصغير القاتل، نظرت له وهو يتدحرج على الأرض حتى استقر ليذوب فى بركة ماء على جانب الطريق، تنهدت بارتياح ثم رشّت جسدها بالعطر وانتظرته مرتخية فى الفراش.

❋❋❋

(١٢)

وقفت بتردد فى شارع شامبليون بمنطقة وسط البلد، الشارع كان مزدحمًا بالمارة والباعة الجائلين لكن أفكارها كانت أشدّ ازدحامًا، فكّرت مرارًا فى العودة إلى البيت الدافئ الطيب الآمن بعيدًا عن هذا الطريق الغريب الذى تقف فيه مترددة، خائفة كأنها طفل صغير لأول مرة يسير وحيدًا فى الشارع يبحث بعينيه لعله يجد من يعرفه وهو يتظاهر بالقوة أمام الغرباء، عندما وجدت البناية العتيقة التى كانت تقصدها وقفت أمامها مترددة، لم تحملها قدماها على الصعود واتخذت قرارها بالعودة، لكن شيئًا ما بداخلها كان يريد أن يكسر حواجز الخوف، وشعورها الذى لم تُحدده بعد كان يشتاق أن يراه ويسمع صوته ونبرته الكسولة، رمقت فُستانًا أحمر أُرجوانيًا فى فاترينة قريبة، من طبقة واحدة ناعمة، بأكمام قصيرة وخصر ضيق يزيد اتساعه حتى ما فوق الرُكبة، يُشبه كثيرًا فُستان أحلامها، سرحت فيه وتخيلت نفسها وهى تسير به على الرصيف ووقع خطواتها مع الكعب العالى وشعرها البنى يسابق الريح على وجهها، واثقة فرحة وجريئة، هل كان حسن معها فى الحُلم؟

- القمر أيضًا يسرح؟

ظهر لها فجأة كأنه خرج من أسطورتها التى تمّر أمام عينيها طوال الوقت، تبادلا نظرة طويلة دون أن تُجاوبه ولم تفق من حلمها إلا عندما أغمض هو عينيه وفتحهما بنظرة جديده خالية من الوهج الأول.

فى محاولة لضبط نبرتها على مؤشر الجديّة:

- لا تقل قمرًا .. لا أُحب هذه الكلمات.

رد بغضب مكتوم: لا تُعامليني مثل الجميع.

كيف عرف أنه ليس كالجميع؟ كيف تكهّن بمكانته عندها؟ هل هى ثقته الزائدة فى ذاته أم أنه صدر منها ما يدل على ذلك؟ لكنها فى لقاءاتها القليلة كانت حريصة على التحدث عن حياتها كزوجة وأم، وكانت حريصة على عدم إطالة النظر إليه وعلى معاندته ومعاملته بندّيّة وأحيانًا السخرية من نوبات هزله، عقدت ذراعيها ونظرت لحذائها بتردد عميق. سألها:

- ماذا بك ؟
- خائفة.
- إن أردتِ؛ نذهب إلى مكان آخر أو أستوقف لك سيارة أجرة.
- لكنك أردت أن أحضر هذه الندوة حتى أُثقف نفسى سياسيًا.
- أردت أن نحضر حتى نكون سويًا.

بمرح زائف: حسنًا، فلنصعد حتى لا تفوتنا الندوة.

أبواب المكان كانت مفتوحة وأعداد الشباب والفتيات كانت كبيرة، يملأون القاعة الصغيرة ويصطفون على جنباتها، فى واجهتهم مائدة صغيرة مغطّاة بقماش رخيص مليء بالبقع، يجلس خلفها ثلاثة رجال أحدهم يتحدث فى الميكروفون بصوتٍ عالٍ لا يتناسب مع المكان الضيق، وخلفهم يافطة ورقية مُلوّنة، مكتوب عليها اسم الندوة «سياسة بالعربى"، وقفت مع حسن عند الباب وكانت غريبة بينهم مثلما تبدو غريبة فى الميدان بملابسها الأنيقة وحقيبتها الكبيرة ذات القفل الفضى الخاص بالماركة الشهيرة، وجهها الصافى، ورائحة الفانيليا تفوح منها، من عطرها ومن الكعكات المنزلية فى حقيبتها، صافحه صديق بحرارة وآخر احتضنه وفتيات التففن حوله، كان يبدو حب الناس واهتمامهم الواضح بحضوره، وفى ثوانٍ كانا جالسين فى الصفوف الأولى، بكل جُهدها حاولت التركيز والمتابعة، غير أن جسدها كان يرتجف رجفات خفيفة مضطربة.

عندما نهض للحديث صمت الجميع بشكل مذهل لم تتوقعه من هذا الجمع فى هذا المكان الضيق، كان يتحدث عن المواطنة وكيف أنها ارتقت بالمجتمع ودعت للمساواة والعدل، إلى الديمقراطية الشفيفة، وإلى الشراكة وضمان الحقوق والواجبات، وأنها تدفع الإنسان لتطوير وطنه ومجتمعه الصغير، وأن المواطنة تساعد على قيام دولة مدنية تمارس الحياد الإيجابى تجاه المعتقدات والإيديولجيات المختلفة، ولا تمارس إقصاء وتهميش المواطنون والتفرقة بينهم لأسباب عرقية أو أصولية. وهنا نظر لعالية فى تلميح لخلافهما الأول حول مشاركة أطفال الشوارع فى المظاهرات، وأضاف أن المجتمع يحتاج التسليم بمفهوم المواطنة، لينال الفرد موقعه فى المجتمع ووظيفته عن طريق كفاءته وقدراته ونزاهته، وليشعر شعورا حقيقيًا بواجباته تجاه وطنه، فلا مواطنة بدون وطن، ولا مواطن إلا بمشاركة حقيقية فى شؤون الوطن.

أنهى حديثه وانهالت عليه الأسئلة واحتدمت المناقشات، بينما هى تسمع مصطلحات تتناقلها وسائل الاعلام دون أن تُدرك معناها الحقيقى، حاولت أن تُتابع الحديث بصعوبة وضاع تركيزها بينما كانت مأخوذة بحسن وسحر حضوره الذى طغى على كل شيء.

ثقته فى نفسه بها شيء غريب، أحيانًا تضبطه وهو يقف بعيدًا وحيدًا فى خجل، وأحيانًا تجده جادا، عصبيًا يخور كالثور لا أحد يقدر على الاقتراب منه، أحيانًا يكون حكيمًا عالمًا ببواطن الأمور، وأحيانًا أخرى يُلقى النكات التافهة ويضحك عليها،هو أكثر من رجل وكلهم لهم نفس البريق والألق، تجلس أمام سحره كالمبهورة، لا تعرف هل هى معجبة بحزمه وقوته، أم بثقافته ورويّته، أم بهمجيته وطفولته، كسندريلا لملمت أناقتها وانبهارها وقررت العودة للمنزل قبل أن تدُق الساعة التاسعة وينتهى السحر وتضيع هى فى عالم لا تنتمى له.

اصطحبها إلى أحد شوارع وسط المدينة وكان الجو منعشًا والشتاء فى أعذب حالاته، الشوارع مغسولة والأرصفة هادئة من البشر على غير العادة،

ربما كانت الأحداث المتداعية فى ميدان التحرير هى سبب الهدوء الذى خيّم على وسط البلد، حكى لها عن مفاهيم ومصطلحات غابت عنها فى الندوة؛ الماسونية، الاشتراكية، الحكومة التكنوقراطية، تظاهرت بالمتابعه والاهتمام وكل تفكيرها منحصر فى حياتها القادمة، دعاها إلى مثلجات بالمستكة لا تتناسب مع البرد بقدر ما تتناسب مع جنون اللحظة، رائحة المستكة كانت قويّة وصريحة، جلسا على الرصيف، انكمشت وتذكرت محمود، ماذا سيقول إن رآها فى هذه اللحظة، هل سينتظر حتى تشرح له أم سيركلها فى الشارع، عن قسوة ليس عن غيرة، ويتركها على الرصيف إلى الأبد؟ هى لا تثق فى حبّه لها، ولا تثق فى غضبه، الشيء الوحيد الذى تثق به الآن هو إحساسها بالسعادة.

- تحررى.

هكذا قال لها الغريب الجالس جوارها.

- لا ترتعشى .. فإذا كان ارتعاشك عن برد فالبرد لا يسكن إلا قلوبنا، أمّا حرارة الأجساد فهى رهن انفعالاتها، وإذا كان ارتعاشك عن خوف، فلا تخافى لأنك فراشة وحُرّة والأحرار لا يخافون.

- لكنى لا أملك أجنحة الفراشة.

- بل تملكين، ولكنك تُخبئينهما تحت معطفك.

ابتسمت وشعرت بقدر كبير من التحرر، جعلها تحكى له عن الفستان الأحمر الذى رأته فى الفاترينة هناك وعن حلمها، حكت له عن عشقها للرسم وتصميم الثياب، وعن المسابقة التى فازت بها وتقاعسها عن المضى قُدُمًا فى هذا الطريق، وحكى لها أنه بلا عمل ومع ذلك لا يكترث، وأنه يعشق الموسيقى والقراءة والتسكع، وأن لا شيء أو أحد بمقدوره أن يُثنيه عن إرادته، حكى لها أنه بلا أحلام لأنه يمضى فى الحياة كغريب وأن أمنيته الوحيدة أن يرى هذا الوطن أعلى وأن يكون لكل فرد فيه إرادته الحُرّة وحقه فى حياة كريمة، لم يكن يتحدث بنُبل وسمو ووطنية ولكنه كان يتحدث ببساطة وصدق، كان حوارهما كعادته خال

من أى إشارة لحياتها الخاصة أو آلامها الخاصة، عند محطة المترو ودّعها بمشاعر حذرة، على عكس التحرُر الذى كان يُحدّثها عنه وقد رأى فى عينيها أن القصة لم تنته بعد.

فى الأيام التالية كانت تُحاول أن تتمسك بأرضها وألا تكشف عن الأجنحة، كانت تطوف فى البيت تُنظّمه وتُغدق عليه من وقتها وجهدها وتُجاهد نفسها حتى لا يخطُر ببالها الميدان ووسط البلد، صوته وهو يخطب، مشيته الواثقة، نظرته الحُرّة، كلماته المُلهمة، ورائحة المستكة، حاولت بقوة أكبر أن تتجاهل اتصاله بها وألا تُجيبه، فهى ليست على استعداد أن تملأ حياتها البائسة بالمزيد من الأحلام المُجهضة، عندما ضعفت أمام رائحة العبث وهوس الجنون اتصلت به فلم يُجبها بدوره، كانت فى حيرة، تتمزق بين رغبتها فى الاقتراب والبُعد، الآن هى تخون.

لم تكن قصة ياسر صديق محمود إلا محاولة صبيانية للتمرد، أمّا الآن فهى بصدد مشاعر لا تُقاوم، ذاكرتها تُراجع كل أفلام الخيانة، «نهر الحب»، «شيء فى حياتى"، «لوعة الحب»، كلها انتهت بمأساة، كلها أشارت إلى المرأة المجرمة الحقيرة التى لبّت نداء القلب، كم هى حقيرة الخيانة، أحببناها فى الفيلم فقط لأنها أتت من فاتن حمامة الرقيقة البريئة وليس عالية التى سيرجمها المجتمع لو لبّت نداء القلب، فالمجتمع قد يقبل بالمدمن والحشاش، والكاذب والفاسق، لكنه لا يقبل أبدًا الخائنة، يعتبرها نجسة وعاهرة وحشرة، الموت خير لها، حتى مع تعاطفنا مع فاتن حمامة إلا أن فى النهاية ككل الأفلام الأبيض والأسود لا يصح إلا الصحيح، والصحيح أن يموت عمر الشريف وتُحرم هى من ابنها فتنتحر، أو أن تعود لعدلى كاسب وتدفن مشاعرها فى قلبها، ليت فيلمها ينتهى بأن تحضُن زوجها مثل حضن شادية لأحمد مظهر وهى تقول (لو كنت عاملت القطة برقّة منذ البداية ما كانت فكرت فى الهروب .. لكن الآن هى لن تتركك أبدًا).

كانت قلقة مضطربة، قلبها فارغ إلا من التفكير فيه، كرامتها التى كانت تُحافظ عليها شامخة على الأقل أمام الغرباء بدأت تنهار، استلقت على الفراش بعد أن نام الصغير، ومحمود فى الخارج كعادته مساءات الخميس، فكّرت أن تُحدث حسن، ستُكلّمه كصديق، هكذا كانت تخدع نفسها دائمًا، الحجج كثيرة وهو لن يسأل، تخوفت من ألا يرد عليها فأرسلت له رسالة تُخبره أنها تتمنى أن تحضر ندوة أخرى، انتظرت ساعة بالغة القسوة، حتى وصلتها رسالة منه يُخبرها أنه يريد أن يُحدثها لو الوقت مناسب، ولم تُفكر عالية بل أرسلت له على الفور رسالة بالموافقة، أتاها صوته أكثر عذوبة مما اعتادته، وكان صوتها هامسًا هائمًا كأنه أتى مع النسيم من فوق بُحيرة هادئة، توشوشا فى حديث قصير، وصفها بأنها غريبة اقتحمت حياته، وكان هذا شعورها به، أخبرها أنه مشغول بها ولا يدرى ما السبب، وأنه يشعر أنها حزينة جدًا رغم مهرجانات الضحك التى تُغلف حواراتها، ثم أخبرها أنه يتمنى فى هذه اللحظة أمنية واحدة، أن يلمس براحته شعرها ويُمرر كفّه فيه.

أغمضت عينيها وغابت عن الوجود فى هذه اللحظة، أفاقت على نبرته التى تغيرت فجأة ليعتذر لها ويخبرها أنه يجب أن يُغلق الخط، سألته أن يكونا صديقين وألا يقطعا كل الخيوط، وأجابها أنهما بالفعل صديقين ثم أغلق الخط بسرعة، احتضنت الهاتف كمراهقة، بكت ثم ابتسمت، ظلت عيناها مُعلّقة بسقف الغرفة وداخلها شعور غريب أنها تستطيع حتمًا أن تلمس النجوم فى هذه الليلة، إنها تطير، لقد ظهرت الأجنحة وبرقت فى السماء بألوانها الزاهية، لم تخف فى هذه الليلة مثل ما ستُعانيه من خوف فى الليالى القادمة، كانت تلمس شعرها وتمرر كفها فيه كأنّه كفّه، كأن هذا أقصى ما تتمناه فى حياتها، أن يمسّ شعرها. فى زُمرة مشاعرها تذكرت أن محمود لم يمس شعرها أبدًا إلا عن طريق الصدفة، هو لا يرى شعرها من الأساس، ثم طردت هذه الفكرة من رأسها حتى لا تُفسد عليها بهاء اللحظة.

خرجت مع محمود وكريم فى اليوم التالى، كانت من الأيام القليلة المرحة فى حياتهم، كانت هى شعلة من السعادة، عادت إلى عطائها وأكثر، تُغدق عليهما من حبها وسعادتها، أخبرها محمود أن كعكها المنزلى بشع الطعم ولم تغضب، تحدث لمدة نصف ساعة فى الهاتف وهى جواره صامتة ولم تغضب، شغّل الأسطوانة التى يُحبها بعد أن نزع الأسطوانة التى وضعتها ولم تغضب، كانت شاردة، هنا وليست هنا، تريد أن تحتضن الكون وتجرى فى أرجائه كمراهقة. الفرق الوحيد بينها وبين المراهقة أنها لم يعد يُهمها شيء، تُريد أن تعيش قصتها وسعادتها فحسب.

تجرى مع كريم وتُثرثر لمحمود دون أن يُبدى اهتمامًا، لقد عادت أصبى وأسعد من قبل، ختما الخروجة بسينما، الفيلم كانت به قصة خيانة، انكمشت، بدأت تشتم حقارة ما حدث، تنظر لهما بطرف عينيها وتشعر أنها ليست جديرة بهما، تبدلت مشاعرها فى دقائق، فى الأيام التالية أصبحت أكثر عنفا وحنقا، كانت مشاعرها متأرجحه بين أقصى السعادة وأقصى الأسى، اتصل بها حسن ولم ترد، ثم عادت لتتصل به بعدها بأيام فلم يرد، تأكدت أن الحيرة والمشاعر المتأرجحة من نصيبه أيضًا، أصبحت تُمثل أنها بخير وتُبالغ فى الاهتمام بالبيت، قررت قرارا مثل الكثير من قراراتها الفاشلة بأنها لن تعود للحديث مع حسن أو محاولة الاقتراب منه حتى لا ينفجر فى حياتها، وحسبها اللحظات القليلة من الحياة التى وهبها لها.

مرت أيام أخرى من عذاب المقاومة، حتى كان هذا النهار الذى لم تزره الشمس ولم تتجل فيه الرحمة، عندما كانت تُحمّر اللحم بالمطبخ ودخل محمود دون سلام كعادته فى الأيام الأخيرة، كان وجهه يحمل تعبيرًا غريبا كأنه صورة أو رسمة خالية من الحياة، سمعت ضوضاء فى غرفة النوم فدخلت للتأكد من ظنونها، وبالفعل وجدته يُعدّ حقيبة سفر يضع فيها ثيابه وحاجياته هكذا دون ترتيب، لم يكن جواز السفر الذى لمحته فى جيبه منذ أيام محض خيال أو صُدفة،

سألته باستنكار عن جهة سفره ومُدة السفر، فلم يُجب، انتابها شعور غريب أن ليس من حقها أن تسأله أو أنها فقدت قُدرتها على سؤاله عن أى شيء، هو نفس الشعور الذى لجمّها وجعلها تقف كتمثال تُشاهد مشهدا فى مسلسل لا يخُصّها، صوت داخلها يحثّها على الاقتراب منه ومسك يده بحنانها القديم وسؤاله، لكنها لم تعُد تشعر أنها زوجته، أفقدتها الشهور الأخيرة الجافة هذا الاحساس وسلبتها هذا الحق، عندما انتهى حزم حقيبته ولم ينتظر عودة ابنه من المدرسة؛ اتجه صوب الباب وعند عتبته التى كُسرت قبل أسابيع نظر لها بكل الأسى الذى واجههما فى الشهور الماضية، وأعطاها ورقة وهو يقول:

– هذا استدعاء من الشرطة وصل باسمك قبل أيام حتى تذهبى للإدلاء بشهادتك فى قضية ضرب وسحل الفتيات.

أفاقت من دور المُشاهدة وحاولت أن توضّح له الأمر وقد هربت كل دماء جسدها، ولكنه لم ينتظر التوضيح وأشار لها أن تصمت، استكمل:

– لقد أمرتك بألا تنزلى الميدان وألا تخرجى إلى حيث لا أدرى. ولم تسمعى كلامى .. تزوجتك حتى تُطيعينى وتحفظينى ولم تفعلى .. أنا مُسافر وأنت طالق يا عالية.

صفق الباب خلفه، التصقت هى بجدار قريب فى ذهول حتى انتبهت على رائحة اللحم المُحترق فى المطبخ.

****

لم تكن النهاية مؤلمة كنهاية قصتها مع هشام، ليس لأنها لم تُحبّه أو لأنها أصبحت تُحب هيثم، لكن لأنها تعلمت الدرس جيدًا بعد أن تركها هشام، تعلمت أن تُحب كما تشاء ولا تتعلق بأحد، ليس لأحد على قلبها من سلطان، هى فقط من تأمُره بالحب والهجر والنسيان وعليه أن يرضخ، وقد درّبت قلبها على هذا بعد أن كادت تفقد عقلها بل وحياتها وهى تتداوى من جرح هشام النافذ، الآن هى قوية وبوسعها أن تُدير حياتها دون إرهاق التعلق، لهذا لم تتألم من وضع

نهاية لعلاقتها بمحمود، هجرته بنفس الطريقة التى هجرها بها هشام وبنفس الطريقة التى تعرفت عليه بها، رسالة على الفيس بوك، هى حتى لم تُكلف نفسها أن تُقابله أو تُهاتفه، رسالة مجانية على الفيس بوك تُخبره فيها أنها لا تشعر معه بالأمان وتُعدد بعض عيوبه ثم تُقرر أنها منسحبة فحسب، لم تعُد فرح العاطفية المعطاءة، لفّت قلبها بغلاف قاس، أرسلت الرسالة وحظرته كصديق حتى لا يُحاول مراسلتها، كما وضعته على القائمة السوداء بهاتفها حتى تتجنب اتصالاته، فعلت كل هذا دون دمعة واحدة ودون أن تُحيد عن مسار حياتها العادى، كأنها تدهس أحدهم بسيارتها دون أن تلتفت، حتى الرسائل الالكترونية التى أرسلها لم تقرأها، إنما حذفتها كما هى حتى لا تُعطى نفسها فُرصة لمراجعة قرار البُعد.

هذه القسوة لم تكن وليدة قصة حبها الفاشلة فقط، هى قسوة ذات جذور قديمة من يوم أن نزلت مصر لتعيش وحدها دون أن يعبأ والداها، واقتصرت علاقتها بهما على اتصالات قصيرة لا تصل عبرها المشاعر ولا يرتاح معها القلب، حتى قبل نزولها مصر كانت تعيش معهما فى الامارات حياة باردة خالية من الأحضان، لذلك تشعر دائمًا بنقص فى الأحضان، الضم يشغلها ويؤرقها، تحتاج لمن يضُمّها طوال الوقت، لا يملّ ولا يضيق بمرحها الزائد مع الغرباء وبقسوة غضبها، يضُمّها حتى رغمًا عنها، يضُمّها وهى ثائرة ومنفعلة فتخمد ثورتها فورًا، يضُمّها وهى تعبة فتُصبح مُهرة جامحة، يضُمّها وهى مختنقة فتعود لها أنفاسها، يضُمّها وهى قطعة ثلج ميّتة فتعود للحياة وتذوب بين ذراعيه، لكنها لم تجد هذا الحبيب الحُضن أبدًا، كل من صادفتهم فى حياتها كانوا أحبّة قُبُلات، حبهم له مفعول القُبلة اللذيذة التى سريعًا ما تنتهى، القُبلة التى تُعطى النشوة ولا تُعطى الدفء فتتركها جوعانة للمشاعر بشكل كبير، وللأحضان بشكل أكبر.

كانت تتألم فى المساء، فى فراشها بالتحديد تتذكر علاقتها وتفاصيلها الصغيرة والأشياء المُحببة التى ستفتقدها فى محمود، ذراعه المفتولة التى كان يجذبها بها،

نظّارته التى يُعيد وضعها كل دقيقة ثم يخلعها ليدعك عينيه الصغيرتين فيبدو كطفل صغير، وقاره الذى يفقده بين يديها، تُزعجها فكرة أنها لن تُقابله مُجددا .. كحبيبة .. هى لم تعتد أن تقطع علاقتها بأحد، لكن محمود شرقى، ضيّق الخُلق، لن يرضى بنصف علاقة أو دور ثانوى فى حياتها، لذلك أدركت أن عليها أن تقطع معه كل الخيوط، ولسبب آخر لا تعترف به حتى بينها وبين نفسها، لأنها أرادت أن تُذيق أحدهم ما ذاقته من مرار عند فُراق هشام، فالبعض يمررون الجراح التى ألّمت بهم لغيرهم حتى تظل الدائرة مستمرة دون أدنى تأنيب ضمير، عند الفجر اشتد ألمها ونهضت باكية تخنقها الدموع، اتصلت بهيثم، رد عليها بكسل لم يمنعه من أن يكون مستمعا جيدًا لكل آلامها وبكائها، هدأت عندما ضاحكها وغازلها برقة فاتنة، اطمأنت قليلًا لكونه رجل متفهم ولا يميل للعصبية، على عكس الصفات التى عانت منها كثيرًا مع الأحبّة السابقين وأضاعت وقتها فى محاولات للتغاضى والاقناع والتحايُل كأنها تُربى أطفالا، الآن هى طفلة هذا الطفل، الذى له ضحكة فاتنة وأسنان بيضاء جميلة متساوية تُغريها بتقبيله.

❋❋❋

(١٣)

عالية لم تبك عندما خرج محمود وصفق الباب خلفه، أغلقت التراس بهدوء ثم ذهبت للمطبخ وأكملت إعداد الطعام بشكل أُتوماتيكى، عندما أحضر الباص كريم من مدرسته استقبلته مُهللة ككل يوم مشيرة إلى أن والده ذهب فى رحلة سفر تابعة للعمل ولا تعرف ميعاد عودته بعد، كان هذا الخبر كافى لاكتئاب كريم، وراح يسألها ألف سؤال عن والده مما دمّر أعصابها، فصرخت فى وجهه، أمرته بالمكوث فى غرفته، وراحت تفتح النوافذ وتُشغّل الموسيقى بصوت مرتفع، ثم أعدّت لنفسها عصيرا طازجا احتفالا بحُرّيتها وهى تُردد داخلها «الحمدُ لله»، رقصت، دارت دارت دارت، حتى أصابها الدوار، أغلقت باب غرفتها، على طرف السرير جلست، شدت أطراف الملاءة كعادتها حتى يرى محمود السرير مشدودا مهندما فيرضى عنها، عاشت عمرها معه تُحاول أن تُرضيه ولا تُحاول أن تفهمه ثم تذكرت أنه لن يراه، شيء داخلها يرفض التصديق، هو بالتأكيد سيغضب لبعض الوقت ثم يعود.

«أخيرا .. أنا حُرّة .. سأخرُج للعمل وأُقابل صديقاتى كما أشاء، سأخرج للمظاهرات والندوات دون أن أضطر للكذب .. أنا حُرّة .. لن يضربنى رجل مرة أخرى .. لن يتحكم فى إنسان .. سأنام وقت أشاء، آكل ما أشاء وأسمع ما أشاء .. أنا حُرّة»، هكذا حدثت نفسها وظلت طوال اليوم فى مرح مبالغ فيه إلى أن أتى المساء كاشف الهموم ومُعرّى العذابات، ظنت أنها ستنام فى طول السرير وعرضه قبل أن يسقط جفناها رغمًا عنها، عندما تمددت على السرير تبينت رائحته فى الوسادة،

رائحة شعره ووجهه بعد أن يحلق ذقنه، ورائحة بيجامته التى تحمل عرقه وبقايا عطره، نسى أن يضعها فى الحقيبة بعد أن خلعها عن نفسه، ضمت البيجامة لوجهها واشتمت رائحته بعُمق لتملأ بها صدرها وقد بدأت دموعها فى الانهمار.

أفاقت على صوت أُمها تتحدث مع كريم، الصُداع يكاد يفتك برأسها حتى إنها ظلت مُمسكة برأسها مُدّة طويلة، ولم يُفارقها الصُداع من تلك اللحظة على مدى حياتها، كانت أُمها قلقة جدًا بعد أن اتصل بها كريم ليُخبرها أن أمه أغلقت باب الغرفة على نفسها ولا ترد عليه، كما أخبرها عن سفر أبيه المفاجئ، لكن عالية طمأنتها بأنها تعبة فقط قليلًا وبأن سفر محمود كان معلوما عندها منذ مُدّة، لم تُخبرها عن الطلاق، هل كانت تحلُم؟ لكن عدم وجوده يؤكد أنها تحيا واقعها كما هو، رأسها يدور فترى الغرفة وأمها وابنها وأيامها، كلهم يدورون فى دوامة لا تتوقف، أين محمود ليأخذها للطبيب، أين هو ليُحضر لها الدواء، أين هو ليقلق عليها ويهزّ كتفيها وهو يؤكد لها أنها بخير؟ إنها تشعر بأنها بل بلا عمود فقرى، مخلوقة هُلامية لا شيء يصلب طولها ويشد من جزعها، هل كان محمود مُهما فى حياتها إلى هذه الدرجة؟ لكنها لم تطرده منها، تحملت قسوته، جفاءه وحتى خيانته، حاولت حتى آخر لحظة أن تُصلح من حياتهما وأن تكون مخلصة، حدثت نفسها بأن الاخلاص ليس أن تُخلص لحبيبك أو شريكك طالما أن لا أحد يلوح فى الأفُق، لكن الاخلاص أن تُقاوم الاغراءات حولك وتُصرّ على إخلاصك.

اصطنعت الصحة الجيدة والضحكة المرحة حتى تصرف أمها عن البيت وتُطمئنها، رحلت وهى تعرف جيدًا أن ابنتها ليست بخير، فهى تدرك الفرق بين ضحكة القلب وضحكة الشفاه الجوفاء، وقد رأت الدموع المخُتبئة فى عينى عالية، ولكنها آثرت أن تتركها تحزن وحيدة حتى تنتهى شُحنة الحزن داخلها، أخذت كريم معها وتركتها، ثلاثة أيام لا تتوقف عن البكاء، تنشر الصور هنا وهناك وتحتضن القطع المتبقية من ثياب محمود، تشُمّ رائحته طوال الوقت، هو

لم يتركها، هو فى كل ركن من المنزل بغضبه وعبوسه وصمته، مازال السرير يرتعد من غرامهما، مازال الليل يحمل صوت أنفاسه وهو نائم بعمق جوارها، حتى المرآة مازالت تحتفظ بصورته وهو يُمشّط شعره فى الصباح، يضبط نظارته ويربط الجرافات، لماذا لم يُسامحها كما سامحته دائمًا، لماذا لم يُحاول أن يُقرّب المسافات بدلًا من أن يقطعها، من سيحتضنها ويحتويها؟ صحيح أنه لم يحتضنها أو يحتويها منذ أعوام طويلة، لكنها تشعر بحرمان أكبر فى غيابه وخوف أكبر ألا يحتويها أحد أبدًا وألا تجد من بعده حُضنا آمنا، رغم الخناجر العديدة التى ألقاها عليها إلا أنها أصبحت حزينة، ضعيفة ومكسورة فى غيابه.

غريبة الذاكرة فى أدق أوقات حياتنا عندما نستعين بها لتُذكّرنا بما آلمنا من الحبيب وبعيوبه والعذابات الكثيرة التى تسبب لنا فيها، حتى نُصبح أقوى وأقدر على البُعد، تقوم بخيانتها العُظمى ولا تُذكرنا إلا بحلاوة معشره وكل نظرة، كلمة، أو لفتة كسب بها ودّنا، فنسقط فى فخ الذاكرة ونتعذب أكثر، اتخذت قرارها بألا تُخبر أهلها بما حدث، فهى لن تتحمل شعورهم الحزين بفشلها، كما أنها مازالت تظُن أن المسألة مسألة وقت وأن لابد لمحمود أن يعود آسفا، نادما ليسكن بيتهما مرة أخرى، هكذا أقنعت نفسها حتى تستمر فى حياتها العادية، عندما حضرت أُمها مع الصغير أعدّت لهما العشاء الذى يُحبه محمود، وبقيت لأيام تُعد الطعام الذى يُحبه وتنتظره كل مساء فى أبهى مظهر، حتى يئست من عودته فذهبت لمقر عمله لتسأل عنه بموارية، أخبروها وكانت صدمة كبيرة أنه سافر ليعمل بفرع الشركة بإنجلترا بناء على سعيه الدؤوب منذ مُدّة، وسيبقى هناك لمدة عام على الأقل قبل أن يقوم بإجازته السنوية.

إذن كل شيء كان مُدبّرًا، لقد ظنّت أنها سفرية داخلية قصيرة، أو أنه يقيم ببيت أهله والسفر مجرد تهديد، لكن سعيه له وعدم إخبارها به يُنبئ بنيّة مُبيّتة للغدر، أدركت أن كسرها لأمره أو قضية الضرب والسحل كلها كانت حججًا حتى يتركها ثم يستقل بحياته ويتسنى له أن يبدأ حياة جديدة، ولولا أنها

اتصلت بهيثم قريبا وتأكدت أن خطتها تسير على ما يُرام، بل وأن هيثم بدأ يُحب فرح جديًا، لظنّت أنها هى من وراء كل هذا العبث، لكن كيف نسيت أن من خان مرة بإمكانه أن يخون ألف مرة؟ ومع كل حكاية خيانة تبعد مشاعره عنها أكثر حتى يُصبح الاستغناء عنها أمرًا سهلًا، كيف ركّزت كل تفكيرها لتنتقم لكرامتها ولم تُفكر أن تستعيده، كيف ظنّت كالجميع أن الزواج مشروع أبدى ومضمون؟ حاولت فقط أن تهتم به وتُرضيه حتى تأمن شرور غضبه، لكنها لم تُحاول أبدًا أن تفهمه، كانت تتجنب حوار العقل والنديّة معه حتى لا ينتهى باتهامه لها بالسطحية والفشل وقلة التجربة التى قد تصل للتصرف بحماقة، لذلك فضلّت فى الشهور الأخيرة ترك مسافة بينهما وعدم الانصهار به كسابق عهدهما .. مسافة سمحت للآخرين بالدخول!

مرّ عليها شهر تعيس، كانت تعيش فيه كأن محمود هنا، تنام فى ميعاده وتأكل فى ميعاده الأصناف التى يُحبها، تذهب مع كريم لتدريباته الرياضية وتُشجّعه بحماس كما كان يفعل أبوه، ثم تُذاكر معه دروسه وهى تُقلد أسلوب أبيه التربوى الجاف، كأنها أصبحت نسخة مصغرة رقيقة منه، حسن كان يزور خيالها من بعيد كل حين، وكانت تبتسم لذكراه وتتمنى فى أعماقها أن تراه مرة أخرى وتعود لعلاقتها به كصديق، فربما صداقتهما تُعيد لها نفسها الحائرة التى مسخها محمود بغيابه، كما أنها تحتاج لأن تنزل للدنيا وتُنازلها حتى يشتد عودها مرة أخرى، مشاعرها المضطربة من فُراق محمود بدأت تهدأ والطفلة داخلها توقفت عن النحيب عندما بدأت تعى قسوة قراره فى البُعد، وأنه لو كان أحبها بصدق ما كان استطاع أن ينطقها أو أن يبعد عنها من الأساس، بدأت تبحث عن أحلامها الضائعة هنا وهناك وتتذكر ما كانت تُحب وتكره، فكّرت فى العودة للنادى الصحى وتزجية وقتها فى أشياء مُلهمة وليس فقط فى شراء مستلزمات البيت والأعمال المنزلية، فى خضم أيامها الصعبة وحياتها الجديدة كامرأة وحيدة، جاءتها مكالمة من صفا الطبيبة الصغيرة تعرض عليها المشاركة فى ندوة قريبة،

وبدأت تشك فى أمر صفا وأن المكالمة مُدبّرة عندما أخبرتها الطبيبة الصغيرة أن حسن سيخطُب فى الندوة، حاولت عبثًا أن تُخرج أجنحتها وتطير هذه المرة لأبعد من خيالها، لأبعد مما يتصوّر الجميع.

أشارت له على البروز الذى ظهر فى بطنها المُنتفخ، فضحك وهو يقبله، هذا الصغير الذى مطّ جلدها وسكن تجويفها حتى تغير شكلها وأصبحت دبة صغيرة ببطن ناعم منفوخ، وهى عاشقة الأناقة والخفة، أصبحت تتنقل بثقل من غرفة لأخرى، وتبدل ملابسها الفضفاضة بصعوبة، سرتها الغامضة المضمومة أصبحت بارزة، مفضوحة، وثدياها البرتقاليين تهدلا من الكبر، وبرغم كل شيء أصبحت أسعد وهى تترقب كل يوم حركة الصغير وتشعر به يسبح فيها، يتمطى ويركل ويدغدغ جسدها، بيته الصغير.

كانت تعد الأيام لتراه، تشعر أنه ولد، لم تقم بعمل سونار خوفًا عليه، لكن قلبها يحدثها أنه ذكر صغير، تحدثه وتغنى له فيتحرك ليعلن عن سعادته، وعندما تبكى كان يتحرك حركة مفاجئة مرحة ترسم لها ابتسامة فوق الدموع، هو رجلها الذى سيحبها ويحميها ويجعلها أقوى، هو امتداد روحها ومشاعرها تمشى على الأرض، سيُشبهها وتكون روحه حائرة مثلها، هكذا تخيلته قبل أن تراه، فى هذا المساء أيقظتها الضربات أسفل بطنها عند منتصف الليل كأن الصغير يستأذن لنزوله، فى المستشفى مضى الكثير من الوقت وهى تتألم وتصرخ حتى أتت اللحظة ونزلوا بها لغرفة الولادة، ثم توقف الطبيب فجأة ودخل عدة أطباء آخرين، لم تكن فى وعيها الكامل لكنها رأت خيالاتهم وسمعت همهماتهم عن انخفاض ضغطها المفاجئ وانخفاض ضغط الصغير بالتبعية، شعرت بنفسها تتقيأ لا شيء، مجرد عصارة صفراء تشبه مرارة خوفها.

رأت محمود يرتدى البذلة الخضراء الخاصة بغرف العمليات، كان واجما وقد فقد وجهه كل دمائه وعيناه لأول مرة تراهما دامعتين، أحبته فى هذه اللحظة وتمنت أن تضُمه رغم كل شيء، لكن شدة الألم وشعورها بالانسحاب من الحياة

جعلاها تصرخ صرخة أخيرةُ مدوية، قرر بعدها الطبيب إجراء عملية جراحية، لم يخدروها تخديرًا كّليًّا بناء على طلبها، حتى تكون يقظة فى اللحظة المنتظرة وتراه يخرج منها وهو ملطخ بالسوائل، فتنتفض وتهم بالنهوض لتكون أول من ينبّئ محمود أنه ولد كما أخبرته دائمًا، ضحك عليها الطبيب وهى تستأذنه للخروج، ثم راحت فى غيبوبة قصيرة أفاقت منها على قبلات محمود ونظراته الممتنة، كانت أصفى لحظات حياتهما.

أتى لها بالصغير لتراه لأول مرة، لم يكن غريبا عنها، كانت ملامحه المنتفخة تمامًا كما توقعت، وعيناه الواسعتان الضاحكتان كانتا تشبهان عينيها، انفصلت عن الدنيا فى حوار طويل صامت مع الصغير، لم يبك كما لم يبك لحظة ولادته، كان ينظر لها بتركيز يتأملها وتتأمله، يرسم ملامحها وتطبع صورته فى قلبها، أدركت عندما رأته سرّ المعانى الكثيرة المبعثرة داخلها وعرفت أنه أتى ليحمل لها الأمان طوال العمر، فمشاعرها التى أخبرتها أنه امتداد لها لم تكذب عليها قبلًا، ظل على ذراعها طوال الليل، أرضعته من صدرها حبًا مع اللبن وضمته حتى شعرت أنهما أصبحا شخصًا واحدًا مرة أخرى، تعجب الجميع من التصاقهما رغم تعبها وتعبه من شقاء خروج روح من أخرى، لم يدركوا أنها لم ترتح فى حياتها مثلما ارتاحت فى هذه اللحظات.

❋❋❋

(١٤)

عندما ذهبت للندوة ولم تجده شعرت أنها أكثر الناس وحدة على ظهر الأرض برغم الزحام حولها، وبرغم صفا التى تُرافقها وتُزعجها بحكايات صغيرة شعرت أنها تحتاج بجانب وحدتها إلى الصمت، كان يُضايقها هذا الشعور أن حياتها وسعادتها دائمًا متوقفة على رجل، لماذا تظهر كالطفلة التائهة فى غيابه أين ثقتها بنفسها، صحيح أنها لم تأت إلى الندوة إلا لتراه ولكن هذا لا يمنع أن تستمتع بوقتها مثل كل الفتيات حولها، يتحدثن، يضحكن، يُثرثرن هنا وهناك، وهى كالزهرة الجلاديولاس الأنيقة بينهن ومع ذلك لا تقوى على التركيز أو الكلام، داخلها خرب وهش، تكتفى بتوزيع الابتسامات الباهتة، تذكرت حضورة وهو على المنصة، ونظراته لها بين حين وآخر، كانت تشعر أنها مسؤولة منه وحُرّة فى وجوده، محمود لم يسمح لأجنحتها بأن تنمو، كان يقُصّها أولًا بأول، وعندما اكتشفت خيانته وبعدت بمشاعرها عنه راحت أجنحتها تنمو فى خفاء، ولم تظهر إلا عندما كشف حسن النقاب عنها بجُرأة رجل وعفوية صديق.

بدأ الانتظار ينهش صبرها فلم تعد تحتمل المكوث بين أناس لا تنتمى لهم مدة أطول، وقد سئمت الابتسامة المرسومة وتعبت عضلات وجهها من التقلص الاجبارى، على درج البناية المُتهالكة سمعت خطوات صاعدة عرفت أنه هو، قال لها وهو ينهج، وبدون تفكير، قبل حتى أن يُسلّم عليها (لحقت بك)، إذن كان يعرف أنها هنا، راحت تربط الأحداث فى دقيقة وأدركت أنه على اتصال ما بصفا وأنه من طلب منها دعوتها لحضور الندوة حتى يراها بصدفة من صُنعه، أسعدها هذا الخاطر وجعلها تستعيد أنفاسها المضطربة.

لم تصعد معه، لكنه نزل معها، تمشيا قليلًا فى شوارع وسط البلد الحيّة دون أن يتوقفا عن الحديث، نسيت معه محنة قلبها وكل أوجاعه، نسيت أمومتها ومسؤوليتها، هى معه سعيدة مهما اشتدّت الآلام، وكانت قد اتخذت قرارًا مسبقًا بعدم إعلامه بخبر طلاقها، نزل مطر خفيف ليزيد من رومانسية اللحظة، كانت تطير جواره لا تسير، تشعر أنها فى حلم تكرر كثيرًا فى خيالها لكنه أبدًا لم يكن بهذه الروعة، كانت تخشى أن تموت قبل أن تجرّب هذا الشعور، فكل تمشية لها مع محمود كانت أشبه بتمشية فتاة مع أسرتها، محمود كان أسرتها التى تُحبها وتشعر معها بالأمان، لكنه أبدًا لم يستحوذ على عشقها، فالعشق حب مرتبط بلهفة وشوق ورغبة، ومحمود رغبة غير متأججة وحب يخلو من اللهفة، لم تسأل نفسها إن كانت أحبت حسن أم أنها مازالت تكذب كذبتها الكبيرة على نفسها وتعتبره صديقًا، لكن هذا ليس وقت أسئلة أو مصارحة، هذا وقت التحليق، لم يُمسك حسن بجناحيها لكنها كانت تتبعه كفراشته، تدور حول وجهه وشعره وتختفى وراء ظهره ثم تلامس صدره الدافئ فى مرح، فراشة خرجت توًا من ظلام الشرنقة ليُبهرها ضوؤه الأخّاذ.

دلفا إلى مقهى أرستقراطى يبدو أنه لاتينى من إضاءته الخافتة وموسيقاه الراقصة، طلب حساء البصل، تذوقته وكادت تتقيأ من مذاقة المُتعفّن، كانت محتارة من ذوقه المختلف، فأول مقهى يزورانه كان مقهى صباحى هادئ، نعته بعد ذلك بالبارد وفضّل أن يلتهما المثلجات على الرصيف، واليوم مزاجه لاتينى يميل للحُرّية والمجون، هكذا شعرت من نظراته الزائغة، إنه يقاوم رغبة أكيدة فى أن ينظر لها باشتهاء، احتارت أيضًا فى مشاعرها التى تُشع رغبة فى وجوده، رغم حواراتهما العادية كصديقين حميمين، لكن تحت الأرض الجامدة حمم تكاد تعصف بالقلبين، ملامحه كانت أوضح فى الضوء الخافت وقد بدأت ذقنه تنمو وتطول فأعطته مظهر ثائر لا يلوى على شيء، كانت هى قد غيرت فى مظهرها أيضًا فأصبحت لا ترتدى إلا البناطيل الجينز وتربط طرحتها للوراء

فيظهر وجهها كاملًا صريحًا، كان هو دائم التعليق على مظهرها، دائم الملاحظة لكل جديد فيها، وقد أخبرها أن البناطيل تجعلها أجمل والحذاء الرياضى يُضفى على مظهرها بساطة تُناسبه، ومن يومها لم ترتد سوى الأحذية الرياضية إلا فى المناسبات الرسمية.

- أنت مُختلّة.

قالها لها وفى صوته نبرة عشق، سألته وعيناها تنطق بمشاغبة:

- كيف؟

- نظراتك، طريقة حديثك، طريقة سيرك، تهوّرك ثم خوفك المفاجئ، كل ما فيك يقول إنك مُختلّة.

ابتسمت وهى تُبادله نظرات الوله بدون خجل، لقد رأى فيها ما فشل محمود أن يراه على مدى ثمانِ سنوات، هل كانت نظرته ثاقبة أم أنه أحبها بشفافية جعلته يراها كما هى، هل أحبها؟ سيطر السؤال على رأسها فلم تستطع أن تطرده هذه المرة، وكبرياؤها كان أكبر من أن تُحاول أن تعرف ولو من بعيد، كما أنها استعذبت شعور المراهقة بالخوف من الاعتراف والالتفاف حوله، فلتبقى صديقته إذن حتى يتسنى لها أن تُحدّثه وتخرج معه بدون حسابات الأحبّة، فهى متعبة من عبث الحب والغيرة والفراق، وتحلم بأن ترى سفينتها على أرض طيبة، آمنة، خالية من الوجع، هل يكون حسن هذه الأرض، يحتوى اختلالها كوطن سلام ويُدرّبها على التحليق أعلى وأعلى حتى تمس النجوم؟ حدثته عن رغبتها وأمنيتها فى العمل كمصممة أزياء، وأن هذا يتطلب منها السفر إلى الاسكندرية لأن الفرع الرئيسى لشركة الملابس التى تود العمل بها هناك، فاجأها بقوله:

- إذن سنُسافر سويًا.

ردت بتعجب وحزم، وكانت تتعجب من كل ما يقول:

- طبعًا لا!

باغتها بتأكيده ويقينه الذى يُرعبها:

– فليكن هذا فى شهر مايو حتى يكون الجو أفضل.

غيّرت الحديث حتى لا يلحظ توترها، وكانت أحاديثهما متصلة بشكل رقيق وعذب يُشبه حبات اللؤلؤ المعقودة، لم يذكرا شيئًا عن مكالمة منتصف الليل، كانا حريصين أن يبدوا صديقين فى بلاد لا تعترف بصداقة الرجل والمرأة، خطر لها أن تسأله عن حياته الخاصة، عن علاقاته، عن إذا كان متزوجًا أو مطلقًا أو أعزب، إلى متى ستظل تتظاهر بأن حياته لا تشغلها؟ لكن لسانها كان معقودًا عن هذا السؤال الذى يحمل وراءه الكثير من الاعترافات والظنون، حدثته قليلًا عن ابنها ثم سألته عن إذا كان أبًا، وفاجأها بأنه مطلّق وأب لطفلة فى عُمر ابنها، لم تُفاجأ من كونه مطلّق، فهى لم تر فيه يومًا الزوج الذى يتحدث بجدية عن الأسعار والمشاريع وتأمين المستقبل وحسابات الحاضر، لكن فاجأها كونه أبًا، بعد أن رأت فيه جموح الشباب وعنفوان الحُرّية، يبدو أن من حولها من رجال وأولهم محمود صدّروا لها فكرة أن الأب يجب أن يكون جادًا ناضجًا، مُحمّلًا بالهموم، مُقيّدًا بالطلبات، وحسن ليس كذلك، هو مجرد صعلوك حُرّ رائع، تصارحا بأن كلاهما متشابهان فى كونهما أبًا وأمًّا مراهقين، غير ناضجين، لا يحملان همّ المستقبل ولا يحسبان الحسابات، كلاهما روحه شابة حُرّة ومُختلّة.

طليقته هولندية، تعرّف عليها فى إحدى الحفلات العامة وبهره استقلالها واتقاد مشاعرها، لكنهما انفصلا عندما ضاق بقيد الزواج وإلحاحها عليه أن يعمل فى مصر أو يسافر معها إلى هولندا.

– كانت مُهرة .. لم تكن دجاجة.

هكذا قال ضاحكًا، اغتاظت عالية، خافت أن يكون هذا رأيه بها، سألته، أجابها أنه لا تستهويه الفتيات المُذعنات، الخاضعات، وأنه يُحب المرأة صاحبة الشخصية المستقلة القوية، استشعرت عالية أنها ليست من هذا الصنف الذى يُعجبه، فهى بالكاد بدأت تُحلّق عن قريب، ومن قبل كانت دجاجة أخرى ترقد باستسلام على أحلامها، خائفة من الطيران، استطرد قائلا:

– لكن برغم هذا أنا أسير ضعفك الرقيق وأعرف أن وراءه قوة، تلك العينان بهما طيبة ومشاغبة وتحد.

خطفتها كلمة «أسير»، كلماته تحوم حول الحب ولا تعترف به، لفت نظرها إعجابه بنقيض ما يُحب، وهذا ما حدث معها، فالمنطق يقول إنه رجل عاطل عن العمل، همجى، متواضع الذوق، مشاعره غير مستقرة، لا شيء فيه يُنبئ بحبيب مثالى، وهى أيضًا أم ساخطة على حياتها، مُكبّلة بألف قيد، لا شيء فيها يُغرى بالحب، لكن هذا الأحمق لا يختار ويُصوّب سهامه العمياء دون أن يستعلم ويرفع التقارير، لا يهمه سوى أن يتأكد أن السهم نفذ ولن يخرج إلا بجرح غائر.

– إنها المرة الأولى التى أراك فيها دون أن تنظرى كل دقيقة إلى الساعة.

– أنا مقيمة هذه الأيام عند أمى .. زوجى مسافر.

تغيرت ملامحه فى أقل من لحظة عندما ذكرت زوجها، وهمّ بالمغادرة وهو يسألها عن عنوان والدتها، كان يصطف سيارته قريبًا من المقهى، لأول مره تعرف أن لديه سيارة، فهو كان دائم التنقل بالمترو، علّل ذلك بأنه يُحب التنقل بحُرّية على قدمية التى تقوده إلى حيث لا يدرى، فهو رجل قدرى يترك قدميه للمسير، أما السيارة فلا يستخدمها إلا عندما يُرافق أحد أفراد أسرته، ركبت جواره السيارة وكانت مترددة ومتوترة، خطر لها أنها قد تُقابل أحد الأقارب أو الأصدقاء وهى برفقته فى السيارة، كانت مشغولة بالتعليل المناسب لو حدث ما تخشى، لاحظت رائحة السيارة العطنة من دخان السجائر، والرماد المنتشر فى كل مكان، كما لاحظت السبح الكثيرة غير المتناسقة المُعلقة عند مرآة السيارة، طلب منها أن تختار أسطوانة لتُشغلها، وكان يحاول برقّة أن يُخرجها من دائرة التوتر، وجدت أسطوانات عديدة ومتنوعة ما بين القرآن الكريم وموسيقى الروك وأم كلثوم، كان التنوع يناسب شخصيته الهمجية تمامًا.

– لا أريد أن أسمع أى شيء.

هكذا قررت بعد حيرة قصيرة، شغّل هو أسطوانة لموسيقى جنائزية وكان

منفعلًا معها بشكل غريب، يلوح بذراعه، يتوعد بإصبعه ويُغمض عينيه لثوانٍ محسوبة، شعرت بتمكّنُه من الطُرُق والقيادة، أعطاها علكة فى محاولة أخيرة لطرد التوتر، وقد نجح بالفعل عندما غنى بصوت عال فجأة أغنية شعبية فضحكت حتى دمعت عيناها، عندما اقتربا من منزلها صمتا، كانا فى انتظار لحظة الفراق الكريهة، فكل لقاء لهما كان يحمل احتمالية أن يكون الأخير، أخبرها أنه كان سعيدًا بهذه الليلة، وجدت نفسها تطلب منه برغبة حقيقية أن يُعلّمها القيادة، كانت حجة رائعة لكلاهما حتى يتقابلا بسبب، دون الحاجة لحضور الندوات الطويلة المزدحمة، عندما وقف بالسيارة غطى كفها الصغير بكفه الأسمر الكبير ودعكه برفق، ثم رفعه فى حركة مباغتة إلى شفتيه ليطبع عليه أرق قبلة فى الوجود، كادت يُغشى عليها من نشوة وغرابة ما حدث، سحبت يدها وقد لفهما صمت عميق يحمل آيات عشق على شفا الانفجار، اعتذر لها وغادرت دون كلمة، ظلت صامتة لمدّة طويلة، مسحت كفها بشفتيها كثيرًا عندما انفردت بنفسها فى غرفتها.

ونسيت محمود .. والقسوة .. والخيانة .. والفراق.

الأيام تمرّ وهو كما هو صامت مثل هاتفها، الساعة تعدت منتصف الليل ولم يأت بعد، أرسلت له رسالة أخرى ثم راجعت الرسائل الثلاثين السابقة، منها القصير (لماذا لا نتحدث؟)، (أنا لا أفهم سبب صمتك)، (أنا تعيسه جدًا، أرجوك تكلم)، (أسفة إذا كنت أغضبتك فى شيء لم أدركه)، (تعال)، (الوقت تأخر أرجو أن تكون بخير)، (أوحشتني) .. ومنها الرسائل الطويلة التى تحمل العتاب الرقيق أو التقريع اللاذع، رسائل تحمل الخوف والحزن والحب، ولا رد وصلها منه للثلاثين رسالة التى بدأت فى إرسالهن من أسبوع مضى، ولم تكن تنتظر الرد، كانت تنتظر فقط أن يأتى ويُكلمها كأن شيئًا لم يكن، أو أن يؤنبها ويعاتبها ويتشاجر معها، فالعتاب والمشاجرة خير عندها من الخصام، فالعتاب للأحبة أما الاهمال فهو للغرباء، يؤلمها أنه خصام بدون سبب، فجأة أصبح يتجنبها ولاُ يلقى عليها حتى تحية الصباح، صارت هى كالمجنونة تبكى وُتحدّثه دون أن يرد

عليها، تنهار وتشكى حالها لطفلها الصغير الذى لم يتعد عمره العامين، ولأثاث البيت وللشباك الذى تقف فيه حتى تلمح سيارته، دون جدوى.

بدأ خصامه عند مساء ذلك اليوم الذى أبلغته فيه وهى تهلل أنها كسبت فى مسابقة مجلة فاشون تودای التى أخبرتها عنها مروة صديقتها، وشجعتها للاشتراك بها لما تراه فى عالية من موهبة تّميزها فى تصميم الثياب ورسمها المتقن للموديلات، انتبهت لهذه الموهبة أول مرة عندما لجأت إليها لتساعدها فى انتقاء موديل فستان سهرة، ففوجئت بها ترسم لها عدة موديلات بمهارة وخفة فنانة مدّربة، وبالفعل فصّلت إحدى التصاميم التى طرحتها عليها عالية وأبهرت الناس يومها من أناقتها، عالية لم تكن تصمم ثوبا فحسب، كانت تتواصل مع الروح التى سترتدى القماش وكيف سيكون مناسبًا لشخصيتها، كانت تأخذ فى الحسبان ليس فقط مقاييس الجسد، لكن مواطن الجمال والقبح، فكانت تعرف أن مروة لها لون خمرى وملامح قاسية تناسبها أكثر الأقمشة الداكنة اللون اللامعة، حتى تظهر بريق بشرتها وتخفى قساوتها، تعرف أن خطوتها واسعة فكان لابد من فستان بذيل واسع من عدة طبقات حتى تسير فيه كملكة ولا تترنح.

هكذا استخدمت موهبتها فى المسابقة، فراحت تصمم ثيابًا رياضية مريحة وجذابة، وملابس داخلية مثيرة حتى وهى ملقاه على الرف، وبذلة عمل أنيقة طعّمتها بوردة أرجوانية لتكسر حدة الوقار، وفساتين سهرة ملفتة للأنظار لفكرتها وتداخل الأقمشة فيها، لم تعتمد على الأقمشة الغالية والمظاهر المُتكلفة، كل تصاميمها تعتمد على أفكار جديدة، كانت أمتع أيام حياتها وهى ترسم وُتصمم كأنها تعزف لحنًا جميلًا أو تكتب سطور قصة مشوقة، وكان محمود سعيدًا لسعادتها ولو أنه لم يتدخل برأيه أو يبدى إعجابه بما تصنع، كان فقط ينعم عليها برضاه ومباركته وهذا كان كافيًا لها حتى تستمر فى المسابقة، لم تتوقع أن يكون هذا ردّ فعله عندما أبلغته بنتيجة المسابقة وبأن شركة الملابس تطلب منها العمل معهم، كانت هذه فرصة عمرها والحلم الذى تحقق قبل أن تكتمل تفاصيله فى خيالها،

توقعت أنه سيطير بها فرحًا، فهى لم تخيب أمله هذه المرة ولم تفشل كما يتهمها دائمًا، توقعت أنه سيوافق على العمل خاصة وأنه لا يستدعى ذهابها للشركة إلا عند الضرورة، الحاجز الوحيد لهذا الحلم حتى يتحقق كان شرط الشركة بأن تتلقى دورة تدريبية مدتها شهرين فى الفرع الرئيسى بالإسكندرية، كانت تنتظر أن تخبره حتى يشاركها التفكير ويقترح عليها الحلول.

لكن ما حدث هو أنه قال لها (مبروك) باردة وغادر الغُرفة، لم تسمع صوته من وقتها إلا وهو يتحدث فى الهاتف مع آخرين، لم تفهم ما أغضبه، هل غضب لأنها ستضطر للسفر للإسكندرية ثلاث مرات فى الأسبوع لمُدة شهرين، أم لأنها ستعمل؟ أخبرته كثيرًا خلال صمته أن العمل من البيت وأنها سترسله لهم عبر الإنترنت، أخبرته أنها حتى تحضر تدريب الإسكندرية بإمكانها أن تترك الصغير عند والدتها وُتسافر بالقطار وتعود فى نفس اليوم، أخبرته الكثير من الأفكار حتى ملت من صمته، من فرط حزنها ووحدتها تجنبت الحديث معه عن المسابقة والعمل، وراحت تحدّثه فى أمور البيت والصغير. كانت تعيسة، لا أحد يشاركها التفكير ولا حتى الحزن، فهى إنسانة كتومة ليست من صنف النساء اللاتى يشكين حالهن للقريب والغريب، تحتفظ بهمومها فى قلبها مؤمنة بأن أحدًا لن يفهمها، نسيت مع خصامه فرحتها بالفوز وطموحها للعمل، ولم تعد تفكر إلا كيف تُخرجه من صمته حتى تعود حياتهما لمجراها، حتى لو كان الثمن اعتبار ما حدث فى الشهور الأخيرة وكأنه لم يكن.

عاد فى الثانية صباحًا وكانت فى انتظارة، جلست بدلال جواره وهى تداعب شعره، سألته مرة أخرى (ماذا بك؟). هذه المرة لم يبد اشمئزازه منها ويتململ حتى تنهض من جواره كعادته، أخبرها أنها ليست زوجة أو حتى امرأة، وأنه يائس منها ومما تضعه عليه من أعباء دون أدنى مشاركة، أخبرها أنها سبب كل أموره السيئة فى الحياة، وأنها مجرد دمية من زجاج تريد أن يهتم بها الجميع، دون أن تهتم هى بأحد، قال الكثير وكانت أعجز من أن ترد على اتهاماته، فقد كانت

مصدومة من اختلاقه لكل هذه الحجج، تشويهه التام لها كامرأة، عدم شعوره بالشوق الذى كان يعتلج بصدرها، وعدم رؤيته لها بعيون حبيب إنما بعيون رجل قاس، كان بإمكانه اختصار كل هذا الخصام وهذه الاتهامات بأن يخبرها دون موارية أنه لا يريدها أن تعمل ولا حتى من البيت، يريدها كما هى دمية من زجاج فى البيت يحركها هو كيف يشاء، جلست على كرسى بعيد ودون أن تنظر إليه، قالت بوهن (سأحاول أن أكون كما تريد)، استمر فى ترديد أن لا أمل منها وأنها مجرد تافهة تبعث الرسائل المزعجة، دخلت غرفتها فى هدوء ونامت كما لم تنم طوال الأسبوع .. نومًا عميقًا بلا أحلام.

❋❋❋

obeikandl.com

(١٥)

فى شارع هادئ من شوارع الدقى خلف المدرسة الألمانية تحديدًا جلست أمام عجلة القيادة وهو جوارها، تقود بتهور لا يُناسب طبيعتها الهادئة، وهو كعادته لا يكترث ولا ينفعل ويصرخ مع كل خطأ منها، بعد لقاءهما الأخير لم ترُد على اتصالاته لمدة يومين، ثم تناست وبادرت هى بالاتصال به وتحديد موعد معه ليُعلمها القيادة وكأن شيئًا لم يكن، هو أيضًا ردّ عليها بتململ صديق قديم وليس بلهفة حبيب، وهذا زادها اطمئنانًا فهى لا تُريده حبيبًا هائمًا، تريده صديقًا وفقط، عندما كانت تواجه نفسها بتلك الفرحة المرتبطة بوجوده أو سماع صوته، وبجرأته التى تتحملها دون إبدًاء أى اعتراض، بل على العكس تتقبلها بمنتهى الرضا، كانت توقن أنه أكثر من مجرد صديق، لكنها مازالت تُنكر وتظُنّ أنها تستطيع أن تُخضع العلاقة لإرادتها، هو صديق إذن هكذا فكرت .. وليحترق هذا الضمير، فماذا أخذت منه إلا البؤس والتعاسة؟

تعجّبت أنه برغم جرأته، إلا أنه لم يقترب أو يمسّها ولو خطأ وهو يُعلّمها القيادة، تكررت الحصص فى أماكن مختلفة كلها قريبة من وسط البلد، وهو كما هو مجرد صديق، كأنه ليس الذى عرفته فى الشهور السابقة، حتى إنها قلقت وأرهقتها هواجس أنّه قرر لهما الصداقة فحسب، وأنها هى من اخترعت موضوع تعليم القيادة حتى تراه دون تأنيب ضمير، وأنها هى من تتصل به معظم الأوقات لتُحدد موعد الحصّة، فبدأت تفتعل المواقف لتلمسه بعفوية، أو تقترب منه كأنها لا تقصد، دون جدوى، هل كانت قُبلته التى مازالت مطبوعة

على ظهر كفّها مجرد تصرف حميمى يفعله مع كل صديقاته، أرهقتها التساؤلات وعادت بها إلى زمن المراهقة التى ظنت أنها مرّت منها بسلام، كانت تُفكر فيه أكثر من نفسها حتى إنه لا تمر دقيقة دون أن تذكر ماذا قال وماذا فعل وكيف كان سيتصرف، كل طعام تطهوه تُفكر فى إن كان سيُعجبه، وكل ثياب ترتديها تُفكّر فى رأيه فيها، كانت تنام وتصحو على التفكير فيه، حتى قررت أن تُبادر هى بخطوة أخرى.

فى هذا اليوم كان قد قرر لها أن تقود السيارة فى الشوارع المُكتظّة بالسيارات حتى تبدأ فى الاحتكاك وتتعلم قواعد القيادة البوهيمية، قادت سيارته فى منطقة المهندسين واتجهت حسب أوامره إلى المحور ومن ثم إلى طريق مدينة السادس من أكتوبر، كانت حذرة وقادت أفضل مما تخيل، حتى وصلا إلى مطعم شامى دعاها فيه لتناول الغداء، هناك أخبرته لأول مرة أنها وزوجها منفصلان لكن بشكل غير رسمى، كانت حريصة على ألا يعرف أنها مطلّقة حتى لا يظُنّها تسعى إلى الزواج منه، وحتى يتسنى لها أن تتأكد من طبيعة علاقتهما وما ستتطوّر إليه، لم يندهش وبدا كأنه كان يعرف، بل ويعرف عن الطلاق أيضًا، لم يسألها عن أى تفاصيل إلا ما كان يأخذهما إليه الحوار، وراح يقُصّ عليها بعض حكاياته مع حبيبات سابقات، وأنه شديد السأم وهذا سبب عدم قدرته على الاستمرار مع أى منهن، ولسبب آخر همس لها به، لأنه لم يُحب إحداهن حبًا حقيقيًا، حكى لها عن سقطاته ونجاحاته وإخفاقاته، كان معتزًا بنفسه لأقصى حد واثقًا فيما يملك، كانت كل مرة تسمعه تُسند ذقنها على يديها المتشابكتين وتسرح فى وجهه وكلماته كأنها فى عالم آخر لا يوجد به أرض.

كان يُغنى بصوته المُميز الكسول بين حوارتهما، أغانى لم تسمعها من قبل، أحيانًا شعبية وكثيرًا مواويل غير معروفة، فى مرات قليلة ضبطته يقول آية قرآنية بتجويد صحيح ونبرة مختلفة عن أى قراءة سمعتها، كانت تضحك من همجيته وتتعلم كل دقيقة وهى معه أشياء جديدة، يُعجبها أنه لم تكن له طقوس،

كل مرة فى مكان مختلف ويطلب طعامًا مختلفًا، ومظهره نفسه يختلف، فتارة هو شاب جامعى يرتدى الجينز والتى شيرت، وتارة هو موظف حكومى يرتدى البنطال القماش والقميص الواسع ويحمل جريدة، أحيانًا يكون عصرى المظهر بغطاء رأس وكوفية، وأحيانًا ثائر جيفارى بشعره الطويل وذقنه الطويلة ومنظره غير المهندم، وكانت تعشق كل شخوصه، ما كان يُقلقها أن يأتى يوم ويسأم من صداقتها المزعومة، وكانت تُعزى نفسها بأنها ستستمر فى الاتصال به ولو على مسافات طويلة، لكنها أبدًا لن تكون خارج حياته، شاء أم أبى.

حديثه عندما يذهب إلى الوطن تتغير ملامحه لتُصبح الغضب نفسه، تحمرّ عيناه، يعلو صدره ويهبط فى حماس شديد، بدأت معه السياسة لعبتها منذ أن كان طالبًا بالجامعة، وكان زملاؤه من أرباب أُسرة النور الاسلامية يشجعونه للانضمام إليهم، خاصة بعد أن خطب فى إحدى الوقفات التضامنية مع فلسطين وكانت معلوماته غزيرة وحديثه جذابًا، كانت فكرته عن الأسُر السلامية أنها تُمارس دورًا خدميًا للطلاب، فانضم لهم للتعرف على المزيد من الأصدقاء ولاستغلال موهبته فى الخطابة والإلقاء فى اجتماعات الأُسرة مع الطلاب، وحتى تزداد ثقافته ومعرفته، فكان هذا شغله الشاغل منذ صغره، المعرفة وإلقاء نفسه فى التجارب مهما كانت النتائج.

كانت نتيجة انضمامة لأسرة النور أسوأ مما توقع، فقد كشفت له عن أن الأمر أعمق من كونه دورًا خدميًا، كان مُلزما بحضور اجتماعات سريّة يحدثونهم فيها كأنهم غير البشر، كانوا يُقدّسون أنفسهم ويُعدونها لشيء أخطر من خدمة الطلبة، طلبوا منه أن يُصلى فُروضه فى جامع الكُلية مع جماعتهم، ولم يعترض رغم ضيقه من أن تكون الصلاة بأمر بشرى وليس إلهى، وطلبوا منه أن يتحدث بعد الصلاة إلى زملائه ويدعوهم للانضمام إلى أسرتهم، ضاق بهذا الأمر فلم يكن يُجيد الاقناع أو التحريض، هو فقط يقول وجهة نظره أو يوضح الأمور دون تحيز، ثم طلبوا منه أن يُطيل ذقنه، فرفض رغم أنه يُطيلها أحيانًا، وكانت

القشة التى قصمت ظهر البعير عندما أمروه أن يذهب معهم فى رحلات بعيدة خارج القاهرة، وذهب ليستكشف الأمور فوجدهم يُمارسون الرياضات القتالية، ويسبّون بأقذع الشتائم من كانوا يبتسمون فى وجههم طوال الوقت، وجدهم يُخططون لكسب انتخابات الكُلية بأى طريقة، ويتّفقون على جذب الطلبة المغتربين والخاملين واستغلال حُسن النية عندهم ورغبتهم لخدمة المجتمع حتى يُسخّروهم للسيطرة على الكيانات الصغيرة فى المجتمع، ومن ثم يُعدّوهم لأدوار أكبر.

فى الرحلة قابل إحدى الشخصيات العامة المعروفة بكونه أحد أفراد جماعة إسلامية تعمل بالسياسة، وكان رجلًا فاضلًا دمث الخُلُق معروفا بسخائه وكرمه، اجتمع بهم وحدّثهم عن أهمية كسب انتخابات الكُلية حتى إن اضطروا للتصالح والاتفاق مع أسرة الكرنك العلمانية كما سمّوها حتى يُكوّنوا قوة أمام أسرة الجوالة التى تجذب الطلبة بإقامة الحفلات والرحلات المختلطة سيئة الخُلق، كما طلب منهم تسريب الملازم الخاصة بالدروس وتوزيعها أو بيعها حسبما اتفق على الطلبة، كانت غايتهم تُبرر أى وسيلة، عندما عاد إلى القاهرة قرر انسحابه وبلغّ صديقًا له بالأمر، كانت النتيجة المزيد من الضغط عليه حتى جعلوه يكره الذهاب إلى الكليّة أو دخول المسجد، ومن وقتها توقف عن الصلاة حتى لا يُصادفهم وحتى يُثبت لهم أنه ليس إلا تارك صلاة لا يصلح أن يكون فردًا فى أسرتهم، بصعوبة تركوه بعد العديد من الوسائط والحوارات معه، وكان انتهاء السنة بمثابة عيد له لأنه لن يرى وجوههم لمدة شهور، عند عودته فى السنة التالية انتظرته مفاجأة أُخرى.

كان ذلك عندما أتاه اتصال على هاتف المنزل، من رجل يُعرّف نفسه بأنه من أمن الدولة، طلب رؤيته فى أحد الأماكن العامة، وحتى يُطمئنه أخبره أنه يعرف عنه الكثير وأنه سعيد أنه ترك أُسرة النور من نفسه وأنه مُعجب بخطاباته الحماسية والتفاف الطلبة حوله، كانت نبرته تُنبّئ أنه عقيد، تأكد حسن من

حدسه عندما ذهب لمقابلته واطّلع على بطاقته الشخصية، بعد حوارات عامة وترقب شديد من جهة حسن، طلب العقيد منه أن يتحرّى عن زملائه ويا حبذا لو عاد لأسرة النور وبلّغه بكل ما يدور بينهم فى اجتماعاتهم ورحلاتهم، ومن قابلوا وعلى ماذا اتفقوا إلى آخره، ونظير خدماته الجليلة للوطن سيكون عليهم حمايته ومساعدته على اجتياز سنوات دراسته بتفوق وربما مساعدته فى التعيين أيضًا، كما حدّثه عن الدور الوطنى الذى سيلعبه وهو يجمع معلومات عمن يُخططون لإيذاء الوطن وهزّ استقراره ومن كان تاريخهم مُلطّخًا بالدم ويتوارون خلف وجوههم الطيبة السمحة البشوشة.

كان الأمر بديهيًا ومحسومًا بالنسبة له، ولم يطلب الوقت إلا ليُنقذ نفسه من المواجهة السريعة، فهو برغم عدم ارتياحه لأُسرة النور لكنه لم ير منهم مؤامرات تُحاك ضد الوطن، أو خطرًا على الأبرياء، كان لهم دور خدمى حقيقى غير أنهم يميلون للسيطرة الكاملة وفرض قناعاتهم، لكن كل هذا بالنسبة له لا يستدعى التجسس والوشاية، ثم إنه ليس هذا الرجل الذى يشى بزملائه مهما كان، يعرف أن الضابط لن ينقل المعلومات فحسب بل إنه سيزيد عليها حتى يجد ما يُدين به الشباب ويُمكّنه من اعتقالهم، فلطالما سمع عن اعتقالات فى الفريقين، فريق الاسلاميين وفريق الشيوعيين الثائرين، وهو غير محسوب على أىٍّ منهما، لذلك حزم أمره وعندما اتصل به الضابط أبلغه برفضه للقيام بهذا الدور، بعد عدة أيام وجد سيارة تنتظره عند بيته وبها أمين شرطة أمره بالركوب، عندما أصبح الطريق خاليًا عصبوا عينيه حتى وصلوا إلى حيث لا يعرف، هناك لاقى من الضرب والإهانة ما لم يُلاقِه فى حياته، ثم عاد معصوب العينين كما أتى، لكنه ما زال يذكر صوت الضابط وهو يعتذر له وأن إيذاءه تمّ عن طريق الخطأ، ثم همس فى أذنه وهو يُغادر: «لا تجعلنى آتى بك هنا مرة أخرى»، فهم أنه يجب أن يصمُت للأبد وينسى ما حدث.

- هذا ما جعلنى أُشارك فى حرق مقرّ الحزب الوطنى بيدى.

نظرته الثائرة كانت أكثر سحرًا من أى وقت مضى، تمنت أن تُقبل وجهه وكل مكان ضُرب فيه لعل قُبلاتها وحنانها يمحيا الألم من ذاكرته، قال لها وقد حاول أن يكون أكثر مرحًا:

- هذا الكلام جد خطير .. لا أعرف لماذا قُلتُه لطفلة.

ضحكا وهى مازالت مُشبكة يديها، فأكمل:

- من تجلس هكذا إلا طفلة.

- هذا كان يُضايق محمود .. الطفلة داخلى.

ظهر على وجهه العبوس مرة أخرى، تذكرت أنه يكره أن تأتى باسمه أمامه، استطردت:

- وهل يُحب الرجال أن تكون المرأة دائمة الطفولة كما قال نزار قبانى؟

- صراحة أنا لا أُحب نزار قبانى .. هو شاعر عظيم لكن لا يروقنى، أشعر أنه يكتُب ليُرضى النساء.

- وهذا ما نُحبه فيه.

- حسنًا، لنعد للطفلة داخلك، أنا لم أصادف من قبل امرأة طفلتها مُتجلّية مثلك، وكنت أظن أن هذه الصفة ستجعل من المرأة حمقاء .. لكن عندما رأيتها فيك أدركت أنها تجعلها مثيرة.

ضحكت بصوتٍ عالٍ ووجه أحمر خجول وقد شعرت بصدرها ينتفض ويبرز وجسدها يئن، فلملمت نفسها وانكمشت حتى لا يصله شعورها، فعاد ليقول:

- أزعجتُك بحكاياتى؟

- أُحبّ كل ما تقول.

- وأنا أُحب نظرة عينيك وأنا أتحدث.

فى طريق العودة كانا صامتين، مُتعبين، وفى أقل من ثانية كانت شفتيه فوق شفتيها،

التقط شفتها السُفلى الممتلئة وضغط عليها بأسنانه، ثم التقط الشفاه الرقيقة العُلية وامتصّها، كل هذا فى ثوان معدودة لم تسمح لها حتى بأن تفقد السيطرة على عجلة القيادة، قُبلتها الأولى معه التى كانت تحلم بها وتنتظرها وتتخيلها فى أماكن وبطرق عدة، لكنها أبدًا لم تتخيل أنها ستكون فى السيارة وعلى عجل كأنهما يسرقان، كل ما بينهما كان مسروقًا وعلى عجلة، لم يطمئنا أو يهدآ أبدًا، لم تتخيل أنها ستذوب بين شفتيه إلى هذه الدرجة حتى خُيّل إليها أن الكون توقف فى جلال والليل اشتدّ ظلامه حتى لا يراهما أحد، شعرت أنها لا تُريده أن ينتهى أبدًا، نظرت له بعتاب رقيق، لم يقُل سوى كلمة واحدة وهو يتنفس بعُمق (عذبة)، مسح شفتيه بلسانه وكأنه يستطعم بقايا كريمة على فمه، ثم أعلن بإيمان عميق (إنها أجمل قُبلة فى حياتي). لا تذكر إلى متى ظلّت مبتسمة، ربما يومين أو ثلاثة، لكنها تذكر جيدًا أن صوته وعينيه فى هذه اللحظة قالا الكثير مما يعجز أى إنسان عن قوله.

***

(١٦)

عندما عادت فى هذا اليوم لمنزل أبيها زائغة البصر، صامتة ومُغيّبة، تبتسم للاشيء كأنها ثملة، انتاب أُمها القلق، كانت قلقة منذ ذلك اليوم الذى اتصل بها حفيدها وأخبرها أن أمه تحبس نفسها فى غرفتها ولا ترُد، وعندما وجدت عالية بهذا الشحوب والذهول فضّلت أن تتركها قليلًا حتى تُفرغ كل أحزانها ثم صممت على أن يأتيا هى والصغير ليسكنا معها إلى أن يعود محمود من سفره، لّما رأت عالية تتحسن صحتها ويروق بالها حتى إنها عادت لتُغنّى عند الصباح وتُدندن طوال اليوم، وعادت لتلعب مع كريم وتنثُر حبها على الجميع، فرحت، لكن عدم اتصال محمود كان يؤرّقها، فهى تعلم أنه حريص على ألا تتحرك عالية خطوة فى الحياة بدون علمه، ثم بدأت تُراقب انفعالات ابنتها التى تتأرجح بين نوبات الضيق الشديد والفرح الشديد، كانت تدخل غرفتها باكية وتخرج منها بوجه مُزغرد، وأحيانًا العكس، حتى احتارت فى أمرها، لكن اليوم هى تبدو فى حالة من النشوة، نشوة حب جديد، لم تمنعها أعوامها الثمانية والخمسون من أن تُشخّص أعراض هذا المرض جيدًا.

دخلت غُرفتها فوجدتها قد خلعت بعض ملابسها ووقفت سارحة فى الأرض تتأمل نقشة السجادة كأنها تُفكّر فى رسمها، لم تكن هنا لدرجة أنها لم تشعر بدخول أُمها، التى سألتها بحزم عن هذا الذى بدّل حالها وسرق عقلها، نفت عالية بكل الطرق، وضيّقت عليها أُمها بكل الطرق، حتى اضطرت أن تخبرها أنها تُفكّر فى العمل وأنها بصدد مراسلة شركة الملابس التى كانت توّد العمل معها قبل أعوام،

كانت أمها تعرف أن هذا ضد رغبة محمود، ومع ذلك شجعتها بشدّة لأنها تعلم مدى رغبة ابنتها فى هذا العمل، وكيف أنه يناسبها تمامًا، ولسبب آخر شجّعت عالية على العمل، لأنها هى من أحبطت محاولتها الأولى عندما أرادت عالية أن تلتحق بكُليّة الفنون الجميلة، ورفضت هى بل وأصّرت أنها يجب أن تلتحق بكُليّة التجارة قسم اللغة الإنجليزية، ورفضت أيضًا محاولات عالية المُستمرة أن تلتحق بدورات صيفية فى كُليّة الفنون أو وكالات التصميم المختلفة، اعتبرت الرسم والتصميم عبثًا وهواية غير مجدية، كانت أول من حاول إطفاء جمرة الأحلام المُتّقدة فى قلب عالية، لذلك أرادت أن تُكفّر عن ذنبها.

وبالفعل راسلت عالية الشركة وهى تتنفس السعادة والحُرّية بعمق، لولا بعض الذكريات التى تمر بها فتُنغّص سعادتها، مثل ساعة العصارى التى اعتادت أن تشرب فيها الشاى مع محمود، ملامحه التى تتغير وهو يقرأ الجريدة أمامها، صوت أنفاسه العالية وهو نائم بجوارها، تتمزق ألمًا عندما يسألها كريم عن أبيه وموعد عودته، ويكتب له خطابات تقطر شوقًا وحبًا يُزينها بمُلصاقات كارتونه المُفضّل، كانت تحتفظ بالرسائل وتُخبره أنها أرسلتهم، ثم ترد عليه برسائل تحاول أن تقلد فيها روح أبيه، يؤلمها الوضع برُمّته، محمود هرب، لأول مرة لا يواجه، تركها والصغير دون أدنى إحساس بالمسؤولية، رحيله وتخلّيه يُشعرانها أنها فى كابوس، ووجود حسن يُشعرها أنها فى حلم، وحياتها خليط من الأحلام والكوابيس، أحيانًا تتخيل أن الزمن عاد بها، من كانت ستختار لتمنحه حبها؟ كان الأمر سيبدو أشبه بقطف أوراق زهرة، م .. ح .. م .. ح، وربما ينتهى الأمر بألا تتزوج أيًا منهما، وذبحه للمشاعر الملتهبة وتقديسه للاعتياد لم يقدملها محمود إلا وطنًا من الاستقرار والأمان، شعرت بالغربة عندما تركها لكنها لم تمت، بل تركت جناحيها للريح ورست على شاطئ حسن تطير، تهبط، تنام، تُغنّى، تحيا بمُنتهى الحُرّية، لكن حسن لم يمنحها بطاقة الوطن بعد .. تلك التى أظهرها محمود بمجرد أن عرفها.

فى تجمع عائلى جلست بين أقاربها كتمثال، كانوا جميعًا يتحدثون، يتندرون على مواقف قديمة ويُثرثرون على مواقف راهنة، وهى تبذل مجهودًا كبيرًا حتى تُتابع وتبتسم، حتى شعرت أن وجودهم يُطبق على صدرها ويمنعها من التنفس، يُشعرها كم هى غبية لأنها ألغت موعدها مع حسن، دخلت غرفتها، أغلقت الباب جيدًا واتصلت به، كانت توشوشه فراح يضحك عليها ويُقلد صوتها المنخفض كمراهقة، طرقت أمها الباب وطلبت منها أن تأتى لتُساعدها فى شيء ما، شعرت أنها تتصنت عليها بسبب قلقها المُستمر وشكّها فى انزلاقها لقصة حب، فنزلت تحت السرير وخفضت صوتها أكثر وهى تُحدّثه:

- المنزل ممتلئ عن آخره .. أشعر أنى لا أستطيع التنفس.
- حسنًا، أنتِ بحاجه لتنفُس صناعى.

ضحكت بصوت مكتوم أثاره أكثر، ثم عادت لتقول:

- أردت فقط أن أُكلمك رغم الجمع.
- أردت أن تقولى أنك معى رغم كل من حولك.

صمتت برهة، وكان الصمت بينهما حارقًا ويُغنى عن الكثير من الكلام، قال لها يومًا أن صمتها له معنى عميق لكنه لم يُخبرها ما المعنى، كسرت الصمت بمحاولتها للهروب:

- أنا مُضطرة أن أُغلق الخط .. ماما تُنادينى.
- أتعرفين أنّى أسمع صوت أنفاسك؟
- لم يُقل لى أحد من قبل أن أنفاسى لها صوت.
- لكنى أسمعه من أول يوم تحدثنا فيه .. وأعشقه.

إنه الوحيد الذى سمع صوت هواء صدرها وهو يُناديه، لأنه الوحيد الذى يُثير فيها هذا النهجان عندما تُحدّثه.

- أُحبّك!

- ماذا قُلت؟
- قُلت أُحبّك يا عالية.

أغلقت الخط دون أن ترُد على اعترافه الأول، رمت نفسها على السرير والهاتف ملتصق بيدها، إنها المرة الأولى التى تسمع فيها هذه الكلمة، كل هذه السنوات التى عاشتها والمرات التى سمعتها لم تكن هى، إنها تسمعها لأول مرة فى حياتها، وكل شيء بينهما كان الأول. كانت دائمًا تظنّها كلمة كاذبة، آمنت بالحب ولم تؤمن بالكلمة، أربعة أحرف لا تعنى الكثير، المهم التصرفات التى تقول (أُحبك)، كانت فى شبابها المُبكّر لا تُصدقها ولا تدغدغ إحساسها أو تُصيبها بالخدر، لم تجعلها يومًا تُفكّر وتسهر وتذوب، فهى مجرد كلمة، هذه كانت قناعتها قبل أن تسمعها اليوم وتُدرك أنها باب آخر كبير من السعادة لم تكن تعرفه، هذا الغريب الذى احتلّ كل كيانها، لم تحاول أن تجعله يقولها، بل ولم تشعر برغبة فى أن تسمعها منه، كانت تتبع مشاعرها فحسب، ولكنه عندما نطق بها ببساطة وبدون جُهد أو حسابات شعرت أنها أصبحت حبيبة لأول مرة، وأن العالم بأسره يقولها لها، كانت كلمة كطلقة رصاص، اخترقت جدًار القلب وبقيت داخله تمنحه البهجة والحنان وتُفجّر به المزيد من نوبات الجنون.

❋❋❋

(١٧)

صوته المرتعش وتردده وهو يُحدد موعد لقائهما هذه المرة أربكاها، رغم أن فرح لا يُربكها شيء لكنها شعرت من صوت هيثم أن الحدث جلل، وبنظرتها الداخلية المتشائمة التى تخفيها عن الجميع بضحكة ومرح زائف وأحيانًا حقيقي؛ أدركت أن النهاية باتت وشيكة، ارتدت أبهى ثيابها وتعمدت أن تذهب متأخّرة بكامل كبريائها، وجدته قلقًا يفرك أصابعه وقد رحلت عنه ابتسامته الطفولية، طلبت قهوتها ولم يطلب هو شيئًا، بدأت تشُمّ فى جُمله القصيرة وصوته الخفيض رائحة الفُراق، بنفاد صبر سألته أن يُلقى ما فى جُعبته، فبدأ يحكى لها كيف أنه فاتح والدته فى موضوع زواجهما، وأنها أبدت تحفّظها. سألته باستهتار (لم؟) وأجابها بصوت بدأ يتلاشى من فرط الرهبة:

- لها بعض الاعتراضات.

- عُمرى مثلًا؟

- لا لا، هى لم تُعلق على السن.

- إذن؟

- الموضوع هو أنكِ تعيشين وحدك .

ابتسمت نصف ابتسامة على جانب واحد من شفتيها وهى ترمُقه بنظرة احتقار دون أن تنطق، فعاد ليُكمل:

- لكن أنا لا يعنينى مثل هذه الأمور .. أنا أعرفك وأريدك أنت.

- ثُمّ؟

- ثُمّ إنى قررت ألا أُذعن لرغبة أُمى .. فلنتزوج، لسنا صغارًا.

صمتت بُرهة وهى ترقب عينيه المترددتين وكفه البارد المبُتل عرقا الذى حاول عبثا أن يحاوط كفها، استجمعت كل قسوتها وكل الأحجار المتراكمة فى قلبها وبدت كأنها ستقول خُطبة، أو هى بالفعل كانت خُطبة:

- اسمع يا هيثم .. أنا لست طالبة أو فتاة صغيرة حديثة التخرج .. وقد مرّ بى الكثير، الكثير من المحن والكثير من الرجال، ليس كما سيصوره لك خيالك أنت وأهلك عن امرأة تعيش وحيدة، فكل رجل عرفته تقرّب منى بغرض الحب والزواج، وأغلبهم لم أسمح لهم بأكثر من شرف معرفتى من بعيد، أمّا من قبلت أن أبحث فيهم عن حبيب حقيقى ولم أجد، علمونى العديد من الأشياء، كان بينهم من هو مثلك، لن أقول ابن أُمه، ولا أُخفيك سرًا فالعديد من الرجال المفتولى العضلات من هذا النوع، لكن أنت رجل متردد، تُريد أن تستمتع معى وبى، كمغامرة، والحقيقة يا عزيزى أنى لست على استعداد لمزيد من المجازفة بمشاعرى، لو طاوعتك وتزوجتك ستنتهى المغامرة سريعًا ويعود الولد المطيع نادمًا لأمه بعد أن وصله كل شيء زائد مصاريف الشحن، لذلك من الأفضل أن تبحث من الآن عن مباركة والدتك حتى توفّر على نفسك وعلى هذه التمثيلية السخيفة المكررة، والمرة الثانية عندما تُقرر أن تُحب فتاة عليك أن تتأكد أنها تُناسبك لتعيش معها العُمر كله .. أتفهم العُمر كله؟ اقتربت منه وبدلال أكملت:

- بصراحة أنا كنت دائمًا أراك طفلًا وكنت مثيرًا لأمومتى أكثر من أنوثتى.. فعليك من الآن أن تبحث عن أُم .. أقصد حبيبة غيرى .. أنا خلاص .. بح.

انتصبت وذهبت وسط نداءاته الكثيرة ودهشته الكبيرة، ضحكت كثيرًا عندما استقلّت سيارتها على منظره المُندهش وهو يلهث وراءها دون جدوى، ثم ما لبثت الضحكات أن تحوّلت لدموع، وقفت فى شارع هادئ وبكت من خلف نظارتها الشمسية بحُرقة، كانت قاسية حتى على نفسها، تمنعها من البكاء وتمسح

دموعها من تحت النظّارة حتى لا يلحظها أحد، لم تكن تبكيه، كانت تبكى نفسها وقدرها الذى أبى أن يمنحها السعادة، تبكى وحدتها وضعفها والفراغ الكبير، تبكى ما عانته من الأحبّة السابقين.

فكّرت أن تُقابل أحد الأصدقاء بدلًا من أن تعود لمنزلها وحيدة، وحيدة .. هل أصبحت الوحدة عار إلى هذه الدرجة، إلى الدرجة التى يتخلى فيها رجل عن حبيبته لأنها لا تملك إلا أن تكون وحيدة، هل كان عليها أن تستأجر أهلًا حتى تبدو ابّنة منازل مُحافظة طيبة، أمّا أن تكون وحيدة فهذا يعنى أن الرجال يترددون عليها وثلاجاتها لا تخلو من البيرة وأعقاب السجائر فى كل مكان، تنام طول النهار وتعود مساء تتطوح من كثرة الكحول، ضحكت وهى تبكى من هذا الخيال، ثم أمسكت هاتفها بعصبية تبحث عمن يمكنها الخروج معه دون أعذار النساء الكثيرة، رامى صديقها المخلص، الوحيد الذى لا يتخلى عنها أبدًا، يستمع لها بحب أخ وصبر أب.

فى لوبى أحد فنادق مصر الجديدة انتظرته، كانت تُدخن بهيستيريا، رأى وجهها من بعيد فعرف كل شيء، كانت تدُس النظارة الشمسية فى شعرها، وقد ذاب الكُحل حول عينيها وتشقق أحمر شفاهها، لم تحاول أن تُصلح ما أفسده البكاء، جلس قبالتها وهو يتحدث عن أحوال البلد وعمله والأسطوانة الجديدة التى اشتراها وآخر حفلة حضرها بساقية الصاوى، وكانت تستمع إليه بصبر، حتى أتى دورها فى الحديث، قصّت عليه ما حدث وهى تُحاول أن تبدو ضحية قدر المستطاع، لا لتكسب تعاطفه، لكن لأن هذا كان شعورها العميق الذى ما أرادت تحريفه بمثاليات واهية، كانت منهارة دون أن تبكى، فقط تنفعل ويرتفع صوتها ثم تعود لتصمت قليلًا قبل أن تُكمل.

– لماذا كل من أعرفهم فى حياتى أنذال؟ أم هل أنا سليمة النية أكثر من اللازم؟

– لا هم أنذال ولا أنت سليمة النية.

لم تكن لديها الرغبة أن تضحك على دُعابته، أكملت كأنها لم تسمعه:

– كلهم رجال غير مكتملين .. يريدون الحب ولا يُعطون شيئًا فى المقابل .. حتى الأمان أبسط ما تحتاجه المرأة يضنون عليها به .. هل أنا امرأة مغامرات يا رامى؟ هل مشاعرى تبدو لهم نزوة؟

– لا يا فرح .. لكنك تُسيئين الاختيار.

– هذه المرة لم تكن هناك تلك الحماقة التى نُسميها (ظروفًا) كُنا فى مستويات اجتماعية وعُمرية وثقافية قريبة ومشاعرنا كانت متناسقة، كقطعتى بازل كُنّا مختلفين .. مُتّسقين .. مُنجذبين، أطرافه النافرة يحتضنها خوائى، وأطرافى الحادة تذوب فى حنانه .. عندما نلتقى نكوّن بضمتنا أجمل لوحات العشق .. هكذا كنت أشعر.

– تُريدين رأيى .. أنتِ السبب.

– مجتمع ذكورى غير سوى، ماذا أنتظر منه غير أن يلوم المرأة دائمًا .

كان معتادًا على حدّتها معه، كاعتياده على مصالحتها واعتذارها فى النهاية، لكنه هذه المرة أراد مصارحتها بما كان يضمره لها طوال الوقت.

– أنا لا ألومك يا فرح بقدر ما أريدك أن ترى التجربة بعينين غير عينيك .. حتى تعرفى ما لكِ وما عليكِ وتُفكّرى فى الأسباب الحقيقية.

– وما هى الأسباب الحقيقية من وجهة نظرك كرجل مُحايد؟

شعر أنها تريد أن تقول ككلب وليس كرجل، وكانت حدتها تُضحكه لا تُغضبه.

– حسنًا، ذكّرينى كيف انتهى الأمر مع هشام؟

– عندما تزوج.

– لا يا فرح، هو تزوج بعد أن تركتيه.

صمتت برهة لا لتتذكر، فهى أبدًا لم تنس، لكن لتُسيطر على غضبها من ذكر هشام، ثم عادت لتقول:

– تركته لأنه كان أنانيًا ولم يأتِ معى للطبيب فى مرضى .. شعرت أنى لو عشت معه سأستجدى مشاعره على الدوام وهذا يجرحنى .. ثم إنى ظننته سيعود، فكانت هذه طريقتنا فى الخصام؛ أن نتظاهر بأننا نُنهى الموضوع.

– وهل كان من الأحرى به أن يعيش معك وأنتِ تنفصلين عنه كل عدة أسابيع؟ هو أيضًا لم يشعر بالأمان معك .. نعم يا فرح نحن أيضًا نحتاج الأمان.

– لو كان أحبّنى كان...

قاطعها رامى بسؤاله:

– هششش، أنا الطبيب هنا .. وكيف انتهى الأمر مع محمود؟

– لا تُثر غضبى يا رامى، أنت تعرف كل شيء .. محمود لم يكن لى، كان لزوجته وبيته.

– إذن لماذا ارتبطتى به من البداية؟ هل تزوج خلال معرفتكما مثلًا؟

– كنت أُحبه، ثم اكتشفت أنى لن أكون سعيدة معه وهو بنصف مشاعر واهتمام ونصف وقت وعقل.

– ثم تركتيه يا فرح.

– لا تُحاول أن تجعلنى أندم .. أنت تعرف أنى لا أندم أبدًا على قراراتى.

– والآن يا سيدتى التى لا تندم .. كيف انتهى موضوع هيثم .. هذا الطفل الكبير الذى لم تتوقفى عن الحديث عنه منذ شهور؟

– ساعات من الحكى ولازلت لا تعرف؟! انتهى لأن سمو والدته لا تُريد فتاة ضالة ثملة بنت شوارع مثلى تسكن وحدها وسمعتها سيئة أن تكون زوجة لابنها الطاهر.

– من الذى ترك يا فرح .. لا تراوغينى؟

– أنا .. أنا من تركتُه يا رامى لأنه ليس رجلًا ولن يستطيع أن يعيش معى دون مُباركة أُمه.

– وما أدراكِ؟ كان يحتاج لدعمك .. لماذا لم تُفكّرى أن تقابلى والدته؟ لماذا لم تُجرّبى أضعف الايمان أن تصمتى ثم تُفكّرى فى حلول؟ لماذا لم تسمعى منه على الأقل رؤيته؟ ألم تسألى نفسك يا كونتيسة فرح لماذا أنت دائمًا من تتركينهم ثم تأتين هنا لتبكى وتقولى أنكِ ضحية وأن كل الرجال كلاب ولاد كلب؟

– أنا لم أبك .. ثم إنى لست مريضة يا طبيبى الجهبذ!

– ولهذا لن تُشفى أبدًا .. لأنك لا تعترفين بمرضك.

ارتشفت قهوتها وهى تبدو غير مبالية بكلماته، أكمل هو:

– أنتِ يا فرح تخافين الزواج .. تعودت أن تكونى وحيدة وتُعجبك حياتك هكذا .. يُضجرك إحساس أن يكون هناك من يتحكم بحُريّتك .. تُرعبك فكرة أن تجدى من يشاركك أنفاسك فى البيت .. وتخافين من تجارب الزواج الكثيرة الفاشلة من حولك .. أنت تُحبين حياتك هكذا كفراشة تتنقل بين الزهور لا تعبأ بشيء .. عندما تتذكرين المستقبل تخافين وتفتحين قلبك للحب، وبمجرد أن تشعرى بأن الطرف الآخر اقترب أكثر تبعدين أنت .. خطوة للأمام، خطوة للخلف .. تراقصينهم التانجو ثم تتركينهم ليسقطوا على أرض الحلبة وحدهم .. لكن يا عزيزتى الفراشات أعمارهن قصيرة والرقصة تنتهى مع انتهاء الموسيقى، وأنتِ تبقين وحيدة.

نهضت وهى تضحك ضحكة قصيرة، ثم وضعت نظارتها الشمسية على عينيها وقالت له وهى تجُزّ على أسنانها:

– أتعرف؟ إنه الوقت المناسب تمامًا لهذا التشخيص الرائع .. رامى، امسح رقمى من هاتفك .. أنت خارج دائرة أصدقائى.

مشت بامتشاق وثقة كبيرة قبل أن تسقط دموعها على الأرض، تُردد داخلها (كلكم كلاب ولاد كلب)، بقى رامى حزينًا عليها غاضبًا مما قال دون أن يُدرك أنها لم تأت إلا لتُزيل همّها وتستعيد نضارتها معه، كان من الممكن أن يؤجل حديثه حتى تمر الأيام الصعبة، لكنه آثر أن يضرب على الحديد وهو ملتهب

لعلها تفيق من دور الضحية ومن عجرفتها الكاذبة، فإما أن تتغير وتفتح قلبها على مصراعيه، وإمّا أن تتقبل نفسها ولا تُعذبها بالمزيد من المحاولات الفاشلة، لم يُغادر المكان وظل ينظر لهاتفه فى انتظار رسالتها التى ستعتذر له فيها.

عالية تمسك الورقة والقلم وتكتب لأول مرة من سنوات طويلة شيئًا غير طلبات المنزل.

فى هذه الليلة أتمنى أن أكتب لك رسالة ورقية، ليست إلكترونية باردة بحروف جامدة متشابهة فلاُ تدرك منها من المُرسِل، أريد أن أكتب لك رسالة بخط يدى الطفولى المرتبك لا تحتفظ بها بين أوراقك المبعثرة هنا وهناك، لكن تحتفظ بها فى خزانة ملابسك بين ثيابك حتى تمتزج بعرقك ورائحة جسدك، أشعر الآن وكأنى مكبلة، متوترة تمامًا كما أكون معك، تضيع دقائق من لقائنا الغالى ونحن نحملق فى بعضنا ونبتسم بخجل ولا خجل! أو وأنت تسمع ثرثرتى التى أدارى بها رغبتى فى أن أبكى على صدرك، أو وأنت تسرد على الحكايات الغريبة مستمتعًا بدهشتى، منتشيًا بضحكتى، يعود بنا الزمان عندما نلتقى فنشعر كأننا مُحدثى حب .. ولكنى الآن كاللحظات الأولى فى لقائنا .. مرتبكة وأشعر بأنى لن أستطيع أن أكتب لك كلمة واحدة...

كل الكلمات الحلوة حينما تكتب تفقد جاذبيتها، أفضل لو أهمس بها فى أذنك، حتى يصل بها صوتى لدمائك وتخترق بها مشاعرى كل حصونك، أنا لا أحب الكلمات المنمقة والجمل الكبيرة المنسقة، ولا أجيد فن الخطابة والأداء المسرحى، أنت أدرى بى منى فأنا أحب أن أحدثك كطفلة تتدلل عليك دون أن تعرف شيئًا عن البلاغة، وأن أبثك شوقى كعشيقة تجهل أصول النحو وجماليات اللغة، هى فقط تسهر وتعشق وتذوب شوقًا، ولو أنى لا أعرف كيف أشتاقك، علمنى أنت كيف أشتاقك وكيف أكتبك.

أنت تعرف أنى لن أكتب إليك أنى وشوشت الودع ومشّطت الدروب وقرأت الطالع، أنت تعرف أنى لن أكتب لك عن قمر مرّ بليلى أو نجوم

أشفقت على حالى أو عن بحر أبثه عذابى أو عن بيداء كانت مسرح لأشعار كتبتها لك، أنا لا أؤمن معك بالحب التقليدى الذى يكتبه الشعراء ويتغنى به أهل الطرب، حبك قدرى، وأنا اعتدت أن أؤمن بالقدر خيره وشّره، أريد أن أكتب لك الكثير وكأنى أحدثك وأراك، أتعرف أنى أعشق عينيك، ربما لم أقلها لك من قبل، لكنى أعشقها وأحفظها كأنها جزء من ملامحى أنا! أحفظ كل نظراتك وأعشقها جميعًا، التعبة، الجادة، الضاحكة، الصارمة، المشتاقة، المداعبة حتى تلك الغاضبة التى تخيفنى.

هل أكتب لك عن مكانتك عندى؟ وهل لازلت لا تعرفها؟ ألا تعرف أنك أهم ما فى حياتى، ألا تدرك أنى أصحو وأنام على التفكير فيك، وأنك فرضت نفسك على واقعى وخيالى، وأن سعادتك تشغلنى، كن سعيدًا حتى وإن بعدت عنى ولا تقلق فأنت تحت جلدى، صحيح أنى لا أسألك أبدًا السؤال المُعتاد «أُتحّبنى؟» خوفًا من أن يكون استجداء لمشاعرك، إلا أنى كم تمنيت لو أعرف مكانتى عندك، وأين أقف من حياتك، لعلك الآن تقول فى بالك بغضب .. لأنك لا تفهمين .. ولكنك أنت من لا تفهم كيف أحتاج أن تثبت لى تلك المكانة كل يوم وكل دقيقة، وبكل طريقة، فكل وقت يمر دون وجودك تقتلنى الظنون وتفتك بى الغيرة.

أنت دائمًا هنا ولست هنا .. أنت منتهى أملى وحلم شبابى، أنت براءتى وذنبى، أنت الرقة الكامنة فى وأنت جموحى، أنت اللص الذى سرقنى والنصاب الذى أعشقه والمستعمر الذى أشتاقه والقاتل الذى يستبيح دمى وأنا راضية. لا زلتُ لا أجدنى قد عبرت لك عما بداخلى، ربما لأنه أكبر من أن أعبر عنه بالكلمات، هل أصفك؟ لكن وصفك لن يكون كطبيعتك المتناقضة، فأنت الطبيعة ذاتها، إعصار ونسيم، بحر هائج ونهر رائق، شمس حارقة وقمر ونّاس، أنت التضاد والهمجية والجنون .. وأنا المفتونة بك. لن أصف مشيتك وصوتك وملامحك، سأحتفظ بوصفهم لنفسى حتى تظلّ بعفويتك وأظلّ أعشق أشياءك الصغيرة أكثر.

أتعرف أن جسدى يغار من يدى لأنها لمستك ونامت بين كفيك ومرت على وجهك الحبيب؟ آه من يدى، أحسدها أنا أيضًا!

تتملكنى وحشة غريبة وحنين أغرب، أكاد أشعر بأنفاسك عند عنقى وأنا أكتب، وبيدك تداعب شعرى، لا أعرف لماذا الناس قساة؟ يا ليتك معى حتى تجاوبنى وتناقشنى، لماذا لا يحترمون الحب ويقّدسونه، لماذا يعتبرونه حماقة وشغل عيال، أو نوعًا من التحفظ والعورة التى يجب أن نخفيها، أنا أحب أن أحبك بصوت عال وأغنى لك وأرقص معك، وأتهور وأجنّ معك، ولا أحب ما دون ذلك.

هكذا وجدتنى أحبك بنضارة قلب عذراء وتدفق قلب أم.

أتعرف أنى أتحدث معك بإريحية وأعلم أنى لو جالستك أيامًا لن نتوقف عن الكلام .. لكنى الآن مرهقة منك وكتبت عدة أوراق، وأشعر وكأنى لم أكتب شيئًا بعد.

***

obeikandl.com

(١٨)

عندما تصحو على رسالة من الحبيب يكون الصباح مُختلفًا، لا الشمس التى لفّتك اليوم برفق هى شمس الأمس الحارقة، ولا الأغنية الناعمة التى تسربت لك من الشبّاك كانت موجودة بالأمس، حتى النسمات ترقص حولك بعد أن كانت خاملة بالأمس، كريستال الثُريّات يُفاجئك ببريقه بعد أن كان جافلًا، والستائر تطير بمرح كأن هناك من يُدغدغها، الضوء يُفاجئك أن مصدره قلبك والسماء تُفاجئك أنها تبتسم لك أنت، كل من حولك لطيف وهادئ ويُقبّلك بين عينيك، طالعت الرسالة مرات عديدة وهى تقوم بطقوسها الصباحية، من يوم أن قالها لها يوم أن كانت توشوشه من تحت السرير، أصبحت هذه الكلمة هى أكثر ما يُقال بينهما، تُهاتفه فيرد (أُحبك) تُقابله فيُسلّم بقوله (أُحبك)، ملأ الكون بالكلمة، يقولها لها فكأنها من روحه، ليس من حنجرته، وتقولها له بحروف واضحة وصوت يُسميه هو صوت العشق، لوّنت أظافرها وأعدّت أجمل ثيابها لندوة الليلة، هذه المرة هى لن تكون فقط أحد الحضور، هى حبيبة المحاضر، هذا الرجل الفوضوى المجنون الذى يتوقف العالم عن دورانه عندما يتحدث.

الندوة كانت عن الألتراس السياسى، كان التركيز فى الندوات على الألتراس بدافع تعريف الناس بدورهم وتاريخهم خاصة بعد أحداث بورسعيد الدامية وقتل أكثر من خمسة وثمانين مُشجّعًا مُعظمهم ينتمون لألتراس أهلاوى، تحدثت مع حسن فى هذا الأمر قبل الندوة وعرفت عنهم الكثير، كان حديثه كالعادة

محايدًا، لم يُظهر أى توجه سياسى منذ أن عرفته أو سمعت خطاباته إلا توجهه للثورة، ما دون ذلك كان دوره يقتصر على تعريف وتثقيف الناس بما يمتلكه من معلومات وثقافة هائلة، وبطريقته الخطابية الجذابة، كان حسن دائمًا مصدر الأضواء أينما ذهب رغم عفويته الشديدة، ومصدر لحب الناس لأنه لا ينتمى لتيّار ولا يتخذ جانب فريق دون الآخر، فأجمعت عليه كل الطوائف السياسية.

دخلت القاعة معه وهى تشعر بزهو وفخر شديد، شعرت أنها ليست إلا قمر صغير بجوار الشمس، شعرت بسعادته أيضًا رغم أنه تعمّد ألا يبدو بينهما أى نوع من الارتباط، كغريبين التقيا صدفة عند مدخل القاعة، عرّفها بصديق من قادة الألتراس واندهشت عندما وجدته شادى حسين زميلها القديم بالمدرسة، تذكّرها رغم ما تركته آثار السنوات، لم تكن صديقة مقربة منه آنذاك، لأنها كانت خجولة ومنطوية، أما هو كان أشهر لاعبى الكرة فى المدرسة، تذكرها لأنها كانت معروفة فى المدرسة، كونها الطالبة الوحيدة التى تعزف على آلة الاكسليفون، وكانوا يقيمون لها فقرة خاصة فى الحفلات، يتطاير شعرها البُنّى وهى تعزف فيزيدها ملائكية، تحدثا بود واستعادا بعض ذكريات المدرسة ومصير الأصدقاء، مما أثار حسن الذى بدا متحفزًا دون أن يلحظه أحد، ولا حتى عالية التى كانت تُحلّق بوجودها معه هناك.

بدأ الندوة وكان متوترًا بشكل لا يُرى، لكنه شعر فى نفسه بالقليل من عدم اتزان المعانى، وسرعان ما أشاح بنظرة عن عالية وشادى واستعاد خيوط تركيزه، تحدّث عن تاريخ الألتراس منذ عام ٢٠٠٧، شرح كيف أنهم نموذج يُمثّل مجموعة من الشباب المحُبط من ظروفه الاجتماعية والسياسية، وكيف أنهم استبدلوا الانتماء للوطن بالانتماء لنادى، والهويّة استبدلوها بشارة أو فانلة أو شعار يُلهب حماستهم، وأن اختيارهم كان للنادى الأهلى الذى كانت انتصاراته مصدرا لجذب المهزومين المنكسرين المحبطين، حكى عن تخوّف الناس منهم لأنهم قوة منظّمة لا يُستهان بها ولم يأبهوا يومًا بالمحظورات الأمنية، وأن لهم سوابق عديدة

فى خرق الأنظمة واستخدام العنف مع الجمهور المنافس، ثم أضاف أن دورهم الحقيقى بدأ مع الثورة وأنهم ملأوا فراغاتهم بالسياسة، وكان لهم دور بارز فى ثورة يناير إضافة إلى الأحداث التابعة، وبدأت هتافاتهم تتحول نحو السياسة وضد الأمن الذى هو عدوهم الأول، حيث كانوا يُطلقون عليه (ACAB) أى All Cops Are Bastards، كل رجال الأمن أوغاد، وأشار إلى أن لا أحد يعلم مصدر التنظيم وكيفية الادارة فى الألتراس، وأن توجهاتهم السياسية غير معلنة، لكنها تسير فى طريق مدعوم بشكل كبير، ثم تطرق للحادثه المروّعة الأخيرة واستبعد أن يكون الأمن وحده المُدان أو أن شعب بورسعيد وحده المُدان، مشيرًا إلى أنها مؤامرة يشترك فيها النظام السابق بغرض البلبلة وإثارة الأوضاع، وهكذا كان حسن دائمًا ؛ يُرجع كل المصائب للنظام السابق، فكان فى نظره أشدّ جُرمًا من الشيطان نفسه.

أنهى حديثه الطويل وصفق جميع الحاضرين بشدّة، تعجبت عالية من أن حديثه كان أكثر حدّة وتجنٍّ على الألتراس، بعكس ما حكى لها من أنهم فريق مُخلص وقوى ودوره لا يُستهان به خاصة فى الأحداث الأخيرة، لكنها آثرت أن تصمت وتتجنب الحديث معه فى الأمر، ثم كان دور شادى للحديث باعتباره أحد قيادات الألتراس، أتى حديثه على وتيرة أهدأ من حسن، بدأ واصفًا الألتراس بأنهم جزء من النسيج الوطنى وأنه ليس لهم أى اتجاهات سياسية بعينها، بل وإن كل المحاولات التى أرادت استقطابهم باءت بالفشل، لأن غرضهم الأساسى وانتماءهم الأول لمصر وللثورة، وأنهم أول من وعدوا باسترداد حق الشهداء وحماية أهاليهم واعتبروا نفسهم حُماة للثورة، ثم عاد ليبدأ الحكاية من عام ٢٠٠٧، وكيف أنهم نظّموا أنفسهم بأنفسهم، ليس عن إحباط لكن عن محاولة للتحالف على شيء مُهم آنذاك، والتخوف الذى اعترى الأجهزة الرياضية والاعلام الرياضى من أن تكون هذه المجموعات مشاغبة ومتعصّبة، مما أدّى إلى حبس قادتهم ليالى المباريات الكبرى، والتشديد أمنيًا عليهم عند دخول

الاستاد مما وصل لتفتيشهم ذاتيا، وكثيرًا منعوهم من الدخول، مرورًا بصدام الأمن معهم عام ٢٠٠٩ رغم عدم وجود أى بوادر عنف منهم، لكنه كان النظام الأمنى الصارم الوائد لأحلام الشباب آنذاك، والذى لم يتغير كثيرًا بعد الثورة، ثم تحدث بتأثر عن الدماء البريئة التى أُريقت فى مدينة بورسعيد، وعن شهداء الألتراس من يوم جمعة الغضب حتى أحداث مجلس الوزراء، وأهمية القصاص وتطبيق العدالة، أنهى حديثه بأنه يجب على القوى الاجتماعية والسياسية السماع للألتراس، لأحلامهم وآلامهم، واحتواء طاقتهم الشبابية الهائلة والاستفادة منها وتوجيهها لما فيه مصلحة الوطن، لأنهم يتمتعون بإخلاص وتنظيم نادر وجودهما بين عبث الأوضاع الراهنة.

صفقت عالية بشدّة بعد أن وجدت أن كلام شادى يميل للمنطق أكثر من حديث حسن، الذى ناقش شادى وحاوره أمام الجميع عن ضرورة عدم اعتبار الألتراس أسطورة لأن روح الأساطير تجعلهم يندفعون ويقعون فى المزيد من المشاكل، وأنهم يُمثلون باندفاعهم صورة رديئة من الفاشية والنازية، شادى استمر على دفاعه عنهم باستماتة، فى النهاية اتفق الاثنان على بعض النقاط حتى يُنهيا الحوار بمظهر حضارى ديموقراطى لا يحمل فى جعبته أى اقتناع، لكنه فقط توافق الندوات.

تعلّمت عالية الكثير من الدروس فى التعامل مع الرجال من قصتها الطويلة مع محمود، لذلك تعاملت مع حسن بطريقه مختلفة، كانت صديقته وليست فقط حبيبته، فلم تُعلّق على حديثه أو حواره تعليقًا سلبيًا، إنما آثرت الوقوف إلى جواره ببساطة دون أن تجعله يشعر أنها تفعل هذا لأنها تُحبّه إنما تفعله لأنه على حق. كانت المرة الثانية التى تُقابل فيها هذه الفتاه المُسترجلة، حجابها قصير يُظهر نصف شعرها المصبوغ، عيناها حادتان، قوامها نحيف، ثدياها كأنهما بالكاد نبتا، وردفاها ردفا طفلة، وجهها الخالى من المساحيق يبدو أكبر سنًا من جسدها الصبيانى، اسمها نهى البحيرى، تتحدث مع حسن بشكل حميمى وإن كان لمدّة دقائق لا غير،

هو مُتحفّظ معها على عكس الباقين، لم تكن تعرف بأن هذه النهى تحمل لها مفاجأة فى الأيام القادمة.

كان هذا بعد الندوة بعدة أيام، حين كانت مع حسن فى إحدى مقاهى وسط المدينة، مقهى شعبى على الأرصفة ومُعبّأ برائحة النراجيل ودخان السجائر، كانت تتطلع حولها كل حين فى انتظار أن يُفاجئها أحد الأقارب أو الأصدقاء، لم تهنأ معه بوقت بدون أن تكون عينيها زائغتين وقلبها محاط بالخوف، هذا الشعور المُسيطر عليها منذ بدأت تُقابله فى أماكن مفتوحة غريبة عليها، ومنذ أصبحت نظراتهما وحوارتهما أنشودة عذبة من المشاعر، كانت قد فشلت فى إقناعه بارتياد الأماكن الهادئة البعيدة، استأذن منها حينها بسبب اتصال هاتفى وتركها فى المقهى، بمجرد اختفائه عن نظرها ظهرت نهى البحيرى، جلست قبالتها بعد أن تبادلا التحية، أخبرتها أنها تود الحديث معها عن مشكلة شخصية، كانت عالية قد تغيرت بعد معرفتها بحسن، أصبحت أكثر ودًّا مع الغرباء وذابت طبقة التحفظ التى كانت تلف نفسها بها، فرحبّت بشدّة أن تستمع لمشكلة نهى.

- مشكلتى بسبب حسن.

لم تُظهر عالية هذا التقلّص الذى داهمها فى معدتها عندما سمعت باسمه وظلّت على ابتسامتها المرحّبة.

- أنا وحسن كُنّا مرتبطين قبل مُدّة، ثُم اكتشفت علاقته بأخرى، فأنهينا علاقتنا بهدوء وآثرنا أن نظل أصدقاء، بعدها بفترة ترك الأخرى لأنها كانت دجاجة على حد قوله.

كانت عالية هادئة تمامًا كأن الموضوع كله لا يخُصّها، وكان عليها أن تتحدث، فسألتها بصعوبة أين المشكلة؟

- المشكلة أنى منذ عرفت بأنه تركها وأنا أُفكّر فى العودة له، خاصة أنه لّمح أكثر من مرة أن هذا سيسُرّه، لكنى خائفة أن يُعيد الكرّة ويجرحنى مرة أخرى، المشكلة أن قلبى مازال مُعلّقا به، هو من علّمنى ألف باء ثورة، هو من شجعنى

على أن أعمل فى مجال الصحافة، وكُنّا معًا فى كل الندوات، كنت دائمًا قطته الحُلوة كما كان ينادينى، كُنّا نحلم بأن نتزوج فى الإسكندرية، صدمتى فيه كانت كبيرة، لكن ما يُهوّن على هو أنه أصرّ على أن يظل بقُربى وتستمر صداقتنا لعلنا يومًا نعود كما كنا.

صمتت وقد ترقرقت دمعة فى عينيها الحادتين، أمّا عالية فكانت قد جنّبت مشاعرها تمامًا واستجمعت قوتها التى واجهت بها كل عذاباتها السابقة، قالت بصوتٍ خالٍ من أى إشارة:

- كيف بوسعى أن أساعدك؟

- فقط أعطينى رأيك .. هل أعود له أم أستمر فى علاقتى به كصديق؟

- الأمر لا يحتاج رأيى .. إن كنت تُحبيه وهو أيضًا فلا مانع من العودة.

- وخيانته لى؟!

- لقد تجاوزتِها بالفعل بدليل عندما قبلت أن تكونى فى حياته صديقة.

- ليس بهذه السهولة.

صمتتا، ولم يكن لمزيد من الحوار معنى، أتى حسن، اعتذرت نهى لعالية عن إزعاجها وانصرفت، بقيت عالية مُتسمّرة فى كرسيها الخشبى الصغير، كانت تعرف أن حديث نهى لم يكن أكثر من وشاية حقيرة من فتاة لها نفس مريضة، لكن الحياة علّمتها أن لا دخان يأتى بدون نار، عندما شعر حسن بدمائها الهاربة أيقن أن هناك خطبًا ما خاص بنهى، لكنه لم يُبادر بفتح الموضوع وفضّل أن ينتظر ردة فعل عالية، ظلّت على جمودها حتى وجدها فجأة تتلوى من الألم، عيناها حمراوان تعتصرهما الدموع ووجهها شاحب كأن الموت يدق على بابها، لم تُفلح محاولاته فى أن يبقى معها ويُحضر لها دواء أو أن يطلب لها مشروبًا دافئًا يُهدئ من ألمها، أوصلها للبيت فى سيارة أجرة ورمقها بخوف وقلق حقيقى وهى تتركه شبه راكضة فى الشارع حتى اختفت عند مدخل العمارة.

دخلت منزلها بسرعة حتى لا يراها أحد، ظلّت فى غرفتها حتى الصباح،

التقلصات تؤلمها لكن ألم قلبها أعظم، لم يكن يؤلمها أنه أحبّ قبلها فهذا شيء متوقّع، ولم يكن يؤلمها أنه كان خائنًا آخر، فالخيانة أصبحت كلمة خالية من المعنى بعد كل ما مرّت به، ثم إنها لم تكن من نصيبها هذه المرة، ما آلمها وغرس أظافره فى قلبها هو هذا الشعور أن كلمات الحب التى ظنت أنها خاصتها كانت مجرد كلمات تُقال للجميع، فهو كان يدعوها أيضًا بقطته الحُلوة، وكان يتمنى أن يُسافر معها إلى الإسكندرية معشوقته.

****

لم تعد تشعر بهذه القرقعات فى روحها، بهذا التوهان والضياع والألم الذى كان يحرق أوصالها، فقدت شعورها بالاحتياج للذة، وتأنيب الضمير الممتزج بالرغبة، فقدت أخيرًا كل هذه المشاعر الملتهبة المتناقضة التى كانت تُنغّص عليها واقعها وتُغرقها فى بحور من المرارة متناهية الأطراف، أصبح داخلها هادئًا، خاملًا كبُستان واسع لا يُعكّر صفوه إلا صوت صفافير الهواء، كانت تشعر بهذه الفقاقيع التى تسبح داخلها، فتُحدث نغزة هنا وهناك، نبتة صغيرة تترنح بفعل الريح لكن جذورها ثابتة تُداعب كيانها بفعل هزّاتها الصغيرة، أيقنت الأمر بقلبها ومشاعرها التى أصبحت فيّاضة، تضحك بشدّة على لا شيء وتبكى بحُرقة على أتفه الأمور، أتاها الخط الأحمر الصريح على الشريط البلاستيكى الصغير ليؤكد لها شعورها، النُطفة علقت برحمها لتشفيها من أعراضها المُرهقة والتُرهات التى كانت تسكنها، شعور الحبل شعورغريب يجعل المرأة تشعر بتميز رغم أنها تجربة عادية ومتكررة، تشعر كأن فوق رأسها تاج أو هالة مثل هالات القديسين، أنوثتها تتألق وجسدها يُصبح أنعم وأزهى، كل ما فيها ينضح بالأنوثة من شعرها حتى إخمص قدميها، قلبها يصبح فى توق لهذه النبضات الصغيرة التى تؤنس وحدته، ومشيتها تُصبح كقطة تمشى فوق الماء برفق وتلذّذ حتى يتأرجح الصغير بمرح ولا يفزع، لا إراديًا تجد كفهًا دائمًا فوق بطنها يُهدهد الصغير ويُطمئنه .. أنا هنا يا صغيرى.

لم يتمالك زوجها نفسه من الفرحة عندما عرف، كانت هذه أُمنيته منذ وقت طويل عارضته فيه، فهو رجل يُقدّر الجنس والأطفال والحياة العائلية، لا يهمه ما سواهم، طالما أن رجولته عفيّة ورغبته مُتقدة وله أطفال يملأون البيت ضجيجًا وزوجته تلفهم بحبها واهتمامها فهو أسعد رجل فى الوجود. عندما أخبرته بنتيجة اختبار الحمل أصرّ أن يُكافئها على طريقته الذكورية، أكلة كباب وكُفتة وسهرة طويلة من العشق، كانت سعيدة فى حُضنه، لم يُفزعها إلا قطرات الدم القليلة التى وجدتها فى ملابسها الداخلية عند الصباح، وباستشارة الطبيب قرر أن تقضى شهورها الأولى نائمة على ظهرها، وهى الشُعلة المتقدة التى تعمل وتخرج وتسهر، عاشقة الزحام والهرج، تقضى يومها كله على سرير فى انتظار أن يدخل عليها أحدهم ليُسليها قليلًا وهو مُضطر، هل عندما نوت أن تُسعد زوجها وتُساعد نفسها على الشفاء يكون هذا جزاؤها؟ المزيد من الوحدة والسكون، لكن فرحتها بالصغير خففت عنها أعراضها المُرهقة، فكل تعب يهون جوار تعب النفس وشرودها، قررت أن تكون فترة السكون بداية جديدة لها.

راحت تقضى يومها كله تقرأ الكتب، وتتصفح الانترنت، دخلت عوالم جديدة دفعت بها للاشتراك فى إحدى دورات علم النفس عبر جامعة أمريكية للدراسة من خلال الانترنت، قضت أسعد أيامها وهى تقرأ فى هذا العلم الثمين وفُتحت لها أبواب عديدة من الشغف بالحياة، فأقبلت على زوجها وابنتها، وأصبحت رغم قلة حركتها لها الكثير من الأسفار والتجارب بين بحور القراءة والدراسة، بدأت تُصنّف الأمراض الكامنة فى كل من تعرفهم وراحت تُشخّص وتبحث عن الأسباب والدوافع وطُرق العلاج، وهذا فى حد ذاته كان سبيلًا لعلاجها هى مما كانت غارقة فيه، أحيانًا تبتئس وتكتئب من اكتشافات عظيمة تُظهر كمّ الأمراض النفسية التى تتعامل معها، هذا كان دافعًا أكبر لها حتى تُتم دراستها، مرّت الشهور وسمح الطبيب لها بالحركة ولزوجها بأن يقترب،

عندما اقترب منها هذه المرة لم يكن على عُنفه وشراسته، كان لطيفًا وقبّل بطنها الصغير كثيرًا، لأول مرة تجده بهذا الوجه العذب، وبدأت قصتهما من جديد.

نستطيع أن نبدأ دائمًا ما دمنا لم نصل للنهاية بعد، هكذا دوّنت فى مفكرتها. لم يتجدد العشق وإنما هى من تجددت فأصبحت ترى الوجوه العديدة التى يُمكن أن تعيد الحب بينهما ليبدأ من نقطة الخجل حتى يصل للوهج، عندما أغرقته بخمرها ووصلت معه لقمة لذّتها حتى صرخت نشوة لأول مرة وليس ألمًا، أيقنت أنها تحررت من كل هواجسها.

كان صراعًا وليس مجرد خلاف، أمها تريدها أن تتعلم عزف البيانو مثل كل الفتيات الراقيات، وهى تبكى وترفض وُتصرّ على تعلم الاكسليفون، أبوها يساندها بتعليقات قصيرة (دعيها براحتها)، (لا فرق)، (ستبدع فيما تحب)، لكنه لا يقف فى وجه زوجته لأنه يعرف عندها وتسلطها، قرر أن يوفر جهد الصراع معها إلى ما هو أهم، عالية كانت أيضًا عنيدة فلم تستسلم ببساطة وأعلنت أنها لو ذهبت لدروس البيانو فإنها ستجلس كقطعة ديكور ولن تتعلم شيئًا، ولو اشتروا لها البيانو حتى يجبروها على تعلمه فلن تستخدمه إلا كمائدة تضع عليها براويز الصور وفازات الزهور، كانت بغلة حرون فى سن المراهقه، كسرت الحياة ومحمود شكيمتها فيما بعد، رضخت أمها فى النهاية على شرط عدم تعلم أى آلة موسيقية، فهى لن تدفع المال وتنظّم المواعيد من أجل دروس لآلة طفولية تافهة مثل الاكسليفون.

بدأ عشقها للإكسليفون عندما كانت فى غرفة الموسيقى، تتابع صديقاتها اللاتى وقع عليهن الاختيار للغناء فى حفلة المدرسة، ولم تحاول مجرد المحاولة أن تشاركهن، فهى تخجل من الحديث فما بالك بالغناء، هناك وجدت الاكسليفون الكبير الذى كانت تعزف عليه تلك فتاة شقراء من قبل، عندما انتهت الحصة وغادرت الفتيات، أمسكت هى بالعصاتين الصغيرتين ودقت على الأصابع، وجدت صوتًا صارخًا متحررًا يشبه صوت روحها حين تتململ من الوجود،

عـاودت الـدق وأطالـت، حّركـت يديهـا مـن هنـا لهنـاك وهـى تتابـع الصـوت وتغـيرات النغمـة، تيّقنـت أيـن يكـون الصـوت أنثويًـا، أرفـع وأعـلى، وأيـن يكـون صارمًـا ذكوريًـا، عـاودت المحاولـة عـدّة مـرات وهـى تشـعر بدفقـة مـن السـعادة تجتاحهـا، وابتسـامة كبـيرة تنبـت عـلى شـفتيها، حتـى سـمعت صـوت التصفيـق.

انتبهـت عـلى معلمـة الموسـيقى الرقيقـة ميـس رانـدا وهـى تنظـر لهـا بإعجـاب وسـعادة، ربتـت عـلى كتفهـا وهـى تـردد «برافـو»، ومـن يومهـا أصبحـت تنتهـز الفُـرص لتأتـى لغرفـة الموسـيقى وتتعلـم العـزف عـلى الاكسـليفون، لم تتطـوع ميـس رانـدا لتعليمهـا وحسـب، لكنهـا كانـت تشـجعها وتشـترى لهـا كتبًـا صغـيرة عـن آلـة الإكسـليفون، تحدثهـا كثـيرًا عـن الموسـيقى وعـن أيامهـا الجميلـة بالمعهـد وأحلامهـا العريضـة قبـل أن تعـرف أنهـا سـتكون معلمـة لمـادة غـير معـترف بهـا، لا يحتاجونهـا إلا قبـل الحفـلات لتنظـم أى شيء يجعـل الحفلـة مبهجـة، لكنهـا لم تكتـف بدورهـا فى الحفـلات، وأضافـت أو أعـادت الفقـرة الموسـيقية لطوابـير الصبـاح التـى كانـت تقتـصر عـلى أغـانٍ دون موسـيقى، بـدأت تعـدّ عاليـة لتصبـح هـى الفقـرة الموسـيقية بعـد أن رحلـت الفتـاة الشـقراء، وجـدت عاليـة فى الاكسـليفون سـلوتها وضالتهـا بعـد أن كانـت حياتهـا مجموعـة مـن الأوامـر والنواهـى، راحـت تعـزف بيديهـا وشـعرها وقلبهـا، تحـررت ورقصـت فى خيالهـا، العـزف يعنـى لهـا الرقـص، كـما تعنـى كل هوايـة لصاحبهـا شـعورُ معـين مـن التحـرر والخـروج مـن دائـرة المألـوف البغيضـة.

فى هـذا النهـار كانـت محبطـة، بعـد أن قضـت ليلتهـا باكيـة مـن والدهـا الـذى رفـض أن ترتـدى فسـتانها الجديـد فى حفلـة عيـد ميـلاد ابنـة خالتهـا وأصرّ أن تبدّلـه لأنـه قصـير وعـارى الأكتـاف، فى الحفلـة كانـت منطفئـة، حزينـة لأنهـا ارتـدت ملابس قديمـة ومحتشـمة، بينـما كانـت الفتيـات زاهيـات يرقصـن ويتقافـزن كالفراشـات، انـزوت هـى فى شرنقتهـا، عنـد نهايـة الحفلـة أبـدى أبوهـا إعجابـه بالفتيـات ونشـاطهن وأناقتهـن، لم تكـن تعـرف أن الرجـال تعجبهـم الفتيـات وثيابهـن ودلالهـن طالمـا أنهـن لا يخصوهـن، دخلـت المدرسـة ففكـت ضفائرهـا، عزفـت عـلى الاكسـليفون بقـوة

وغضب فى الطابور الصباحى، تاركة العنان لشعرها أن يشاركها الرقص، لم تفهم شيئًا طوال الحصص، كانت غيمة سوداء تقف بينها وبين كل ما حولها، حتى سمعت فتاتين تتهامسان أنهما بصدد الهروب من المدرسة.

نزلت معهما فى وقت ما بين الحصص، وعدتهما بألا تطلع أحدًا على سرهما، عرفت أنهما على موعد مع ولدين فى صالة بولينج قريبة، أما هى فقررت أن تذهب لتمشية طويلة تنفث فيها عن اشتعالها، مكتب قديم كان فى زاوية الفناء، وضعن عليه كرسى قديم وصعدن بخفة واحدة تلو الأخرى، وصلن لقمة السور ثم ألقين بأنفسهن بدون صوت، صعدت مثلهن فوق الكرسى، لكنها فجأة شعرت أنها تتنرح، نظرت للأرض فأتاها دوار أطاح بها ونثرها ككومة من الأوراق، كان صوت الكرسى وهو يقع وينكسر مدوٍ، وصوت صراخها كان مفزعًا، لكن ردة فعل المديرة كانت أكثر دويًا وفزعًا.

❊❊❊

obeikandl.com

(١٩)

بدأ الشتاء ينزوى وتتساقط أوراق الشجر الصفراء لتملأ الشوارع وحواف النوافذ، عادة كانت تخشى هذه الفترة من السنة حين تكثر العواصف وتزيح الرياح أتربة العام لتنثرها فوق رؤوس الناس، ربما بسبب حزنها على مفارقة الشتاء الحبيب الذى يحمل الدفء فى برده، هذا الدفء الجميل الحقيقى الذى يكون نتيجة مشاعر حقيقية وليس نتيجة اللفحات الصيفية الساخنة،هذا الدفء الذى يغمر القلوب المُتدثّرة بالحب، لطالما ظنّت أن حب عُمرها ستُقابله فى الشتاء عندما تنزل فى تمشية طويلة تُمشط الدروب الرطبة باحثة عنه، لم تكن تعرف أن الحياة تُخبئ لها هذه القصّة المُرهقة التى بدأت مع بزوغ الشتاء، كانت تُشغل نفسها منذ عدة أيام بالتريكو، يرن هاتفها برقمه فلا ترُد، مازالت غاضبة منه تُزجى وقتها فى أشياء مختلفة حتى تمُر الأيام بدونه، ولا تمُرّ، كان بؤسها يُزعجها لأنها مازالت المرأة التى ترتبط سعادتها برجل، وكانت مشتاقة لصوته ومُداعبته وصخبه وحكاياته التى لا تنتهى.

قلبها يبذل كل طاقته حتى يُقنعها أن تتراجع وتعود له، فلا وقت تُضيعه فى المزيد من الحُزن .. ويكفى ما فات بدونه. مع الوقت وبالحب تصغر الأشياء، وتُصبح أسباب الغضب هى نفسها أسباب اتخاذ الأعذار، جرحها كان غائرًا، وكان هو الدواء الوحيد، لولا هذه الكرامة المُتألّمة لكانت رمت نفسها فى حضن وجوده عند أقرب فُرصة، عقلها أيضًا كان يُذكّرها عند كل نوبة ضعف بكلمات تلك النُهى، الكلمات التى حفرتها فى قلبها عندما سمعتها منه وظنّت أنها خاصتها،

لذلك استمرت على عصيان قلبها والبُعد عنه. فى خضم الصراع اليومى الذى أصبحت تعانيه منذ عرفت حسن أتاها اتصال غزل صديقتها ليُعيدها لواقعها، كانت تدعوها لتجمع مع الصديقات فى بيتها كالعادة، استجمعت سعادتها وعزمت على الذهاب، هذه المرة لم تتأنق وتتزوق كالمرة السابقة، لكنها ارتدت ما اعتادت أن ترتديه مع حسن، الملابس العصرية التى يُحبها وحذاء رياضى خفيف، لم تلوّن وجهها، فبدت بينهن طفلة شاحبة، أو ثائرة مُنهكة من الهتاف والتظاهر، كانت مثار حديثهن بالتغيير الذى طرأ عليها فأصبحت همجيّة على حد قولهن بعد أن كانت سيدة مجتمع، لم تُزعجها تعليقاتهن بل كانت تضحك وتسخر من نفسها، كأنما لتؤكّد لهم أنها فعلًا تغيّرت.

بعد مهرجانات الفرحة التى كانت تؤديها، انزوت فى ركن ترقبهن من بعيد، شعرت فجأة أنها غريبة، ليست عالية صديقتهن، شعرت بالدناءة واحتقرت نفسها، كلهن زوجات أو عازبات مُحترمات، ووحدها هى الأم المراهقة، ماذا لو عرفن بمغامراتها؟ ماذا لو رأينه يلتهم شفتيها فى سيارته؟ ماذا لو علمن أنها ترتاد المقاهى وتجلس بجوار غريب يُؤرجل، يُدخّن الحشيش أحيانًا ويُصاحب الصعاليك دائمًا ؟ شعرت بدوار وصُداع أصبح مُلازمًا لها من يوم أن رحل محمود وأخذ معه ثباتها، فباتت تعيش بلا أرض، تُحلّق وفقط، قارنت بينها وبينهن فوجدت أنها أصبحت قطة شوارع تسلك كل الطرقات التى تؤدّى إلى امتلائها ونشوتها، عجزت عن وصف علاقتها أو تخيل ما بعد تلك العلاقة، الضاحكات المرحة حولها جعلنها تشعر بتعاستها أكثر، غزل كانت مُتفننة فى التعرّى كعادتها وقناعتها بأن العُرى هو الأناقة والتحضّر، كانت تملأ المكان بحواديتها ومزاحها المعتاد، حتى اقتربت من عالية المُتراكمة على الكرسى وطلبت منها أن تُشاركهن الحديث.

تحدثت مثل حسن، كأنها مثال مُصغّر منه، وجدت أن معلوماتهن السياسية ضحلة مُقارنة بها، كانت معظمهن من تلك الطبقة المعروفة بالـ(فُلول)، التى

تبكى وتتحسر دائمًا على النظام السابق والاستقرار، فلم تُجادلهن وتركتهن فى عجرفتهن الكاذبة ومقاوحتهن الدائمة، حتى معلوماتهن الثقافية كانت ضعيفة وهشّة، شعرت حينها فقط بأنها استعادت ثقتها بنفسها، ثقة نابعة من امتلاء حقيقى وليس فقط من ثياب آخر موضة وزواق فاتن.

عُلا كانت مُرتبكة وهى تدعوهن لخطبتها، سعدن بها ولها سعادة حقيقية، شعرت عالية كأن عبئًا كان على قلبها وذهب بخطوبة عُلا، صديقتها الطيبة التى عاشت سنوات على أطلال قصّة سرمدية قديمة، ترفض كل من يتقدم لها حتى أصبح لا أحد يُبادر بالتقدم، وأصبح المصدر الوحيد للعرسان هو الصالون الذى لا يتناسب مع شخصيتها الحالمة، مرت السنوات عليها وتماسكت رغم اليأس، لكنها لم تفعل مثل الكثيرات ممن تأخرن فى ركوب قطار الزواج، وأصبحن أكثر تحرُرًا وسُخطًا، يلجأن أحيانًا لغطاء الاجتماعية الشديدة التى تبتلع الوقت والتفكير، وأحيانًا يُفضّلن الانزواء، بقيت كما هى تمضى فى حياتها بقلبٍ مفتوح مُنتظرًا للأمطار لتهطل عليه، لم يكن فى عينيها هذا الألق الذى يُزيّن عيون العُشّاق، لكنها كانت سعيدة ومُقبلة، ربما لأن الوحدة قد أنهكتها، أما عالية بعد كل ما مرّت به كانت قد كرهت فعل الزواج كله، وأيقنت أن نصف حب ونصف عاطفة لا تزيدنا إلا عذابًا وتيبسًا، أدركت هذا بقوة بعد أن غرقت فى العشق وجنونه مع هذا الغريب.

وهى تهمّ بالعودة طلبت منها نورا أن تُرافقها، كانت نورا بالفعل قد خطرت على بالها كثيرًا فى الشهور الماضية، كانت قد بدأت تتعاطف معها، فالخيانة سواء، مؤلمة ومُرّة، خنجر يُمزّق الأوصال ويخترق القلب تاركًا فيه ندبه أبدية، لا يفرق كونها زوجة أو حبيبة أو عشيقة مادام قد وعدها بالإخلاص، كانت نورا أهدأ من ذى قبل وأقبلت على تبادل الأحاديث الحميمية مع عالية، حتى إنها دلفتا لإحدى محلات الحلوى ليستكملا حديثهما، سألتها عالية عن حبيبها الخائن، ردّت نورا بأنها بصدد إتمام زواجها منه وأن كل الأمور على ما يُرام،

سألتها عالية كأنها تُحدّث نفسها:

- وكيف غفرتِ له؟

- بإمكانى أن أكذب عليك الآن وأقول إنّى تأكدت أنه لم يفعل، أو أنه توسل وترجى حتى أُسامحه وأعود .. لكن أيًّا من هذا لم يحدث.

صمتت بُرهة وعادت تقول بنبرة صادقة باكية دون دموع:

- الحقيقة أنّى أنا من عُدت للاتصال به وأعدت العلاقة، واشترط هو على حتى يعود ألا أستمر فى عتابه... وقبلت.

- أهذه الدرجة تحتاجينه؟

- أُحبه وأحتاج إليه يا عالية .. الحب والاحتياج واحد.

- لا يا نورا .. فرق بين أن نُحب لأننا نحتاج وأن نحتاج لأننا نُحب .. فالاحتياج عندما يتحقق لا يُغنينا عن الحب .. لكن الحب عندما يتحقق يُغنينا عن الاحتياج.

- ما كل هذه الفصاحة يا عالية .. تغيرت .. كنت أشعر أنك مُتحفّظة للدرجة التى تُنكر لامعقولية الحب.

ردت عالية بضحك: اطمئنى الآن يا نورا، فقد هجرنى المنطق منذ زمن.

- نحن لا نفقد المنطق إلا عندما نعشق.

صمتت عالية ثم غيّرت الحديث لآخر حتى لا تنكشف مشاعرها التى ملأتها وفاضت، وهى فى طريق العودة كانت ساهمة تسأل نفسها كيف سامحت نورا حبيبها وتخطت خيانته؟ لكن ألم تتخط هى أيضًا خيانة محمود وحاولت بكل الطُرق أن تعود لحياتها معه، قبل أن يرحل عنها؟ ربما لو كانت تخطتها بصدق لكانت حياتها معه عادت، أمّا أن تقنع نفسها بالحياة معه من أجل الصغير والمظهر الاجتماعى واعتبارات أخرى، فقد حكمت على حياتها بالفشل، نعم، هى أبدًا لم تُسامحه لذلك كانت نهايتها وشيكة، والآن هى مُصّرة على

عنادها وعلى عدم مسامحة حسن، لقد سئمت من التسامح، تلك الصفة البائسة، صفة الحمقى، لكن ألم يكن عدم التسامح هو أول طريق النهاية؟ تؤلمها هذه الفكرة المُتقافزة فى رأسها دائمًا، أن سعادتها مرهونة برجُل، مثل نورا ومروة وعُلا وكل صديقاتها، الفرق أن نورا تعيش وحيدة وتحتاج لأنيس وأب لابنها، لذلك الاحتياج عندها سبق الحب، أمّا هى فقد وقعت فى شرك الحب لأن مشاعرها كانت مُتيبّسة، فكّرت أنه قياسًا بأمور الحياة لم تكن فى حالة احتياج عندما غزا مشاعرها .. غريب عاطل عن العمل محبوب الفتيات وأصدقاؤه من الصعاليك، لم تشعر بحاجة لأن تتزوجه، أو أن تتزوج من الأساس، فهى تُحبّه وفقط، دون فروض أو شروط أو أسباب.

عندما وصلت للمنزل كان الوقت مازال أمامها، لعبت قليلًا مع كريم ثم تركته للنوم المُبكّر وذهبت تُزجى وقتها على الانترنت، فتحت البريد الالكترونى لتجد رسالة طويلة من ياسر صديق محمود، هذا الرجل الذى حاولت خيانة محمود معه وفشلت، كانت رسالة غرامية بديعة بلُغة راقية جذّابة، أخبرها أنه لا ينفك يُفكّر بها كل يوم وساعة، وأنه قلق بشأنها، وأنه رغم كل الحوائل بينهما إلا أنه يتمنى أن يعود قريبًا منها كما كان فى أيام سابقة قليلة يعيش على أثرها، كان يعلم بسفر محمود وقدّر أنها تحتاج إليه، يالللرجال!

يعرفون جيدًا أن المرأة تحتاج إليهم فيظهرون فى توقيت الاحتياج ليحصلوا على الحب المضمون، كان رقيقًا مهذبًا، حاول أن يبعث لها بين ثنايا خطابه رسائل الاحتواء ويستميلها بكل ما أوتى الرجل من قوة وتأثير، ثم أنهى خطابه بأنه ينتظر ردّها وظهورها مرة أخرى لترُد له الحياة، أو أن تسمح له على الأقل بمراسلتها كل حين، كانت تقرأ الرسالة وهى مُبتسمة ابتسامة كبيرة، فهى امرأة، وأكثر النساء إخلاصًا على وجه الأرض يُطربها الاطراء، ويُسعدها أن تتلقى رسالة بهذه المشاعر التى لا يكتُبها إلا أديب عاشق، أنساها هذا الخطاب الغُصّة فى قلبها من بُعدها عن حسن، وأنساها الزخم من الأسئلة التى كانت تُلاحقها

إثر اجتماعها مع صديقات الألم والهمّ، تمددت فى السرير ساعة كاملة وهى فى استرخاء تام، ثم بدأت تُفكّر إن كانت سترُد عليه برسالة شكر أم اعتذار، أم ستبعث له رسالة قصيرة جافة تقهر فيها مشاعره، ثم استقرت على ألا ترُد على رسالته.

أتى قرارها ليؤكد لها حقيقة أنها لم تُحب حسن نتيجة احتياج ما، فإذا كانت تحتاج إلى مشاعر جياشة واحتواء فكان أولى بها أن تنصاع لرومانسية ياسر فضلًا عن حسن الضجر الذى يُكرر كلمات العشق لحبيباته هنا وهناك، لكنها أحبته بكل ما فيه من تناقضات وعلل، رنّ هاتفها وكان الليل قد انتصف، ردّت فإذا بصوت طفل صغير مُتردد يسألها إن كانت عالية، قال لها بصوته الرفيع (حسن يُحبّك .. ويقول لك ثقى بي)، ثم أغلق الخط. ضحكت عالية وارتجف قلبها هذه الرجفة التى تخُصّ حسن فإذا به يتصل بها، ردّت هذه المرة دون تفكير، أتاها صوته رقراقًا كوشوشة عصفور فى جوف الليل، أخبرها أنه يشتاقها وردّت على شوقه بشوق أكبر، سمعت خطوات أُمها التى أتت على إثر رنين الهاتف، فخفضت صوتها وهى تختبئ تحت الوسائد والأغطية كمُراهقة، أثارها هذا الشعور أكثر فأباحت له أنها تُفكّر فيه ليل نهار وأنها كانت تتمنى أن تكون معه فى هذه اللحظة، خفض صوته أيضًا وهو يُثير شغفها بكلماته، أنهيا الاتصال وهما فى نشوة عارمة ورغبة حارقة كادت تفتك بقلبيهما. هكذا استمرا، يغضبان، يبعدان، ثم يعودا بالتصاق أكبر وبدون عتاب أو تبرير، كلاهما أرهقه العتاب فى حياتهما السابقة فحرصا أن يُصبحا طائرين ينتهزان لحظات الفرح ويسرقان لحظات السعادة رغمًا عن الحياة.

أخبرها فيما بعد أن نهى تغار من علاقتهما، وأنها كانت تُحاول بكل الطُرق أن تجمعها به علاقة، حتى إنها عرضت عليه أن تتزوجه فى شقة تدفع إيجارها وتفرشها من حسابها الخاص، ثم لمحّت أنها لا تُمانع أن تُرافقه فى شقّته دون زواج،

ولما بلغها منه اليأس ترجته أن تظّل صديقته، هكذا صدّقته عالية رغم أنه لم يُبرر معرفتها بمصطلحات العشق التى ظنّت أنه خصّها بها، صدّقته برغبة مُلحّة من قلبها أن يغُضّ الطرف عن هواجسه، فالقرب منه يُعيد لها الأنفاس بعد أن كان صدرها خواء بدونه، ويُغنى عن أى خصام وبُعد .. ويُغنى عن عقلها القلق وضميرها المتُعب .. فما أعذبه الرجوع إليه.

❊❊❊

obeikandl.com

(٢٠)

رنّ الهاتف فأغلقة بسأم وعاد لسريره المريح البارد، كل شيء فى هذه المدينة بارد ليس فقط السرير، الجو، الشوارع، وجوه البشر، التعاملات الانسانية، العمل، الطعام، حتى الشمس باردة، فى هذا البلد الدقيق فى مواعيده وأنظمته، لدرجة جعلته هو نفسه عاشق النظام والدقّة يكرههما ويُقرر فى نوبة تمرد وسأم ألا يذهب للعمل اليوم، الشهور تمُرّ به والأيام تتشابه حتى أنه أصبح يُحصى وقته بالشهور وليس بالأيام، وبمرور الوقت سيُحصيه بالسنوات كما أخبره صديقه الدكتور أيمن المقيم هنا منذ أكثر من عشرة أعوام، كان سعيدًا فى أيامه الأولى، شعر أن حياته أخيرًا سارت فى مسارها الطبيعى فى بلد مُتحضر، نظيف، يُقدّر قيمة العمل وقيمة العُطلة والاستمتاع، بلد يعترف بحقوق البشر فى حياة آدمية، ويُوفّر لهم الفرصة أن يحيوا بدون توتر القيود المادية وإرهاق العمل الذى كان يُمارسه ليل نهار فى مصر، وبدون حمل همّ المستقبل، والاضطرار للتعامل مع مديرين متسلطيّن نازيين، أو مع جيران أنانيين، أو أقارب لا يدرون شيئًا عن بعضهم البعض، أو بشر انتهازيين ومتسلقين، هنا الحياة هادئة، كل إنسان فى حاله وعطلة نهاية الأسبوع تجمع الأصدقاء فى خروجات مُمتعة ليست كلّها حانات ورقص وخمور كما يُصوّرها الاعلام، لذلك عشق حياته الجديدة وقرر ألا يُغيرها، إنما يُغير كل شيء آخر من أجلها.

لكن هذا السأم الزاحف إلى قلبه، المُستبد بوجدانه كاد يفتك به، نهض مُتكاسلًا، قام بكل طقوسه الصباحية ببُطء شديد، تناول فطور عبارة عن

شطيرة بيض باردة من الأمس يمنعه كسله من تسخينها فى الفرن الآلى الصغير، ثم جلس فى شُرفته الصغيرة يرتشف الشاى على مهل، لم يكن هذا الكسل يُداهمه وهو فى مصر، لكنه يشعر فى هذه الأيام أنه يريد أن يرتاح ويرمى بعبء قلبه الذى لم يشعر به أحد قط، فهذه عالية الطفلة المُدللة التى تزوجها آملًا أن تُصبح امرأة مسؤولة وقوية مثل أمه أو أمها أو أى من النساء حوله، ليفاجأ بأنها ليست أهلًا لأى مسؤولية، كان هذا سبب إصراره على ألا تعمل، خوفًا من أن يُصبح عملها عبئًا إضافيًا عليه، عبء توصيلها والاطمئنان عليها وسماع حكايات إضافية لثرثرتها الدائمة، ناهيك عن المشاكل العديدة التى ستواجهها وتُحبطها، وتكون النتيجة امرأة مشغولة تعيسة فى البيت، أراد أن يُجنبها ونفسه كل هذه الربكة، أرادها أيضًا امرأة واعية تستطيع أن تتصرف فى غيابه، تُنظّم وقته، تتحمل غضبه وتوفّر له الحياة المستقرة الهادئة.

عندما يُراجع تاريخهما سويًا، وكان يُراجعه كثيرًا بعد أن إستطاع أن يرتب أفكاره ورؤيته للأمور بشكل أوضح عندما هدأ الصخب حوله، ووجد نفسه وحده فى قاعة الحياة بعد انطفاء الأنوار، فى طريق طويل بذهنٍ صافٍ وفكر مُضيء؛ وجد أنه كان يُعاملها بنوع من الشيزوفرينيا، يُريدها امرأة مثيرة ويستفزّه اهتمامها الزائد بنفسها، يُريدها امرأة ناجحة ولا يترك لها مجالا للخروج ومواجهة المجتمع، يُريدها أنثى عذبة وامرأة قوية بمائة رجل، يُريدها ذكية مُثقفة ويخشى أن يهديها اطلاعها إلى ما يضر بحياتهما، هل كان يُطالبها بما يفوق طاقتها، أم بما يتناقض مع شخصها، ولماذا لم تُجد لعب كل الأدوار معه حتى تجعله يشعر بالامتلاء بدلًا من هذا الفراغ الكبير والتعاسة التى خلّفتها؟

كانت دائمة العتاب له، وأكثر عتابها كان عن تغيّره، كيف بعد أن كان يعشق كل تفاصيلها أصبح يضيق بكل ما فيها .. لم تفهم أبدًا أنه أصبح يريدها زوجة وأما وليس فقط حبيبة كما كان فى الأيام الخالية، دائمًا تُطالبه بالحب تستنزف عاطفته، وهو الرجل الذى يكره أن يُشعره أحدهم بنقص ما، ماذا لو تنازلت

هى قليلًا عن مطالبها وكانت له وسادة يرتاح عليها تحتوى أنفاسه المتعبة، بدلًا من أن تستقبله بعتابها وتودّعه ببكائها، هذا البكاء الذى لا يزيده إلا رغبة فى إغلاق كل النوافذ بينهما، أعصابه المشدودة دائمًا تُلهبها الدموع وتُمزّقها الشكوى، لكن لماذا يُفكّر الآن بطريقتها، يُفكر بما يُريده منها ولا يُشغله ما تُريده هى، ربما الأمور كانت لتُصبح أفضل إن كان ترك لها بعض المجال للطيران، فأنينها فى الشرنقة هو ما كان يُنغّص حياتهما، وطريقته الخشنة فى إدارة الأمور هى ما جعلتها تنفر أكثر ويكبر ألمها عن حجم الشرنقة، فتحلم بالطيران بعيدًا عنه، هذا الهدوء الذى يعيشه فى هذه الأيام جعله يُفكّر فى عالية باستمرار، كان يتذكر نظرتها المذهولة المُنكمشة وهو يبطش بها، يتذكر نظرتها المُتوسّلة وهو يُخاصمها ويفرض عليها العقاب، ونظراتها الأخيرة التى كانت تتجنبه، ترفضه وتقول له (لم أعد أُحبّك).

كان يخشى فى قرارة نفسه أن تُصبح عالية همّت أخرى، همّت أمه، المرأة القوية التى كانت تتحكم فى كل أمور حياتهم، ولم يكُن فى البيت صوت أعلى من صوتها ولا كلمة أهّم من كلمتها، لذلك فضّل أن يُمسك هو بزمام الأمور ويُقلّص من دور عالية حتى لا تصل لقوة همّت، مع ذلك لا يملّ من أن يُقرّعها ويُطالبها دائمًا بأن تكون امرأة مسؤولة قويّة، لم ينس وجه أبيه المضطرب وهو يُحاول مرارًا أن يجعلها تخضع له دون فائدة، خجله المكتوم عندما تُصدر هى القرارات، وهروبه للجلوس على القهوة تحاشيًا لغضبها الدائم، حتى إنه كان يتذلل لها أيام شبابه لتُرافقه للنوم قبل أن تجعله ينام فى غرفة أخرى فى سنواتها الأخيرة، لم تمرّ هذه المشاهد أمامه مرور الكرام، إنما كان يتمنى دائمًا ألا يُصبح يومًا ما فى مكان أبيه، الحل الوحيد كان فى أن يتحكم فى رغباته ويجعلها آخر ما يُمكن أن تُلوى منه ذراعه، هكذا كان ينتظر دائمًا مهما طال الانتظار حتى تطلب عالية أو تُلمّح أنها تريده، وأصبحت عادته أن يُفرّق بين حبهما وعلاقتهما، فالعلاقة من وجهة نظره فى آخر قائمة الاحتياجات ولا تعنى بالضرورة أن حياتهما بخير، لا تدُل على مقدار الحب بينهما، ولن تكون يومًا سببًا لذُلّه.

ارتدى ملابس رياضية، ونزل يتمشّى فى المضمار الكبير الذى يُحيط الحى ويستخدمه الجميع للمشى والبعض للجرى، وكل هؤلاء، الجميع والبعض، لا يتعدون سكّان عمارة قديمة من عمائر القاهرة، أكثر ما يُعجبه فى سُكّان تلك الضاحية هى أن لا أحد يتدخل فى شؤون غيرة أو ينظر له مجرد نظرة مُقتحمة لخصوصيته، الخصوصية هناك لا تعنى ما تفعله فى منزلك، إنما تعنى أن كل ما تفعله فى الداخل والخارج هو خاصتك ولا أحد عليه أن يستنكر أى شيء، كانت تروقه هذه العادات التى تُعطى الحياة بعدًا آخر للحُريّة، كانت عالية تُحب التمشية أيضًا، لماذا يذكرها فى كل تصرف يقوم به، حتى إنه يتذكر طريقة أكلها المُميزة التى تجعله لا يشعر أنها تأكل، فالطعام ينتهى من أمامها وهى تمارس حركات بسيطة رقيقة لا تدل على أنها تأكل، خطواتها السريعة التى تجعلها دائمًا تسبقه فينهرها حتى تكون جواره ولا بأس لو خلفه، طريقتها الطفولية فى مشاغبته حتى تقتنص منه ضحكة عزيزة، كيف تركها وذهب لقارة أخرى وهى مازالت تُطارده؟ بل إنها لم تكن تطارده بهذه القسوة وهى جواره، كان ناقمًا عليها فى الشهور الأخيرة بالذات لأنها دفعته لهذه القصة برُمّتها، قصة فرح، هى من جعلته يبحث عن الاستقلالية والعقل المتحرر فى امرأة غيرها، كان هذا يوم أن خرج مع صديقه وكان مُكفهرًا، غاضبًا من حياته مع طفلة لا تكترث إلا بنفسها وبمشاعرها، فأشارعليه صديقه بأن يُروّح عن نفسه باستخدامه لذلك الاختراع الواسع الذى جعل من العالم حارة ضيّقة وليس فقط قرية صغيرة، الانترنت، كانت هذه بداية معرفته بالعديد من النساء، يُعاملهن برقّة وبداخله احتقار شديد لهن وشعور بأنهن فارغات ومُنحرفات أكثر من المومسات، لأن المومسات على الأقل واضحات أمّا هؤلاء فهُنّ بوجوه منضبطة متديّنة أمام الجميع وفى الغرف المغلقه عاريات فى انتظار الحب.

فرح لم تكن مثل هؤلاء ممن صادفهن فى بحثه على الانترنت، كانت واضحة صريحة، كوجه مُضيء بدون ذرة زينة، نوره حيوية، جذبته جرأتها التى لم تصل

لوقاحة الأخريات، كانت جُرأتها صادمة لكن لم تُثر اشمئزازه، عندما طلب مقابلتها وافقت على الفور وعندما رآها كانت مثلما تخيلها، ومثل الصور التى تملأ بها صفحاتها دون خجل أو تصنّع، جسد قوى يشع حيوية، خطوات واثقة وعينان لهما نظرة مثيرة دون أن تتعمد الإثارة، صدمته الثانية كانت عندما طلبت منه أن يُشعل لها سيجارتها، وجلست قبالته تُدخّن. كانت حياة تمشى على الأرض، ضحكتها العالية، البهجة التى تنثرها أينما ذهبت، صرامتها وقدرتها على التعامل مع الغرباء والسيطرة على إدارة مشروعها الخاص دون الحاجة لأحد، افتُتن بجرأتها ثم أسرته استقلاليتها وتحملها التام للمسؤولية، كانت النقيض لشخصية عالية السطحية، الهزيلة، العنيدة مثل بغلة، شعر معها بالصداقة، فكان على عكس عادته يحكى لها ويستعين برأيها فى عمله ومعاملاته، وكانت ذكية سريعة البديهة، جعلته يعترف لها بحبّه ببساطة ودعته لبيتها ببساطة أيضًا، ليسمعا معا الموسيقى ويتناولان طعامها، لم يسحره الطعام يومها بقدر ما سحره ما فعلته فى المطبخ.

تعمّد ألا يُغضبها فتتكرر الزيارات ويستطيع أن يستمتع بوصلها دون أن يكون بينهما سيف العادات الشرقية، ظهر فى مظهر رجل غربى معتاد على زيارة صديقاته، دخل معها المطبخ بحجّة مساعدتها وما كان يريد إلا أن يكون معها فى مكان ضيّق وحدهما، لاحظ أن مطبخها وحياتها فوضى عارمة ضد طبعه المُنظّم، لكنه تغاضى الطرف عن أن يوجّه لها أى لوم، تركت الطعام على النار وأشعلت ناره هو عندما أحضرت قطعًا صغيرة من الشوكولاتة ووضعت بأناملها قطعة فى فمه وهى تضحك بإثارة، ذابت شفتيه من مسّها قبل أن تذوب الشوكولاتة، سألها كطفل أن تُكرر ما فعلته ثانية، فأجابته أن هذه الشوكولاتة لا تُأكل هكذا، إنما تُأكل هكذا، ووضعت قطعة أخرى بين شفتيها ثم اقتربت من شفتيه لتضع بينهما ما تبقّى من الشوكولاتة الممتزجة بطعم شفتيها، انهارت صرامته فى هذه اللحظة وبادر بالتهام شفتيها لكنها منعته بدفعة من يدها، لم تكن تُريد أكثر من أن تُشعله وتجعله يخرج عن تحفّظه، كانت وقود مشاعره، لم يشعر معها

أبدًا برغبته الدائمة فى أن يكون الممسك بمقاليد الأمور والمُتحكم فى كل شيء، كما لم يُفكّر معها فى أن يُجنّب رغباته ويتركها هى لتقترب، أخذ هو هذه المبادرة وكانت تُطاوعه حينًا وتتمنع عنه كثيرًا، حتى طلب منها الزواج ليُبطل حجّتها فى التمنّع.

فى حقيقة الأمر كان ينتوى أن يتزوجها زواجًا عُرفيًا فى شقتها وأن تُساعده فى المصاريف، فهو لا يقدر على المزيد من المسؤوليات وهى امرأة ناضجة تخطت الثلاثين، حمولة وقوية، سيوفّر لها الحب والأمان وتُصبح حياتها مرفأ للراحة والسعادة، ثم إنه لا يريد أطفالًا ولا إشهارًا، كما أنه لسبب لا يعلمه غير واثق من أن يدوم زواجها، الأمر كلّه أشبه بمغامرة، ورغم كل شيء لم يكن ينوى أن يترُك عالية، ولم يُرد أن يجرحها فيظل جدّار من الغضب بينهما دائمًا، ولا غنى له عن الحياة التى وُلدت فى قلبه بوجود فرح، انشغل بحياته سعيد بوجود عالية المخلصة الطيبة وفرح وقود القلب، لكن عالية فاجأته بتململها من حياتها معه ومحاولتها للخروج عن قوانينه، فرح أيضًا فاجأته بملاحقتها له، وبضيقها من انشغاله ومسؤولياته التى كانت تُدركها جيدًا منذ عرفته، فأصبح بين امرأتين غاضبتين، مُعاتبتين، عرف حينها أن كل النساء تتشابهن فى رغبتهن المُلحّة للعتاب، لكن كل واحدة لها طريقتها، منهن من تُعاتب بعينيها، ومنهن من تُعاتب مباشرة بكلامها ليل نهار، ومنهن من تُعاتب بهجر وخصام، هكذا عاش شهوره الأخيرة بمصر فى سأم وضجر بين امرأتين تكيلان له النكد، ومع أنه رجل مُحصّن يصعب جرحه، لكن فرح التى أدخلت الفرح على قلبه المهموم كانت هى أيضًا سبب جرحه الكبير.

عندما بدأت تقوم معه بالدور الذى اعتاد هو القيام به مع عالية، التقريع الدائم، العتاب واللوم الدائمين، الغضب غير المبرر والخصام الفاجر، ثم بعدت بمشاعرها عنه، أصبحت لا تستقبله فى منزلها وتُقابله فى المقاهى ببرود، لا ترُد على اتصالاته بحبيبى، لا تبثّه الشوق وتتدلل عليه، لم تعد تُعطيه فرصة أن

يُفضفض همّه إليها أو يطلب رأيها فى أمر يخُصّه، حتى كانت القشّة التى قصمت ظهر علاقتهما عندما سمعها وهى ترُد على اتصال أحدهم بحميمية، ولم يُعر الأمر انتباهًا لأن الحميمية كانت عادتها فى الحديث مع أصدقائها، وهو يعرف أن لها أصدقاء من الجنسين وعلاقتها بهم خط أحمر، سكت ليس إراقة لسعادتهما لكن لأنه لم يشعر بغيرة حقيقية عليها، لم تكن علاقته بها مثل عالية التى يُجنّ لو رآها تُحدث أحدهم بودّ، لم يكن يُثيره أن تضع فرح صورها على الانترنت وتُحدّث الجميع وتُعلن عن مركز التجميل خاصتها بمرح، لكنه لم يسمح لعالية أبدًا أن تضع صورة لها على الانترنت أو أن يكون ضمن قائمة أصدقائها رجل غير أقاربها، لاحظ هذا الأمر عندما سافر وبدأ يرى الأمور من زاوية أوضح، حدسه أخبره أولًا أن هناك رائحة آخر تنبعث من ضجر فرح الدائم، ثم بدأ يتقصّى أخبارها وراقبها ذات يوم وهى ذاهبة لمقابلته، عندما وجد على وجهها الوهج القديم أدرك حينها أنها لم تعُد له وأن كل ما بينهما يحتضر.

لكنه لم يُسلّم بسهولة، حاول أن يستعيدها بكل الطرق، خياله وقتها صوّر له أنه لا يستطيع أن يحيا بدونها، شعر أن بساطه السحرى ينزلق من تحت قدميه، إنها تهجره بطريقة قاسية، بالإهمال والبرود، وهو رغم كرامته الأبيّة لم يستطع أن يبعد، بل راح يُرسل لها الرسائل، يشترى الهدايا، يُقدّم الورود ويحاوطها باهتمامه محاولًا أن يُسرع بخطوة الزواج، لكنها قطعت بفأس قسوتها الذى ما كان يعلم بوجوده كل الروابط بينهما، بأرخص شكل ممكن، وجد نفسه يسقُط فى بئر عميق مُظلم من الخيبة، فبعد أن ساءت حياته مع عالية وباع ودّها ليشترى رضا فرح، الآن أصبح صفر اليدين، فلا فرح هنا لتُسعد أيامه ولا مشاعره تُريد أن تعود لعالية، ذلك الإحباط هو ما دفعه للبحث عن السفر.

وقد أعدّ نفسه لأن يكون وحيدًا فى الأيام المقبلة حتى يتمكّن من أن يستعيد حياته القديمة، ثم أتت عالية بحماقتها وسوء تقديرها لتعبث بآخر رُقاقات صبره، أطاحت بكلامه ونزلت لميدان الصعاليك كما يسميه، ماذا كان ينقصها

تبحث عنه بين الطُرُقات، أن تُصبح صُعلوكة أخرى؟ ضاقت بحياتها الهانئة وطلباتها المجابة والقصر الذى تسكنه فأصبحت تبحث كالمجذوبة عن حياة أخرى بين صناديق القمامة؟ لكن ليس هذا وحده ما جعله يُطلّقها.

حتى الآن لا يعلم لماذا تلفّظ بلفظة الطلاق، حاول أن يُعدد الأسباب منذ أتى إلى إنجلترا وقد وجد الكثير من السلبيات بينهما، لكنه لم يجد السبب القوى الذى يستطيع أن يواجه نفسه أو يواجهها فى يوم من الأيام به، شعر أنه فعل هذا لينتقم من نفسه ومن غضبه ومنها لأنها كانت سببًا غير مباشر فى خوضه علاقة حب، ضبط نفسه مرة أخرى رغم البُعد يُكيل لها الاتهامات واللوم، لا أحد يستطيع أن يُغير عادته بسهولة. هل يجب علينا أن نقبل عيوبهم ليقبلوا بعيوبنا؟ أفاق من أحاديث ذاته على هاتفه الذى كان يتراقص فى جيبه دون رنين، الدكتور أيمن صديقه الوحيد فى الغربة، كان قلقًا بعد أن مرّ بالشركة ولم يجده، وكان يشعر بالوحدة والبرودة هو الآخر خاصة بعد سفر زوجته وبنتيه إلى مصر، فعرض عليه أن يصطحبه لمكان جديد ينزع السأم من روحهما.

لم تمر سوى دقائق فى هذه الضاحية الخالية إلا وكان أيمن أمامه بسيارته، ركب معه فوجده يُشغّل أسطوانة بها أغنية لأم كلثوم، بعثت فيه الدفء، ابتسم ابتسامة كبيرة وهو يتذكر مصر، شوارعها الضجرة، نهارها المُزدحم، وجه أمه، عالية وهى تتمسح فيه كقطة، كريم وهو يُلقى بنفسه فى حُضنه عندما يعود من العمل، سهرة مُريحة أمام التلفاز وهما حوله يتبادلان الحديث واللعب، أغمض عينيه وتمنى لو ينام ليصح ويجد نفسه فى بيته فى مصر مُستلقٍ على الأريكة فى غرفة المعيشة فى انتظار أن تنتهى عالية من إعداد الطعام بينما كريم يلهو بين يديه، وجد نفسه يسأل صديقه:

- كيف استطعت أن تُقاوم حنينك كل هذه السنوات؟

- أُسافر كل عام رغم صعوبة الإجازات وارتفاع النفقات .. الأيام التى أقضيها هناك بين أهلى تُطفئ لهب الحنين الذى يعود ليشتعل عند عودتى .. هكذا تمرّ السنوات.

- هذا حلّ جيد .. لكن أنا لا أنوى العودة.
- كنت مثلك يا محمود .. مُكابرًا فى حنينى .. أُعاند الطبيعة البشريّة.
ستعود يومًا وسأُذكّرك.

أشاح محمود بيده وظل يُراقب الطريق الذى بدأ يضيق ويحدّه الأشجار العملاقة والخُضرة الكثيفة كأنهما فى طريقهما لغابة، لكن حتى السؤال لم يستطع أن يطرحه، يسمع أم كلثوم ويمضغ حنينه وألمه فى صمت، إلى أن سمع صوت انسياب مياة يرتفع كلما اقتربا، بدأت الشلالات تظهر على جانب الطريق، وقفا فى مكان مخصص للسيارت ظهر فجأة بعد الشارع الضيق الطويل ولم يكن به سوى سيارات قليلة، هناك وجد محمود نفسه فى الجنّة، لم تكن الأرض الخضراء المنبسطة والتل الكبير والشلالات العظيمة المتدرجة حتى تصل لنهر صغير إلا مظهرا من مظاهر الجنّة، هذا الهدوء الذى لا يُعكر صفوه إلا هدير المياه وزقزقات العصافير المُتنقّلين بين الأشجار، والسماء التى تعكس صفاءها على الأرض، هذا الغزال الذى يركض هناك دون خوف، والأرنب البرّى الذى يتقافز بين الشتلات القصيرة، كل هذا الجمال يجب أن يجعله أسعد إنسان على الأرض، بقيا هناك فترة طويلة دون حديث، فقط يتأملان الطبيعة الصارخة حولهما، سأله محمود:

- هل تأتى هنا كثيرًا؟

- عندما أشعر بأنى مُزدحم بشعورٍ ما .. آتى هنا حتى أتخلّص من أفكارى وأملأ نفسى بهذه الروعة ثم أعود للدنيا مرة أخرى.

تعجب محمود من حديثه الذى يُقطّر مشاعر .. سأل نفسه كيف لرجل أربعينى يعمل مع المرضى والألم والدم أن يمتلك مثل هذا الحس الراقى والأحاسيس المُرهفة التى كان يظُنّها حكرًا على النساء؟ ثم تذكر أن كثيرًا من الأدباء كانوا أطباء فى الأصل، يبدو أن الدراسة العلميّة والتعامل المباشر مع الألم يُكسبهم هذه الروح الشاعرية، سأله صديقه الطبيب:

– اعذرنى إذا كُنت أتطفل عليك .. لكن لماذا لا تُرسل لأسرتك حتى يأتوا للعيش معك هنا؟ سيُحدث هذا فارقًا عظيمًا.

جاوبه محمود دون تردد، وكان قد ملّ من إخفاء الأمر:

– لأنى قد انفصلت عن زوجتى قبل أن آتى إلى إنجلترا.

لم يُبد الدكتور أيمن أى إندهاش أو تأثر، كأنه أمر يسمع عنه كل يوم، ثم عاد ليسأله:

– وماذا تُخطط لحياتك القادمة؟

– لا خطط .. فقد سئمت الخطط والتنظيم والعمل على المستقبل .. أنا هنا كى لا أُخطط.

– لكن إذا كنت اتخذت قرار الانفصال فعليك ألا تُضيّع الباقى من حياتك على أطلال ماض، إمّا أن تعود لماضيك وتبعث فيه الحياة من جديد، وإمّا أن تخوض فى حاضرك ومستقبلك دون ذرة خوف أو حزن.

– ماذا تقترح على أن أفعل فى جنّة كهذه وأنا وحدى؟ ربت على كتفه كأنما يُذكّره بوجوده جواره:

– أقترح عليك أن تُحاول مرة أخرى مع ماضيك .. بروح جديدة.

– لا، لا .. أنا لن أعود لحياتى مرة أخرى .. أنا لم أعُد أطيق كل هذا النكد.

– المرأة بطبيعتها تميل للنكد .. صعب أن تجد امرأة مثيرة للبهجة .. إلا هؤلاء من كُنّ لسن زوجاتنا.

ضحك محمود بمرارة.

– المرأة سرّ والرجل الذى يريد أن يعرفه يتعذب .. فالعذاب هو ثمن حب المعرفة .. لكن الذى يفتح أقفال المغارة يجد الكثير من الكنوز فى انتظاره .. يجد نفسه فى عيون المرأة المُحبّة التى تراه من عيون تُصغّر الأشياء الكبيرة وتُكبّر الأشياء الصغيرة، ويرى سرّ العلاقات الانسانية ولُبّ السعادة والعطاء.

- كلما حاولت الاقتراب من عقلها صدمتنى سطحيته.

- ذلك لأنك اقتربت فقط ولم تخترق .. المرأة تُحب الرجل المقدام، الصقر أو الذئب، لأنها تعشق أن تكون فريسته، فألذّ أدوارها دور الضحية، لذلك يجب أن يكون الرجل صيادًا ماهرًا.

- أنا كل وقتى للصيد .. لكن لصيد لُقمة العيش حتى تستمر الحياة ولا تُطيح بنا الأعباء.

- وهذا أول طريق فشل العلاقة بين الرجل والمرأة .. فهى تكره أن تكون منشغلًا عنها .. لذلك ينجح العاطلون فى الحب بينما يفشل العلماء والعظماء .. يجب أن تُعطى المرأة من وقتك واهتمامك وإلا ردّت لك الانشغال بانشغال أكبر.

- لذلك وفّرت عليها أن تنشغل عنى وتركت كل شيء وراء ظهرى وبعدت.

- هذا لم يكن اقتراحًا سيئًا، فعندما تبعد عن حبيبك لبعض الوقت سوف يكون استعداده للعطاء أكبر ومشاعره ستكون أعمق .. أنا واثق من أن هذا البُعد فيه دواء لحياتك.

لم يقتنع محمود وراح يقُصّ على صديقه بعضًا من تفاصيل النهاية مع بعض التحامل على عالية، كان بحاجه لمن يُخبره أنه على صواب وأن هذه هى النهاية الحتمية، لكنه لم يجد من صديقه إلا التبرير.

- هى فتاة مُدللة لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية بيت أو زوج مثل غيرها من الزوجات .. وقد نفدت محاولاتى معها دون فائدة.

- من كان يُعدّ طعامك ويُدفئ فراشك ويهتم بنظافتك ونظافة بيتك، يسأل عنك ويهتم بأمرك إذن؟

- أظن أن هذا واجبها وأقل ما يمكن أن تفعله.

- لا يا عزيزى نحن من لا نرى لأننا نعتاد هذه الأشياء ونظل نطمح فى المزيد ونُريد كل ما لا تملكه يدانا.

- أنا لا أريد نصائح أرجوك .. الموضوع لم يكن فقط تقصيرها، الأدهى أنها

خرجت عن سُننى وقوانينى فلم أعد أطيق أن أعيش مع كاذبة تتمنى الفرصة التى أُدير ظهرى فيها حتى تعبث بحياتنا مثل الأطفال.

– هذا تصرف متوقع .. إذا كنت تريد أن تحبس أى مخلوق فهو سيعيش عمره كله فى محاولات الهروب من سجنك وقوانينك .. يا صديقى خُلقنا لنتفاهم ونتفق وليس لنأمر وننهى .. الأمر لله فقط .. أمّا الحب فهو لقاء والتقاء، تعايش واستمرار .. تجديد وتعديل، لا يهم أن تختلفا أو تتفقا، المهم أن يكون كل منكما لديه الاستعداد للتضحية من أجل الآخر.

– وماذا لو رأيت امرأتك تهوى إلى قاع أو ترمى بنفسها للتهلكة .. الرجل مسؤول عن رعيته والحفاظ عليها.

– للحب أيضًا مسؤولية .. مسؤولية الاهتمام به والحفاظ عليه .. ثم كونك مسؤول عنها وعن الحفاظ عليها لا يعنى بالضرورة أن تفرض عليها القوانين .. خاصة فى هذا الزمن .. زمن الثورة!

– آه، لا تُذكّرنى بهذه النكسة أرجوك .. أصبحت مصر بعدها عزبة كبيرة لكل من يريد أن يسرق وينهب .. أضاعوا البلد وأضعفوا الحدود، جعلوا من البهائم آدميين .. وعلا صوت من كان لا صوت لهم.

– الحديث فى السياسة يُشجينى .. لا يمكن أن نتحدث هنا، لكن لو قابلتنى مساء عند المقهى العربى يمكننا أن نجد مُتسعًا للأحاديث السياسية.

سبقه الدكتور أيمن للسيارة ليستمع للمزيد من الأسطوانات العربية، وذهب هو لأعلى التل، وقف بتردُد فى البداية ليجد أن المنظر تحته أشدّ روعة مما حوله، مروج واسعة يتخللها نهر صغير وبعض العُشاق المتناثرون هنا وهناك، بدأت نسمات الهواء الباردة تُزيل ترددة، فوقف على القمّة، فرد ذراعيه، تنفس بعمق وكأن صدره لأول مرة يعرف الأكسجين، ثم صرخ بصوت عال ليُشهد الكون (أنا لن أعود)، (طز فيكِ يا عالية)، (طُز فيكِ يا فرح)، (طُزّ فيكَ يا محمود)!

❋❋❋

(٢١)

اقتربت من ميدان رمسيس لتجده فى انتظارها عند محطة المترو كما اتفقا، كان أكثر وسامة من أى يوم، على غير عادته كان يرتدى بنطالًا من القماش وقميصًا أزرق يُظهر صلابة جسده وامتشاقه، وقد هذّب شعره الطويل وذقنه، عيناه كانتا تبرقان باللهفة ويزيد بريقهما كلما اقتربت منه، حتى إنها كادت تضعف تمامًا وتطلب منه أن يقضيا اليوم بأكمله فى الإسكندرية بعد أن كانت قد اشترطت عليه أن يذهبا ويعودا بعد المقابلة فورًا. برغم أن الشتاء قد ولّى أهدته الكوفية التى كانت تحيكها فى الأيام الماضية، بدأتها وهى لا تدرى إلى من ستكون، صنعتها وهى تبكى، وهى حزينة، وهى عاشقة تشتاق وتئن، وضعت بها كل مشاعرها، وما كانت تصلح إلا أن تكون كوفية يتلفح بها وتُلامس جسده الحبيب، فرح بها كأنها أول هدية فى حياته، وأهداها قُبلة سريعة مُمتنة على وجنتها.

جلسا مُتقاربين فى القطار، حدّثها عن ذكرياته العديدة فى الاسكندرية وكيف أنه يعشق كل شبر فيها، حدّثها عن تفوّقه فى السباحة وإحرازه بطولات فى زمن مضى، وعن مكتبة الاسكندرية والندوات التى ألقاها هناك، والساعات الطويلة التى قضاها بها للقراءة والاطّلاع، كانت حكاياته مُتصلة وجذابة مثل محاضراته حتى إنها لم تشعر بالساعات التى مرّت إلى أن وصلا، كان إصغاؤها إليه متعة فى حد ذاتها، وهى المعتادة على الحديث دون أن يُصغى إليها أحد، رغمًا عنها كانت تُقارن بينه وبين محمود، محمود كان يكره الاسكندرية ولا يهوى السباحة، كان لا يهتم بالقراءة إلا الجرائد والمجلات الأجنبية، وكان يكره القطارات ولا يُقنعه إلا أن يقود سيارته حتى لو لآخر الدنيا.

وصلت للشركة، كانت متوترة ومشدودة، إنها أول مقابلة عمل لها وهى التى لم تعرف أن تكون إلا ربّة منزل، ولم تنجح فى هذه المهمة أيضًا، فى يدها كانت تصاميمها الفائزة وتصاميم أخرى متنوّعة، كانت ترتدى ثوبًا من تصميمها، وأمسكت بحقيبة كبيرة من القش أيضًا من تصميمها، حسن كان يُشجعها بكلماته الحلوة ومداعباته الرقيقة، قارنت مرة أخرى بينه وبين محمود، لو لم يرفض الفكرة لكان رافقها متضررًا صامتًا، وقبل المقابلة تمامًا كان سيعطيها بعض التعليمات والتنبيهات المفيدة. دخلت على مدير الشركة الذى رحبّ بها وأبدى إعجابه بثيابها، تبادل معها حديثًا تعريفيًا علمت من خلاله أنه قضى سنوات شبابه بأوربا والنمسا تحديدًا، حيث كان يقوم بعمل ديفليهات وعروض أزياء للملابس العربية، لكنها كانت عارية ومثيرة على حد قوله، لأن هذا كان شرطًا للنجاح والشهرة، ثم تغيرت قناعاته عندما قام بفريضة الحج، عاد بعدها وقد قرر أن يُغيّر من أسلوب عمله حتى لو هبط نجمه وتدهور نجاحه، وبالفعل استقر فى الاسكندرية وقرر أن يكون حلمه المُقبل أن يصل للعالمية من خلال ثياب محتشمة تعتمد بالأساس على روعة التصميم وتفرّده، كان حديثه يدعو للحماس وكلامه عن حلمه المُقبل رغم أعوامه الستين جعلها تشعر أن عليها مسؤولية كبيرة لتُساعد هذا الرجل الطموح المُلهم على تحقيق حلمه وحلمها.

غادرت المكتب وهى شعلة من الحماس، تُريد أن تعود بسرعة لتبدأ العمل فورًا، وجدت حسن يتصفّح هاتفه فهجمت عليه بفرحة، كادت أن تحتضنه، حمل فرحتها بين ذراعيه ولم يعنه المكان والزمان فقبّلها على وجنتها المتورّدة من الفرحة وضمّها لصدره ضمّة صغيرة، محمود كان سيقول لها مبروك وعلى وجهه ابتسامة كاذبة، ركضا كمراهقين من الشركة حتى الشارع وهما يضحكان وفراشات الفرحة تُحلّق وراءهما، قال لها: اتركى لى نفسك اليوم، أخذها للبحر الذى كان كأنه ينتظرهما، جلسا مُتقاربين على الشاطئ دون أى تحفُظات، لم تبحث

عن الظلّ خوفًا من قسوة الشمس ولم تتحر مكان الجلوس خوفًا من أن تتسخ ملابسها كعادتها، لم تنتبه للبشر من حولها، لم تر غيره هو وأزرق البحر ونور الشمس فى لوحة بديعة رسمها العشق فى عينيها، سمع منها الحكاية عدة مرات دون ملل، بل ووعدها أن يُحاول قدر المستطاع أن يُصاحبها كل مرة تأتى فيها للتدريب، واقترح عليها أن يذهبا بالسيارة، لكنها رفضت دون تشدد حتى لا يفقدا روعة اللحظة فى نزاع آخر، كانت تتحاشى معه كل ما كان يُنغّص حياتها مع محمود، لمست فرحته الجليّة بها حتى إنها تعجبت وأخبرته:

– لم أكن أتخيّل أن يسعد رجل بنجاح حبيبته لهذه الدرجة .. أنت غيّرت فكرتى عن الرجال.

– الحبيب مسؤول نفسيًا عن محبوبته يا عالية، إذا سألته أجابها وإذا طلبت منه أعطاها فورًا، وللعطاء سعادة مثل سعادة الأخذ وأكثر، يقول ماركس خذ الإنسان كإنسان والحب بالحب والثقة بالثقة .. فإذا أردت أن تكون مؤثرًا فى إنسان يجب أن تتأثّر به أيضًا.

– هل هذا يعنى أنك تأثرت بى؟

– لا طبعا، أنا لا أتأثر بأحد .. أنا أُجاملك فقط بالتأكيد.

ضحكت عالية وهى تلكمه فى ذراعة، ثم عادت لتحاوره:

– لكن مسؤولية الحب ممكن أن تتحول لسيطرة وتحكم.

عرف أنها كانت تُشير لحياتها قبله، وقد اعتاد طريقتها فى التلميح لهذا الأمر دون الحديث المباشر عنه،

– المثل الفرنسى الذى أؤمن به كثيرًا يقول أن الحب ابن الحُريّة، والحُريّة لا تدعو للاستغلال والتحكم، الفرق يا عالية هو أن مسؤولية الحب يُرافقها اهتمام واحترام، بدون هاذين العاملين الحب يتحوّل لأداة للسيطرة.

صمتا قليلًا وكان صمتهما يُغنى عن ألف حكاية .. الصمت بينهما كان حياة، فتح هو أزرارًا من قميصه وهو ينفُخ بضجر من الحرّ، مغصوبة نظرت إلى صدره

الأسمر الذى وقعت عليه أشعة الشمس فجعلته بلون الشوكولاتة، وكأنها لأول مرة ترى صدر رجل عار، كان مُتوهّجًا يُشعّ حرارته فى وجهها الذى اصطبغ بالخجل، ارتبكت وصمتت وهى لا تستطيع أن تُبعد عينيها عن الشوكولاتة، تخيلت أنها تلتهمها وأن آثارها تملأ وجهها وشفتيها، دافئة ولذيذة بطعمه، خيالها أربكها أكثر، إلى أن سمعت ضحكته الصغيرة وهو يقول:

- أعرف ما يدور برأسك.

نظرت له باستنكار وهى تسأله: ما هو؟، أجابها: نفس ما يدور فى رأسى، أنكرت بشدّة وظل يضحك حتى ضحكت هى الأخرى وسألته من بين الضحكات:

- وكيف تعرف ما يدور فى رأسى؟

- وهل يجب أن أكسر رأسك حتى أعرف ما يدور به؟ هل على أن أكسر قلبك حتى أسمع دقاته؟ أنا أشعر بدقات قلبك وأعرف بما تُفكّرين .. ليس لأنى عرّاف، لكن لأن بين المُحبّين لا توجد قشور أو أغلفة تحتاج لتكسير، كل ما بين المحبّين أشياء ملموسة ومرئية، كل ما بينهما قُرب وأعماق.

- لم أسمع فى حياتى أجمل من كلماتك.

- لكن أجمل الكلمات أنا لم أقلها لك بعد.

- ليتك لا تنتهى أبدًا حتى تظل تتحدث وأسمعك.

- اقتربت منه وهو يقترب فأصبحا مُتلاصقين دون أى شعور بكل ما حولهما، سألها بنبرة ضعيفة لا تخُصّه:

- هل كُنت أسعد قبل أن تعرفينى؟

- بصراحة .. نعم.

ضحكا ثم استرسلت هي:

- أنا لم أكن قبلك سوى سحابة تسبح فى فضاء الخيال، سعيدة لكنها ليست حيّة،

وبعدك أصبحت قطعة من الجنون تمشى على الأرض، أنا من ضعت فيك حتى المُنتهى ومن غيّرتنى عيناك إلى كائن ينبض، وأنت من أمطر حبه بمواسم من الفرح على جفاف أيامى.

قال وهو يُمسّد رأسها: أصبحت شاعرة؟

- أحاول.

- لكن هذا ليس بكلام شُعراء، هذا كلام عاشقة.

مالت برأسها على كتفه وهى سكرانة من رائحتة ومذاق الشوكولاتة فى خيالها، همس لها:

- تغيرتِ كثيرًا، لم تعدى تحدثيننى بالمنطق والعقل .. أصبحت تُشبهيننى لكننا مُستقلان.

- لأننا إذا عشقنا ترحل عنا عقولنا ويُغادرنا المنطق.

ظلّا يتهامسان وقتًا طويلًا حتى اقتربت الشمس من المغيب، ففزعت هى، لدغها عقرب الوقت وسألته أن يعودا للقاهرة، ثم عادت كالمهووسة فى قرارها وطلبت منه أن يُشاهدا الغروب معًا.

- هل أنتِ متأكدة من رغبتك فى مشاهدة الغروب معى؟

- أريد أن أُجرّب كل الأمور الرومانسية معك.

- لكن أنا لا أؤمن بحب الأفلام والأغانى، إنه حب وُجد ليشاهده الناس لا ليُمارسونه، ليتفرجوا على الحب لا ليُحبّوا، لذلك لا تهمّنى خرافات الحب من الغروب والسهر والنجوم، الحب لا يُعذبنا يا عالية مثلما تقول الأفلام بل يرتقى بأرواحنا، يُحررنا ويجعلنا نُحلّق.

- وأنا أُحلّق معك.

- معى وبدونى يا عالية .. أنت خُلقتى لتُحلّقى.

انقبض قلبها من كلمة (بدوني)، سألته عن وجهتها التالية للتحليق، ذهبا

لمطعم يطلّ على البحر مُباشرة، لم يكن فى نفس أناقة المطاعم التى اعتادت أن ترتادها مع محمود، لكنه كان دافئًا ويُثير الشهيّة للطعام والحب، كان هناك رجل يغنّى على عود، طلب منه حسن أن يقترب وهمس فى أُذنه، فلعب لحن تعرفه جيدًا ثم غنّى «كامل الأوصاف»، كانت خجلة لكن خجلها لم يمنعها أن تُبادر هى وتمسك كفّه وتضغط عليه برقّة وكأنها تُعانقه هو، بعدها ذهبا لمحل يبيع المُثلّجات فى منطقة شعبية مزدحمة، الموسيقى داخلها لا تنقطع، اللحن مُسترسل وبهيج ترقص عليه الروح دون توقف، المُثلّجات رفعت هرمونات السعادة ومُعدلات النشوة وجعلت لحظاتها معه ألذ، هل سينتهى مثل هذا اليوم؟ هذه الأيام لا تنتهى أبدًا، تظل محفورة فى القلب، تظل خضراء لا تبلى ولا يعبث بها الزمن، عندما وصلا إلى القاهرة أصرّ على أن يوصّلها لبيتها، هناك افترقا بصعوبة، قال لها وهو ينظر أمامه فى حنق وأسى (كان يجب أن تعودى معى إلى البيت).

كانت هذه الفترة هى أكثر فترات حياتها حماسًا وإقبالًا، ترسم أكثر من تصميم فى اليوم وتنزل لشراء الأدوات اللازمة من محلات وسط البلد، تأكل الطعام بنهم وتنام بعمق، تلعب مع كريم وتشترى له كل ما هو جديد من ألعاب الفيديو وتذهب معه إلى النادى بانتظام، تحسّنت علاقتها بصديقاتها وأهلها، وتوطّدت علاقتها بحسن حتى أصبحت لا تحيا إلا فى وجوده، وسخرت كثيرًا من كل الحقائق العلمية التى تؤكد أننا نتنفس طول الوقت، فهى لا تشعر بأن صدرها يُداعبه الهواء إلا معه، أيقنت أن كلامه صحيح، الحب لا يعنى العذاب، حتى نوبات الخوف التى تُداهمها تنتهى بمجرد أن تسمع صوته، كانت تُفكّر به دائمًا رغم انشغالها بالتدريب والعمل، كيف تجعله يشعر بتميّزه معها، شخصيته المُعتدّة بنفسها صعب أن تعرف ما ينقصها أو يُحفّزها، كانت تحاول أن تتخلص من الرواسب التى تركها محمود فى روحها، تُحاول أن تتخلص من عادة المُقارنة بينهما فى كل شيء، ذلك لأنها ببساطه تُحب حسن؛ فماذا يعنيها إن تفوق عليه محمود فى كل شيء مادام هو الفائز فى النهاية؟ وبالفعل بدأت حياتها

السابقة تهدأ وتسكُن وذكرياتها المؤلمة تتلاشى، لدرجة أنه عندما اتصل بها هيثم ابن خالتها ليُخبرها أنه خرج عن مسار خطتها وأحبّ فرح بالفعل، بل وأراد أن يتزوجها لولا اعتراض والدته، لثوان نسيت من هى فرح، وعندما تذكرتها كانت لا تشعر تجاهها بشيء.

دخلت عليها أمها وهى ترسم، كانت تبدو شاحبة، ليست المرأة القوية التى تعرفها، ظهرها محنى وعيناها ذابلتان كأنها بكت الليل بطوله، نظرت لها بعتاب وسألتها:

- ألا تُريدين أن تُخبرينى بشيء يا عالية؟

تنبهت عالية أن الأمر يخُصّها هى، جلست كطفلة مُذنبة أمام أمها، تتجنب النظر لعينيها التى تسبر أغوار نفسها، ولّما لم تنطق استكملت أمها ما بدأته بتأثر بالغ:

- أنا لم يؤلمنى أنكِ انفصلتى عنه مثلما آلمنى أنى عرفت من حماتك ولم أعرف منك .. البُعد بيننا يؤلمنى.

اخترقت الكلمة صدرها، إنها رصاصة الحقيقة التى آن الأوان أن يعترفا بها، لم تكونا أبدًا قريبتين، لقد اعتادت عالية منذ طفولتها أن تحجب أمورها الخاصة عن أمها وأن تستعيض بالصديقات عنها، كانت تعرف أنها لن تفهمها ولن تستوعب مشاكلها، فهى ترفض كل ما يحيد عن أفكارها ومبادئها المثالية، تُملى عليها الأوامر، تحرمها من أشيائها الحبيبات، وتعُاقبها بالحبس فى البيت إن استلزم الأمر، كانت تخاف عليها كأنها عصفور صغير تعيش حياتها فى خوف أن يخرج دون عودة، لم تكتف بهذا بل أعطت أخاها كل الصلاحيات للخروج والدخول والخطأ، عاملته كإنسان واعتبرتها ملاكًا، هكذا بُنى الجدار بينهما، بصرامة أمها معها ورغبتها الدائمة فى أن تُقيّدها. حتى بعد زواجها، فضّلت أن تُواجه المشاكل وحدها على أن تُشرك أمها، التى ستعطيها نصائح مثالية غير قابله للتنفيذ، أو تُعلن غضبها على محمود وتنبذه، ثم ينتهى الأمر بأن تُقاطع أهلها أو تنقطع

عنهم، لا تعرف كيف حرصت عن دون قصد ألا تُشبه أمها فى أى شيء،

لكن فى هذه اللحظة وأمها المرأة العظيمة التى لا تبكى إلا من فُراق الأحبّة الأخير، وتعمل منذ خمسة وعشرين عامًا دون أن ينحنى ظهرها، تجلس أمامها الآن مُنكسرة وحزينة، شعرت عالية أنها أخطأت بعدم الإفصاح لها هذه المرة.

– لماذا نحن بعيدتان؟ أنا ليس لى ابنة غيرك .. أنجبتك لتكونى صديقتى وأختى قبل أن تكونى ابنتى، وأنت من صغر سنّك بعيدة وصامتة .. هل كان ذنبى أنى أردتك أحسن فتاة فى الكون؟ هل كان ذنبى أنى أعمل وأضطر للتغيب عن البيت؟ أخبرينى أين خطأى يا عالية؟

– أنا المخطئة يا ماما .. فقط خفت عليك، صدقينى.

– ولم تخافى على أن أعرف عن حياتك من غيرك وأُدرك حقيقة علاقتنا؟ اشتد نحيبها، فلم تستطع عالية أن تُبقى على هدوئها ونهضت لتحتضنها وتبكى هى الأخرى على صدرها، ثم مسّدت ظهرها المنحنى حتى يعود ليشتد ومسحت على رأسها ثم قبّلته وقبّلت يد أمها لأول مرة فى حياتها، بدأت أمها تتوقف عن البكاء ويذوب حزنها وتستسلم كأنها هى الصغيرة وهى المحتاجة لابنتها، أما عالية فحكت لها عن يوم الطلاق والتفاصيل قبله دون إشارة لحكاية فرح، حاولت أن تُقنعها بأنها الآن سعيدة وأفضل مما كانت عليه، وأن محمود هو الآخر يبدو أنه ارتاح منها هى والصغير بدليل عدم ظهوره منذ شهور واكتفائه بإرسال المصاريف للمدرسة، كانت بحديثها الطويل لا تبغى فضفضة أو رأيًا أو مشورة، هى فقط كانت تُحاول أن تُعوّض أمها عن صمتها الطويل فى الشهور الماضية وتضعها فى الصورة الكاملة كما ينبغى، من الغريب أن أمها لم تُلق عليها المواعظ ولم تلمها أو توجهها كالعادة، كانت تستمع وفقط بعينين متأثرتين، قلبها يكاد ينفطر رغم لهجة عالية المرحة فى الحكى ومُحاولتها لطمأنتها، إن للأمهات قلوبًا مختلفة عن قلوب البشر، مُتخمة بالحب، تفيض بالمشاعر، يُولد من أرحامهن الحنان والعطف وليس فقط الصغار، كانتا أمّان تتحدثان، تدفق الحديث بينهما

من هذه اللحظة كأنهما لم تتحدثا من قبل، وتوالت الخروجات وحدهما للنادى والسينما والتسوّق، تعرّفتا أخيرًا على أذواقهما المختلفة ومناطق الفرح والألم والشغف فى حياتهما، كان لقلب عالية العاشق أثر فى أن تفتح كل الأبواب لأحبّتها دون ذرّة تحفّظ.

ومع توطد العلاقة بينهما بدأت أمها تستشعر ما طرأ على قلب ابنتها من تغيير، وكانت تعى تمامًا أنها تحمل مشاعر كبيرة لإنسان ما، لكنها لم تُفسد الأمور هذه المرة بنزعة الأمومة ورغبتها فى أن تعرف وتُصلح وتُوجّه، انتظرت حتى تحكى لها عالية، لكنها إلى أن يأتى هذا اليوم ألقت على ابنتها نصيحة أخيرة لعلها تُفيد:

- الرجال يا ابنتى مجموعة من العيوب والميزات، عندما تقبلين بأحدهم وتُحبّينه وتعيشين معه، فذلك لأنك تعرفت على ميزاته وتعايشت مع عيوبه، أمّا أن تتركيه لعيوبه وتبحثين عن ميزات آخر، فاعلمى أنك ستضطرين لمعايشة عيوب أخرى قد تكون أصعب فى تحمّلها، فعليك أن تقبلى باختيارك بعيوبه قبل ميزاته، لأن لا رجل يخلو منها.

- لكن الحب يا ماما يجعلنا نتغاضى عن العيوب .. يجعلنا نفيض ونتحرك فى الحياة بشغف .. واللاحب يجعلنا تُعساء كالبركة الساكنة لا نرى إلا العيوب.

- وكثرة التغاضى تُمرض القلب وتُذهب الحب!

***

(٢٢)

كان قد مرّ أسبوعان على أحداث العباسية، عندما هاجم مُسلّحين المعتصمين أمام وزارة الدفاع المُطالبين بتسليم السُلطة لمدنيين، هاجموهم ليفضّوا اعتصامهم بالقوة وقتلوا منهم من قتلوا وأصابوا من أصابوا، دون محاولة من الجيش لوقف الاشتباك، وقد اعتُقل عدد كبير من المناضلين والمصلين بمسجد النور القائم هناك، مما زاد الأمر سوءًا، عالية رغم انشغالها فى التدريب وقضاء معظم وقتها فى الرسم والتصميم، إلا أنها كانت تُتابع الأحداث دون أن تُشارك فيها، يحاول حسن الذى يُشارك فى الاعتصام أن يحكى لها ما يحدث بالتفصيل حتى تنقله بسرعة ودقّة إلى الشبكة العنكبوتيّة، كان هذا دورها فى الأحداث، حكى لها عن البلطجية الذين لا ينتمون بأى شكل من الأشكال لأهالى المنطقة، كما يزعم المجلس العسكرى، وكيف أنهم كانوا مُتربّصين لهم، وبعد الصلاة اقتحموا صفوف المعتصمين بعنف وضربوهم وسحلوهم دون هوادة، وأن أفراد من الشرطة العسكرية اقتحموا المسجد بأحذيتهم ليقبضوا على المصلّين ويعتقلوا عددًا كبيرًا منهم، كان غاضبًا، ثائرًا وحزينًا.

أغضبه أيضًا هؤلاء (الحازمون) الذين يتبعون شيخًا كبيرًا معروفًا بلهثه وراء السُلطة، كان يزعم أن القتلى من صفوفه، رغم أنهم كانوا من عامة المعتصمين، الثوار الحقيقيين الذين يقفون بصدور عارية أمام الموت، صحيح أن الحازمين هم أول من بدأوا الاعتصام لكن تبعتهم بعد قليل كل القوى السياسية، وهى من قامت بكل المعارك الليلية مع البلطجية، هتف مع الجميع بسقوط حكم

العسكر وكان مُدركًا تمامًا أن الجنود ليسوا أعداء بقدر ما هم ضحايا لقادة حمقى ونُظم سيئة يتبعها العسكريون فى التعامل مع الأزمات، كان لسان حاله يقول كلنا ضحايا، كلنا قتلى الغباء.

«عن الحكم العسكرى وماله وما عليه»، كانت هذه الندوة التى ذهبت عالية لحضورها بالاتفاق مع حسن، وصلت قبله هذه المرة ولم تجد ممن تعرفهم سوى هذه النهى صاحبة الوشاية الحقيرة وبعض الفتيات التى أومأت لهن برأسها فقط، وشادى زميلها القديم الذى ينتمى للألتراس الأهلاوى، أقبل عليها وتبادل معها حوارًا عاديًا عن الأحداث الراهنة ورؤيته لما سيحدث فى الأيام المقبلة، كان مثل الجميع غاضبًا من الحُكم العسكرى، ثم تطرق الحوار لحياتها الشخصية وعرفت أنه لم يتزوج بعد، اكتفت بأن أخبرته أنها أم لطفل فى السادسة من عمره، تخلل حوارهما بعض الضحكات حين وصل حسن الذى رمقها بغضب وذهب للمنصّة دون أن ينبس، تركت عالية شادى بدون استئذان وحاولت أن تتحدث مع حسن قبل أن يعتلى المنصّة لكنه أبى وتظاهر بالانشغال مع الأصدقاء، شعرت عالية بغصّة فى حلقها، جلست فى كرسى بعيد وقد عاودها شعورها القديم أنها دائمًا المخطئة، كيف له أن يغار وهو يعلم أنه أنفاسها وجناحاها، وهل تغار النخلة السامقة من عشب الأرض؟، كانت تحسب أن محمود يغار عليها فى سنواتها الأولى، حتى أيقنت أن غيرته لم تكن إلا رغبة فى التحكم بها فسرتها هى بسذاجة زوجة أنها حب، وعاشت فى عذاب هذا التحكم مُنتبهة لكل كلمة وتصرف وقطعة ثياب ترتديها حتى لا تُثير غضبه، والآن بعد أن تحررت من تحكّمه، يعود لها شعورها بأنها يجب أن تظل منتبهة لكل كلمة وتصرف، جلست بإحباط مرير تُتابع الندوة التى بدأها حسن وعيناه تصرخان بالغضب.

تحدّث عن جرائم الحُكم العسكرى كما سمّاها منذ أيام عبد الناصر، بدءًا بالغدر باللواء محمد نجيب، فصل مصر والسودان، نشر الكذب وتضليل

الشعب، انهيار الاقتصاد بعد أن كان فى أزهى عصوره، ظهور الشللية والمحسوبية فى المؤسسات وانتشار الفساد، التأميم الذى فرّق بين طبقات الشعب وأشاع العداوات بين الفقراء والأغنياء من منطق فرّق تسُد، ملاحقة وإبادة المعارضين بكل الأساليب غير الانسانية، بما فى ذلك الشنق والحبس والتعذيب، تأسيس الديكتاتورية بأن ألغى كل الأحزاب وأنشأ الاتحاد الاشتراكى وحده، وعمل على إقصاء وتصفية معارضيه، ثم أنهى عهده بالنكسة التى ضحّى فيها بأرواح الجنود وبسُمعة جيش مصر بسبب غروره وعنجهيته، ثم راح يتحدث عن تبعية حُكم العسكر قبل أن يوقفه أحد الحضور الذى كان ينتمى للتيار الاشتراكى، وراح يوبّخه على الزجّ بقامة مثل عبد الناصر زعيم الأمُّة فى مثل هذه الجرائم التى لم يكن له يد فيها، وإنما كانت بسبب حاشيته الفاسدة وما كانت تمُرّ به البلاد من لخبطة وتوتر وغليان إثر التغيير الكامل والمناوشات الخارجية، وأضاف أن ناصر هو من جعل لمصر هيبة وثُقلًا بين البلاد العربية وأنه هو من أنشأ بذرة الجيش الذى قام بحرب أكتوبر، كان مُنفعلًا والجو كله كان مشحونًا فأوقفه حسن بإشارة من يده، ولما لم يتوقف صرخ فيه وفلتت كل أعصابه فوجد نفسه فجأة يسبّه بأقذع الشتائم، انتفض الرجل غضبًا وفى حركة بهلوانية خلع حذاءه وألقاه على حسن الذى تفاداه، ثم نزل من فوق المنصّة ووجه قبضة قوية غاضبة لوجه الرجل، سالت دماؤه قبل أن يُمسك بتلابيب حسن ويحاول أن يرُد له الضربة، لكن الحضور تدخلوا لفضّ الاشتباك، عالية كانت فى ظهر حسن تُحاول عبثًا أن تُثنيه عن عصبيته وغضبه الذى خرج من قفصه كأسد شرس جائع.

كانت من أصعب الليالى عليها، تجوب البيت فى قلق وغضب، قلبها تُمزّقه سكاكين الخوف، عشر مرات تُحاول الاتصال به وخمسة رسائل ترسلها إليه دون فائدة، لماذا كل من تُحبهم غضبهم مُرّ؟، لماذا لم يُجرّب الحبيب عند غضبه أن يفرغ مشاعره على صدرها؟ لماذا لم يُجرّب المواجهة بدلًا من الغياب الذى ينهش

والإهمال الذى يقتُل، لماذا يختارون دائمًا الطريق الأطول والأصعب فى حين أن لمسة واحده صادقة من حبيب تُداوى وتحلّ وتُذهب الألم من الجسد والقلب؟! أغلق هاتفه عند الفجر واستمرت هى على توهانها وتوترها إلى أن وصلتها منه رسالة عند الصباح تقول (آسف، أنا لن أستطيع أن أستمر فى هذه العلاقة). ابتسمت ابتسامة باهتة وهى تُردد آيات الحمد، تسمّرت وهى تنظر للهاتف وتشعر أن الحروف تداخلت وتشابكت ورسمت خنجرًا مغروسًا فى صدرها، سقطت على الأرض تبكى وتتألم بصمت حتى لا يصحو الصغير، لا تدرى كيف بدّلت ثيابها وخرجت للشارع تهيم على وجهها، وجدت نفسها عند بيت مروة التى كانت تهمّ بالذهاب للعمل قبل أن ترى صديقتها المُنهارة فتُقرر المكوث معها فى البيت، هناك بكت عالية بصوت عال، تأوهت وصرخت كما لم تصرخ من قبل، لم تُفلح كل محاولات مروة أن تجعلها تتكلم أو حتى تتوقف عن البكاء، حتى إنها فقدت عقلها تمامًا وراحت تصدم رأسها بالحائط عدة مرات.

كانت هجمة حادة من الجنون لم تمرّ بها من قبل، هدأت بعدها وجلست كطفلة تعبة بعد نوبة غضب تنظر أمامها للاشيء، مسحت مروة على رأسها وسقتها شراب التوت الذى تُحبّه، لم تُحاول أن تستدرجها للحديث، فقط كانتا تتبادلان الصمت، وهذا كل ما كانت تحتاجه عالية، غفلت قليلًا على الأريكة وصحت على مروة التى كانت تُحدّق بها،

- ماذا حدث لكل هذا؟ لم أرك بهذه الحالة حتى فى خلافاتك الكبيرة مع محمود.

لم تجد عالية ما ترُد به، فحسن هو سرّها الذى قررت ألا تُطلع عليه أحدًا مهما كان، حتى فى هذه اللحظة التى تتوق فيها إلى الفضفضة لن تذكر عنه شيئًا، وهذا الخنجر المغروس لن يراه أحد، هى فقط من ستشعر به مُستقرًا فى صدرها مُخترقًا قلب قلبها، كانت خلافاتها مع محمود تُؤلمها، لكنها لم تصل بها لهذه المرحلة من التطرُف فى الحزن، فكل شيء فى محمود ومعه كان يخضع للحدود

والمنطق، أمّا حسن فعشقه تطرّف وفراقه تطرّف، والنجاة منه لن تكون سهلة، سيتبعها الكثير من الإيذاء النفسى والبدنى، ما كان يؤلمها أكثر من فراقه هو شعورها الغريب بالأمان معه، كيف وثقت به إلى هذه الدرجة؟ حتى ليلة الأمس كانت تُفكّر ماذا ستُعد له فى عيد ميلاده القريب، كانت تحلم بلحظات كثيرة من السعادة معه لم يئن أوانها بعد، ما يؤلمها أنه كان يحمل فى قلبه نيّة البُعد فى حين أنها لم تحمل فى قلبها إلا الرغبة فى المزيد من القُرب، ثم إنها لم تجر عليه وتستميله، هو من اقترب منذ البداية وهو من أمسك بيدها ليصعدا للسماء ويسيرا فوق السحاب، ما آلمها أن الموت كان بخنجر وهى نائمة على صدر القاتل، ولم يكن موتًا إيكلينيكيًا باردًا مثل ما أصاب علاقتها بمحمود.

عندما عادت للمنزل وجدتهم جالسين فى وجوم، فتذكرت أن اليوم كان حفل تكريم المتفوقين فى مدرسة كريم وأنها لم تذهب، بل ونسيت الأمر كله، سألتهم بخجل عن الحفلة وحاولت أن تضُمّ كريم وهى تعتذر له، لكنه كان لأول مرة مشحونًا وغاضبًا، لم يبك لكنه عاتبها بصراحة على كل شيء، وليس فقط نسيانها للحفلة، عاتبها على عدم ذهابها معه لإحضار النتيجة قبل أسبوع، وعلى سفرها الكثير وتغيبها الدائم عن المنزل، عاتبها على قلة لعبها معه وعلى توقفها عن حكى الحواديت قبل النوم وعدم مشاركتهم الفُسح والخروج، عاتبها على عدم مشاهدتها له فى التدريبات، عاتبها على غياب أبيه وأخبرها أنه يفتقده بشدّة هو والبيت وحُجرته وألعابه، حمّلها مسؤولية كل شيء وهو الصغير الذى لم يُكمل أعوامه السبعة بعد، كانت المطارق مازالت تضرب رأسها من كل اتجاه، لكن دائمًا تأتى الآلام متعاقبة وتتراكم الأحزان لتدخل دفعة واحدة وتملأ القلب، لا تترك له مساحة للراحة.

جلست فى القطار وحيدة، ترتدى نظارتها الشمسية الكبيرة لتُدارى دموعها التى تتساقط كلما تذكرت عتاب الصغير لها وغدر حسن بها، هذا الكبير الذى تصرف مثل الصغار ولم يواجهها بحقيقة مشاعره وفضّل أن يُرسل لها رسالة من

أحرف باردة تقتُلها بقسوة أكبر، وهذا الصغير الذى تصرّف مثل الكبار وعاتب بحب وطالب بحقوقه التى ضاعت منها فى زخم الرسم والتصميم والتحليق، الفارق كبير بينهما، غير أنها انشغلت بالطفل الكبير على حساب رجلها الصغير، الطفل كسر دُميته بلا عناء ودون أدنى تأنيب ضمير، والرجل سألها حنانها وحبها المسلوب منه دون دمعة واحدة، كانت عندما يطعنها محمود فى أمومتها لا تغضب أو تتأثر لأنها كانت واثقة أنها لم تُقصّر وأن زوجها هو الذى يحترف إلقاء الاتهامات، أمّا الآن فهى لم تعد واثقة، بل وأصابتها هذه الدائرة اللعينة من تأنيب الضمير، فهى اعتادت أن تكون الأم المتاحة دائمًا لابنها ولا يشغلها غيره، ذلك كان قبل أن تبزغ أجنحتها، كم تكرهها الآن تلك الأجنحة التى جعلتها تعلو حتى لم تعُد ترى الصغير ثم أهدهتها السقوط المُريع، سقوطا من أعلى نقطة، ورغم ذلك فإن القلب عندما يتمرد لا يعود كما كان ويظل يُحلق طول الوقت بفرح أو بدون، لذلك هى الآن فى طريقها للإسكندرية لاستكمال التدريب.

لماذا لمسها؟ لماذا لمس كل أشيائها وجعلها برائحته؟، فهذه نظارتها الشمسية التى قبّلها يومًا ما، وهذه حقيبتها التى ضمّها لجسده يومًا ما ليستعيض بها عن ضمّتها، حتى حذاءها لمسه بيده وهو يُخبرها أنه يُحب كل ما يلمسها، القطار موحش بدونه، كل شيء بدونه له طعم الواقع المرُّ ونوره الباهت ووقته البطيء، كيف كان يُضيف هذا الضوء والصخب لكل شيء، والآن الطريق لا ينتهى والدموع لا تتوقف، تتذكر كلماته العادية وغير العادية وصوت ضحكته التى ترتسم على شفتيه ولا تمتد لعينيه فيظل مُحتفظًا بصرامة نظرته، ورائحة دُخانه التى احتفظت بها دائمًا فى ملابسها، وصل القطار ولم تصل هى بعد لتفسير واضح لبُعده وقراره الأحُادى، حنينها إليه كان أكبر من غضبها منه وحيرتها فى تفسير ما وراء رسالته. حضرت التدريب دون ذرة تركيز وكان الجميع يسألونها الأسئلة نفسها (ماذا بك؟)، (هل أنت مريضة؟)، (لماذا أتيت وأنت فى هذه الحالة؟). وكانت إجابتها ابتسامة باهتة وتمتمة ببعض كلمات الطمأنة، بعدها وجدت نفسها تتجه

للشاطئ الذى جمعهما ذات يوم، كان نفس المكان لكن ليس نفس الشاطئ، مُزدحم ومُتسخ، النساء تثرثرن وأمامهن طنجرات الطعام وحولهن يتقافز أطفال فى ملابس مُهلهلة، والرجال لا يتركون بقعة ترى منها لون البحر، أما الشباب فانتشروا فى كل مكان للتسكع والمُعاكسة لكل ما هو مؤنّث.

كيف أصبح الشاطئ بهذه الصورة؟ أم أنه كان كذلك ولم تره هى من جراء السحر الذى سيطر عليها عندما كانت معه؟ كانت عندما تذكر الساعات التى قضياها على هذا الشاطئ تشعر أنه الجنة وتتمنى لو تكررت زيارتهما له، والآن لا تتحمل أن تقضى فيه أكثر من عشر دقائق تحت الشمس الحارقة وبين الزحام والضوضاء، ضعفت وهبطت مقاومتها للأرض وهى تُجرجر قدميها للعودة للمحطة، حتى إنها تاهت عدة مرات قبل أن تصل، وجدت نفسها وهى فى المحطة كل ما فيها حزين

ووحيد، اتصلت به ولم يرُدّ، أرسلت له رسالة قصيرة (لا تتركني)، ولم يرُدّ، احتقرت نفسها وأنّبتها كثيرًا على هذا الهزل والهوان، هل كان يُسعدها أن يعود شفقة باحتياجها أو رغبة فى البقاء على علاقة قديمة فى حياته؟، مثل كل حكاياته العاطفية التى قصّها عليها والتى انتهت إلى فتور وقشرة غبية من الصداقة.

لكن هى ليست مثلهن (ما هذه الحماقة .. كلهن يُرددن نفس الجُملة .. أنا لست مثلهن، وهو يُؤكدها .. أنت لست مثلهن .. إنها الحدوتة المعروفة والجُمل المأثورة فى كل حكايات الحب)، لكن الحقيقة تقول إن الأصدق هو الأبقى، وليس المختلف هو الأبقى، الرجال تمُر بهم المواقف الحميمية فتصيبهم بالحنين كل حين، أمّا المرأة فهى تعيش بهذه المواقف العاطفية، هى زادها فى الحياة تجترها كل لحظة وتُعذب نفسها بها، كل لمسة أو كلمة منه كانت تصعقها كالبرق، ويظل السؤال الذى ترددده داخلها دون توقف (لماذا اقترب؟)، قد لا يعنيها لماذا ابتعد فالمُبررات الواهيه كثيرة، لكن ما يشغلها حقًا هو سبب اقترابه إلى هذا الحد إذا كان ينوى الرحيل، ثم بدأت الهواجس السوداء تُقنعها أنه ابتعد لأنها

لم تكن قريبة منه بما فيه الكفاية، فالرجل إن لم يكن له خيط يربط بينه وبين حبيبته فأسهل ما عليه أن يرحل عنها ليبحث عن صيد جديد، وهذا الخيط يعنى العلاقة، هو لا تربطه بها سوى مشاعرغير ملموسة، كلام فى الهواء ووعود عظيمة كاذبة، أمّا إذا كانت ملك يمينه فهو لن يُفكر أبدًا فى الرحيل عنها، كم لّمح لها أنه يشتاقها وكم صدته لأنها لا تعرف كيف يمكن أن تتطور العلاقة، لم تُفكّر فى هذا الأمر أو ربما لا تريد أن تُفكّر فيه لأنه علّمها أن تعيش بلا خطط، ولأنها لا تُريد أن تفقد حميمية علاقتها بعقود وشروط ومسؤوليات، لا تريد أن تتزوجه حتى لا تخسره.

عادت فى المساء وهى تحمل لكريم الحلوى التى يُحبها، وعدته أنهما سيذهبان غدًا لمحل الألعاب حتى يختارهدية نجاحه بنفسه، كان يُمثّل السعادة وهو يشكرها ويُقبّلها، حتى سألته بدون موارية: (لماذ أشعر أنك مازلت غاضبًا حتى وأنت تضحك؟)، (أجابها بصراحة طفل: "أنا أضحك يا ماما لكن بداخلى أنا حزين) .. «ياااه، يا بنى، فى هذه السن الصغيره بدأت تعى هذا الشعور؟ بدأت تظهر عكس ما فى قلبك، بدأت ترتدى قناع الابتسامة أمام الناس، بدأت مبكرًا يا بنى فكم من المرات ستدفعك الحياة لهذا الشعور، ربما طول الوقت»، همست لها أمها (ليس بالحلوى ولا بالهدايا تستطيعين أن تكونى أما حقيقية)، لم تبذل مجهودًا كبيرًا فى هذا اليوم لتكون أما حقيقية، بل على العكس تشاجرت مع الجميع وصبّت غضبها عليه بالأخص ثم ذهبت لتنام على سريرها غير المريح وخنجر غدره مازال ينهش فى قلبها والدموع مازالت تتساقط بجنون على وسادتها.

فى الأيام التالية حاولت أن تتغير، وضعت على قلبها ضمادات من الثلج، رتبت أفكارها كما كانت وهى طالبة فى الجامعة، فى الشهر الأخير تضع الجداول وتُنظّم المواعيد، تسهر وتصحو مبكرًا، تتنازل عن أوقات الراحة والسرحان، تُريد الآن أن تنجح أيضًا، تنجح مع كريم وتنجح فى عملها، وبالفعل بدأت تحرص على أن تكون معه فى النزهات والتدريبات، كانت معه بجسدها، لم تستطع

أن تُحرر روحها بعد من عبثية التحليق وأوتار الشوق المشدودة، اشتركت له فى دورة لتعليم الرسم بعد أن لمست شغفه به، كانت دورة مُتخصصة يُديرها فنانون محترفون وليست مجرد مدرسة أخرى للنشاطات الصيفية، أكملت هى بصعوبة فترة تدريبها فى الاسكندرية واستلمت عملها بمكتب القاهرة، مرّت ببعض الصعوبات وتعاملت مع أشباه البشر الذين يستقبلون الجُدد فى العمل بالغمز واللمز والجفاء، لكنها رغم كل شيء أقبلت على العمل بعزم كبير، حتى عندما أتاها اتصال وحيد من حسن لم ترُد عليه، كانت تُريد أن تُثبت للجميع أنها ستُصل يومًا إلى ما تريد، حتى إن كانت بلا وطن ولا أجنحة.

قررت أن تتصل بصفا الطبيبة الصغيرة وزميلة الميدان، كان الاتصال فى ظاهره للسؤال والاطمئنان على الأحوال فى التظاهرات والاعتصامات، لكن فى باطنه كانت تريد أن تسمع أى خبر عن حسن بعد أن مرّت ستة أسابيع دون أن تعرف عنه شيئًا، عندما لم تجد من صفا أى تعاون، سألتها عنه مباشرة، فأجابتها أنه توقف عن حضور الندوات بعد حادثة الحذاء الأخيرة، وأنه يُفكّر فى الانضمام لحزب جديد يُسمّى نفسه (الإرادة الشعبية)، وأضافت أن للحزب مؤسسين من أصدقائهم المشتركين منهم نهى .. ، هنا صرخ قلب عالية حتى إنها خافت أن تسمعه صفا، وتيقّنت أن حسن لابد أنه عاد لتلك النهى، أغلقت الخط قبل أن تخرج آهاتها المكتومة، وانتكست، عادت لتصرخ وتبكى وتتشاجر مع الجميع، فكّرت جديًا فى أخذ أجازة من العمل أو تركه نهائيًا لأنها لا تقوى على الذهاب كل يوم لمكان محفوف بأشباه البشر تُخفى عنهم دموعها بصعوبة، كما أنها لم تعد صافية الذهن حتى تستطيع أن ترسم وتبتكر، تُريد هذه الأيام أن تكون مجرد ترس، تدور دون تفكير لتُنجز المطلوب منها، لكن قُدرتهاعلى التفكير فى غير حسن وخنجره المغروس فى صدرها لم تعد تسعفها، عندما رأتها أمها فى هذه الحالة أدركت أن كل هذا التشتت والنوبات الحادة من السعادة والحزن لا تعنى إلا أنها بصدد علاقة عاطفية.

انتهزت فُرصة لحظة هادئة وحاولت أن تصل لعتبات مشاعرها، حكت لها عن خالتها التى طلّقت من زوجها منذ سنوات طويلة وكان الطلاق شيئًا جديدًا ومُستبعدًا فى عائلتهم، فآثروا ألا يخبروا أحدًا وكانوا يعاملوها بنوع من الشفقة والتكلّف كأنها مصابة بمرض، لكنها لم تعبأ بمعاملتهم الغريبة وتضييقهم عليها وأصرّت أن تعمل وتخرج للمجتمع وتواجهه بوضعها الاجتماعى الجديد، تحمّلت الكثير من الجهل الاجتماعى وطمع الرجال وثرثرات النساء، حتى تعرّفت على زوجها الحالى وعاشت معه قصة حب كبيرة مازال الجميع يتحاكون بها، ليسا فقط زوجًا وزوجة، إنما صديقان وعاشقان، حمّستها الحكاية على الافصاح عما بصدرها، وراحت تحكى لأمها عن حسن، لكنها لم تدخل فى تفاصيل، فقط حكت مقاطع من النهاية، كأنها تقول نتيجة مباراة، ولم تتفاجأ أمها أو تُظهر أى انطباع سلبى، كما لم تكتف بالنتيجة، بل حاولت أن تعرف عُمقا للحكاية، أدركت أن ابنتها تعيش قصة حقيقية صدقت فيها وأخلصت لرجل لا يُقدّر مشاعرها، شعرت أن عالية عادت لسن المراهقه لتعيش ما لم تعشه وتُجرب ما لم تُجربه، وصلها هذا الاحساس من انبهار عالية وسعادتها وهى تحكى عن مواقف بسيطة صغيرة لا تدُل على الحب بقدر ما تدُل على الهوس والجنون، لكنها لم تواجهها بهذا الشعور حتى لا تظنه استخفافًا بمشاعرها، وقررت أن تخوض معها دور الأم الصديقة التى غفلت عن أدائه فى سنوات صباها.

- سيعود ليُحدثك يا عالية .. لكن يجب ألا تردّى عليه نهائيًا.

- أنا لا يعنينى الآن أن يُحدثنى أو أرد عليه، ما يعنينى ألا يكون قد ارتبط بأخرى .. حتى لا أشعر أن ما كان بيننا كان وهما وهُراء .. لم يكن حقيقيًا.

- اسمعينى يا عالية .. هو سيعود حتى لو كان ما بينكما غير حقيقى .. فهو لا يُريد أن يخسر أحدًا .. ولا أعتقد أنه ارتبط بفتاة كانت ضمن دائرته من البداية، لكن عندما يُحدّثك لا تجاوبيه يا ابنتى.

- فعلت .. لكنى أخشى أنى لن أستطيع أن أفعلها مرة أخرى.

– يجب أن يعرف أن الأمور ليست بهذه السهولة .. فأنتِ لستِ رهن إشارته حتى يترك ويعود .. لا تُكرري أخطاءك مع محمود .. فالرجال عندما يُدركون أن المرأة مضمونة لا يكترثون بمشاعرها .. وعندما يجدون منها التسامح الكبير .. يُكررون أخطاءهم ويتمادون فيها.

ردّت عالية بسُخرية: الآن لا تُريدينني أن أكون متسامحة .. وأنت من علمتيني ألا أُخاصم أحدًا وأن أبدًا بالمصالحة وأتغاضى دائمًا .

– كنتُ أُعلمك أن تتسامحي لأني كنت أخاصم أباك ولا أسامحه بسهولة، مما جعلنا غُرباء وصنع في حياتنا شرخًا كبيرًا .. أردتك أن تكوني غيري حتى لا تُصبح حياتك مع محمود جحيمًا ويحدث نفس الشرخ في علاقتكما.

– الجحيم كان في تحملي ما لا أطيق...

– لذلك طلبت منك ألا تعودي لرجل آخر يُكلفك ما لا تطيقين .. لا تكرري خطأك.

– لكن حسن ليس محمود!

– كلهم رجال .. لا يتجرأون أن يُغضبوا إلا المرأة الفياضة .. لا تكوني فيّاضة طول الوقت .. أحيانًا نحتاج لسد حتى يُجنبنا الفيضان الذي يجور على كل شيء.

أصبحت تتحدث عنه كل يوم مع أمها، أخيرًا حررته من أسر نفسها التي ضاقت بالاحتفاظ به وقد أصبح أكبر من أن يملأ فراغات الروح، نما حتى أصبح قادرًا على أن يصبغ حياتها كلها دون أن يترك فراغات، كان يُمزقها صراع بين كرامتها التي تؤنبها على مجرد التفكير فيه، وعنادها الذي يخبرها أن لا كرامة في الحب، وقد زاد من عندها حواراتها مع أمها ومحاولاتها أن تُقنعها أنه لا يصلح لها، كيف لا يصلح لها وحبها له هو ما جعل منها امرأة كاملة، لكنه أيضًا أصبح معولًا يهدم كل ما فيها، حتى إنها أهملت عملها وابنها وكل حياتها وقضت أيامها تُفكّر فيه.

رسالة كتبتها عالية فى غياب حسن ولم ترسلها...

هل جربت يومًا أن تنام على غياب مذهل وتصحوعلى شوق مؤلم؟

هل جّربت يو مًا أن تبحث كل دقيقة عن إشارة عشق .. فى كل وسائل تواصلك بالحياة؟

هل جربت أن تفتح رسائلك و حساباتك بأمل يتحول فى لحظة لأقصى درجات اليأس؟

هل جربت أن ينخلع قلبك لهفة مع كل رنة هاتف؟

هل جربت أن تبحث بين رمال الواقع الكثيفة عن لآلئ شفافة تسافر بك لدنياه؟

هل جربت أن تجوب صحارى الأمل ويدا عبك السراب فتركض حتى تدمى قدميك من أجل شربة ماء من عينيه؟

هل جربت أن تكون ملكًا متو جًا وتترك مملكتك لتتسكع فى الطرقات الباردة بحثًا عن سيد قلبك؟

هل جربت أن تبكى مثلى على أتفه الأشياء حتى تجفّ كل منابعك؟ هل جربت أن تركل غطاءك وتضرب سريرك غضبًا لأنه خالٍ من أنفاسه؟ هل جربت أن تكون قشرة من السعادة .. وداخلك هش متهشم من ضرباته؟

هل جربت أن تسامح لدرجة أن تنسى غدره وقسوته وطعناته كأنها لم تكن؟

هل جربت أن تقف على حافة الموت وتفتح قميصك وصدرك له بمنتهى الرضا؟

هل جربت يو مًا أن تنتظر .. وتنتظر وتنتظر؟ ربما يشعر هذا الأحمق كم تعانى؟

ربما يفهم أن كل لا؛ لا تعنى إلا نعم .. وأن كل بعد لا يعنى إلا اقترب ..

ربما يلفحه عشقك فيحترق بما أصابك...

ربما يمنحك إياه الوجود ويحتضر عند عينيه الوجع...

هل جربت الوجع؟

***

(٢٣)

كان يقف فى الشرفة الصغيرة بمنزله يُدخّن السجائر وينظر للاشيء، هكذا تعوّد أن يقطع الأوقات التى يقضيها فى البيت وحيدًا، يُمضى نهاره نومًا وليله سهرًا والباقى قراءة ومطالعة سريعة لمواقع الانترنت، شبّ على القراءة فأصبحت الكُتُب أعزّ الأصدقاء رغم زخم البشر حوله، لا يشعر بالسلام إلا عندما يكون بصُحبة كتاب، والكتب أيضًا لا تُفارقه، معه على السرير، فى المطبخ والحمام، معه أيضًا خارج البيت أينما ذهب، دائمًا هو مُغترب، جاء من محافظة (البحيرة) واستقر فى القاهرة للدراسة، اعتاد زخم الحياة بالقاهرة فلم يعد إلى بلدته إلا فى زيارات بعيدة، كانت أيامه منذ التخرج هذرًا وصخبًا مع أصدقائه، مزاجه كان وثنيًا فجرّب كل شيء، من سهر وتدخين للحشيش ولعب للبوكر وشرب الخمور واللهو مع المحترفات.

لم يخرجه من عبثه إلا قصة حب غيّرت تاريخه، أصبح رجلًا صالحًا وتوقف عن كل بذاءاته وتوقف عن السهر مع أصدقائه وسفك أيامه قربانًا للصخب، لكن سرعان ما ضاقت روحه بزنزانة الحب ولم يحتمل أن يكون بكل قدراته التى يؤمن بها رهن امرأة واحدة تُحاسبه على أنفاسه فى البُعد عنها، وتُرغمه على الاخلاص والالتزام وهو المخلوق من الجموح، فكيف لها أن تحبسه ولو فى جنة عشقها؟ راح يعيش حياته دون قيودها ولم يحترم وعوده لها، شعرت كم هو أنانى وكم فرّط فيما كان بينهما وغدر بها، فرحلت عنه بألم وجرح كبير وهى تسُب وتلعن فى نذالته وحقارته، ظن أنه ارتاح وأصبح حُرًّا، ثم عاد ليتألم كالطفل

الذى يكسر دُميته ثم يبكى عليها، ومع ذلك لم يعُد، لا عاد لها ولا عاد كما كان.

بعدها ألقى بنفسه فى براثن الزواج من امرأة هولاندية تعرّف بها فى إحدى الندوات السياسية، جذبه اختلافها واستقلاليتها، والحُريّة الكاملة التى منحته إياها، أقنع نفسه بأن هذه الزيجة ستُثبت أنه مازال له قلب ولديه رغبة فى الاستقرار، لكنها فى الحقيقة كانت عقابًا أراد أن يُعاقب به نفسه على غدره بحبيبته، وعلى كل قصص الحب الفاشلة التى ألقى فيها على الفتيات الوعود العظيمة دون أن يُنفّذ أيًا منها، كان يُعزّى نفسه بأنهُنّ من اقتربن ورغبن فى قصة ووعد، وهو كان يبحث عن السعادة بين رغباتهن فيه، فهو دائمًا مُحاط بهنّ، ليس فقط لأن ملامحة وسيمة لكن لأن هناك شيء فى روحه المرحة التى كدرويش هائم فى ملكوته، وأحيانًا تبدو تبدو كروح ثائر مُثقّف، وأحيانًا أخرى كروح صعلوك، هذا الشيء كان يجذبهن إليه ويكشف عن قلبه الطيب وجُرأته المُحببة.

كانت جميلة وجريئة، لكنها كانت تُقدّس العمل، وهذه كانت مشكلته الرئيسية معها، بدأت المشاكل بعد شهور قليلة من الزواج، عندما وجدته يستمتع بحياته وبها دون أن يبحث عن عمل، أو حتى يُفكّر أن يشغل وقته فى غير القراءة وحضور الندوات والتسكع، كان يعتمد على إيراد من أرض ورثها بقريته، لم يتوقع وهو الذى عشق دراسة القانون أن يكره العمل فى مجاله إلى هذه الدرجة، كان يظن أنه سيعمل وفق ما درس، لكنه وجد أن العمل هو سلسلة من الحيل والتحايل وعدم المباشرة، عمل تحت التمرين بعض الوقت حتى أصبح يختنق من مجرد فكرة الالتزام اليومى وارتداء الحُلّة الرسمية والتحدّث بشكل رسمى والكتابة بطريقة رسمية طول الوقت، وفجأة بدون مقدمات وهو فى المكتب نهض وعلى وجهه ابتسامة واسعة، قال لزملائه إنه على موعد مع السعادة فى المقهى القريب، غادر وفى يده كتاب جديد ولم يُعد بعدها للمكتب أبدًا.

كثُرت الخلافات بعد ولادة ابنته ولم تصبر زوجته على فراغه وتسكّعه، كانت تؤنبه وتزجره ليل نهار، وعندما قرر أن يُهملها حتى تتغير ردت على إهماله ببرود

أكبر، وأصبحت حياته معها مستحيلة، حتى إنه لجأ لأصدقاء الشباب الصاخب وعاد لسهراته الحمراء مرة أخرى، عندما انكشف أمره لزوجته سافرت مع الصغيرة وطلبت منه الطلاق، أصابه العند وملأته العنجهية ولم يُطلقها إلا بعد سفرها بعام، أصبحا بعدها صديقين تزوره مرة كل عام من أجل الصغيرة، لم يسأل بعدها عن طفلته إلا فى المناسبات، وقد أدرك أن حياتها مع والدتها التى تُقدّس الالتزام والعمل ستكون أفضل لمستقبلها من حياتها مع رجل يعيش بلا خطط مثله.

حدث بعدها الحدث الذى غير مجرى أيامه وحياته، عندما انتفض الوطن ونزل الشباب والأهالى ليثوروا أخيرًا على فساد وظلم السنوات الطويلة، كان قبل ثورة يناير له نشاطات سياسية قليلة واهتمام سياسى كبير وألم على وطنه يدفنه فى قلبه ويتناوله مع بعض الأصدقاء المُقرّبين، الذين يُغيّر كل فترة درجة قُربهم حسب هواه المُتقلّب، أخرجت الأيام الثمانية عشرة أجمل ما فيه وتغيّر من متمرد عابث لثورى حالم، ألهمته تلك الأيام ونضحت بالنقاء فيه الذى لم يكن يتخيل أن له وجودًا، كان يسهر ليله يحرس المتحف، يُشارك فى السمر والخُطب، وبالنهار يحمل على عاتقه تعريف رواد الميدان بأهداف التظاهر قبل أن يُسمّى ثورة، وتوضيح التضليل وتفنيد الاتهامات والشائعات التى كان يبثها الإعلام، احترف الخطابة بداية من هذه الأيام لأسلوبه الجذاب وإلمامه بالتاريخ وبثقافات مُتعددة، ولعلمه الغزير فى شتّى المجالات والتى كان يصبها جميعًا فى صالح السياسة، فأصبح المرجع للعديد من مرتادى الميدان، كما كان يُدافع ويُهاجم فى المعارك الصغيرة ومعركة الجمل التى أُصيب فيها بجرح قطعى فى الرأس وجرح آخر ترك ندبة فى صدره، لم يمنعه الجرحان من الاستمرار فى المقاومة والإصرار على رحيل النظام، كان يشعر بأن الثورة أصبحت دينه وأنه يدعو لها ما استطاع ويُحاول أن يجعل غيره يعتنق نفس الدين ويؤمن به، وكانت المرة الأولى التى يُحمّل نفسه فيها المسؤولية، مسؤولية وطنه وحماية دينه الجديد.

بعدها قاطع عاداته السيئة ولم يقطع أصدقاءه، أصبحت له شعبية كبيرة زادها عدم انتمائه لأى تيّار سياسى واستمراره فى الشرح والتحليل والتفنيد للبُسطاء ولجديدى العهد فى السياسة، كما زادت أعداد المعجبات به خاصة ذلك النوع الثورى من الفتيات اللاتى لا يُمانعن من قضاء حياتهن كلها على الأرصفة حتى تُدافعن عن آرائهن، وكان يتعامل معهن بحياد، لا يريد أن يخسر أحدًا ولا يهب مشاعره لأحد، لم يسمح لامرأة بأن تتحكم فى هواه مرة أخرى، إلى أن لمح نورها فى ذلك اليوم وهى تستمع إليه وتمنّى أن تُناقشه أو تسأله كمعظم الوافدات الجُدد على السياسة والميدان، حتى يسمع صوتها ويتمعّن فى وجهها الهادئ البريء، لكنها فاجأته بعكس البراءة عندما نقدته نقدًا لاذعًا بين أصدقائه ومُريديه، وبالرغم من أنه أخذ بثأره منها إلا أن رفيف جمالها ظلّ يراوده طوال الليل، صغيرة القد، أرستقراطية الملامح، كل شيء فيها كان يتنهّد برقّة، هو الذى اعتاد الفتيات القاسيات القويّات، مُتحملات المسؤولية، لم يُصادف يومًا جمالًا له صوت كرفيف أجنحة الملائكة، يُثير خياله ويطير به لعالم بعيد لا يمتّ بصلة لعالمه.

عمد إلى معرفة هويتها ووجهتها فى الميدان، ولم يصل لشيء، حتى كانت أقداره أن يُصاب أثناء التظاهر عند شارع محمد محمود ويدخل المستشفى الميدانى بالكنيسة ليجدها تمامًا كما تخيّلها، ملاك بوجه مُضيء، لها عينين واسعتين وشفتين مكتنزتين كأنهما على ميعاد مع قُبله لم تأت بعد، راقبها بحاسته الخفيّة ورصد توترها وترددها ما بين الظهور والاختباء، كانت صفا الطبيبة الصغيرة إحدى صديقاته، جعلها العين التى ترقب له عالية، أتى فى اليوم التالى ليُقابلها ويستكشف علاقة الملائكة بالأرض، ويتحقق من كونها إنسية من الجن أم جنيّة من الإنس، لا يعرف متى أحبّها، لكنه كان مُنجذبا لها من أول لقاء، كأنها سرقت جزءًا من روحه فبات ملعونًا بمطاردتها والتقرّب إليها، وهو الذى تنتفى عنده صفة المطاردة، ويغلب عليه طابع الاستغناء، كانت تجذبه هذه الدهشة فى عينيها كلما سمعت حديثه، وهذا الانبهار عندما يُلقى كلمة أو خُطبة،

صوت الهمس الذى يصدر من أنفها عندما يقول شيئًا يُسعدها، وهذا الاحمرار الذى يكسو وجهها عندما يتلفّظ بكلمة أو تلميح خارج، لمس بخبرة رجل شارد عن السرب هذا الاختلال فى شخصيتها ما بين ميول للتحفّظ والسير على قضبان المنطق، وميول أخرى للتحليق وكسر كل القيود، رأى أجنحتها التى لم ترها هى، وهذه الدعوة فى عينيها التى كانت تُطالبه بألا يجرحها، كأنها لا تحمل المزيد من المساحات فى قلبها للألم.

لم يُفاجئه كونها مُتزوّجة، ولم يُفكر فى المدى الذى يُريد أن يصل به فى علاقتهما، فقط أراد أن يكون قريبًا وأن تظل هى فى حياته، شعر بتمزقها ولكنه لم يُعانى مثلها من التردُد والانقسام، كان يسير فى طريقه إليها فحسب، ما كان يؤرّقه أن تسقط هى منه فى منتصف الطريق، لن يُحزنه حينها أنها لم تعد فى حياته بقدر ما سيحزنه أنه تسبب لها فى أذى، عندما غابت عنه أحس بأن حياته ينقصها الكثير وكل من حوله لا يعوضونه عن تواجدها فى حياته، ظل يمُر معها بمراحل من الجذب والشدّ والقُرب والبُعد، إلى أن عادت باستسلام لقُربه، كانت مختلفة، لم تعد هى التى عرفها، أدرك أن حياتها ارتبكت، عندما أخبرته عن سفر زوجها وانفصالهما النفسى كان يعلم أنها تكذب وأنه طلاق، جزء منها كان مُغلقًا ولم يشأ هو أن يفتحه غصبًا، تركها حتى تفتحه وتُطلعه على ما به بنفسها، لكن الحُرّية التى كانت تُعامله بها وخروجها الكامل عن الشرنقة أكدا له أنها أصبحت وحيدة، وشعر أنه مسؤول عن هذا التغيير الذى طرأ على حياتها، فاستمر على أن يكون صديقًا لها ليس حبيبًا فحسب، وأن يكون مرفأها الآمن عندما ترسو سفنها وبحرها الواسع عندما تبغى الترحال، علّمها القيادة وشجعها على العمل، كما حرص على أن ينقل لها علمه وثقافته دون انحياز لفكر مُعين، وكانت تستجيب له، تعلّقت به وفاض حبهما مع القُبلة الأولى التى كانت أعذب وأشهى ما فى حياته، فبرغم أنه ارتشف شفاها كثيرة قبلها بحب وبدون، لكن قُبلتها كانت كالطُهر الذى أتى ليمحو دناسة الماضى.

كان كمُحدث حب، اكتفى بحبه عن الدنيا كلها، وأصبح يقضى يومه فى انتظار لقائها أو سماع صوتها، ويسهر لياليه يُفكر بها، يعض وسادته ويركل غطاءه الخالى منها، هى لم تُطالبه بأى شيء مثل الباقيات اللاتى كانت فى أعينهن دعوة زواج، ولم تُحمّله مسؤولياتها، كما أنها لم تتأثر به مثل الأخريات اللاتى حاولن أن يجدن طريقهن إلى قلبه بالتشبّه به، فكُنّ يُقلّدن ألفاظه وطريقته حتى نبرة صوته ويستخدمن مفرداته، ويُدخّن معه، هى الوحيدة التى لم تُحاول أن تُغيّره، أو تثنيه عن التدخين والسباب وكل عاداته السيئة، كانت تُحبه وكفى، لا تُريد منه إلا أن يسقيها الحب بقدر ما تسقيه ويحتوى قلبها بكل تقلباته واختلالها بكل جنونه، أصبحت هى ابنة قلبه المدللة، فما تخيل يومًا أن يبعد عنها، حتى بدأ يشعر أن حبه لها وصل لمرحلة لم تصل لها مشاعره من قبل، كان ذلك عندما رآها تتحدث مع شادى بانطلاق وحيوية لم يعهدهما فيها عندما عرفها، ولمس تحررها مع الغرباء بالحديث معهم والمناقشات الطويلة، كان هذا تغيرًا عاديًا يُلائم ما جدّ على حياتها، لكنه كان يضايقه ويُثير أعصابه، أخرجت منه الشرقى فيه بعد أن ظنّ أنه متحرر النزعة، لم يعُد الرجل الذى لا يعبأ بشيء ولا تهمه امرأة ولا يغار مهما حدث، ثقته بنفسه كانت أعلى من فعل الغيرة.

غضبه من شادى كان له رواسب، فقد سمع من أصدقاء كُثر عن كُرهه المُستتر له وحقده وغيرته من انتزاعه لقلوب الناس، وشعر بقلب المُحِب أنه معجب بعالية بل ويصبو للاقتراب منها بأى شكل، حتى أنه حاول مصادقته ليصبح صديقًا مشتركًا وأصبح حريصًا على حضور كل ندواته ليتعثّر بها، لذلك غضِب عندما وجدهما يضحكان وشعر أنها أصبحت تُحلق معه ومع غيره، فجنّ جنونه وأخرج ثورته فى هجومه على خصومه السياسين على غير عادته، انتهت الندوة بمشاجرة وضرب وإهانة لكل الموجودين، لا تعنيه المشاجرات والإهانات، لكن هذه المرة شعر أنه غاضب غضب أحمق أسود وبداخله زوبعة تكاد تفتك

بأعصابه، اتصالات عالية ومحاولتها للاقتراب استفزّت رغبته فى البُعد أكثر، فقرر أن يُخلّف وراءه كل هذا العبث ويعود كما كان مستقلًا، همجيًا صعلوكًا برداء ملك، وملك بزى صعلوك، ما كان يشغله هو كيف يُبلغ عالية بقراره، هل يصمت ويتركها لتفهم وحدها، أم يُقابلها ليُنهى صفحة من حياتهما؟ استقر على أن يُرسل لها رسالة، فلا هى تستحق أن يُهملها كأن شيئًا لم يكن، ولا هو يتحمّل أن ينظر فى عينيها ويودّعها للأبد.

مضى فى حياته كما كان، يضحك ويسهر، يتعرف على أُناس جُدد ويقرأ كل ما يقع تحت يده بشغف، يخُط خواطره الفلسفية والسياسية باجتهاد، لولا هذه الغُصّة فى قلبه. كان يذكرها دائمًا رغمًا عنه، يتحدث فيبحث عن الانبهار فى عينيها، يمكث فى البيت فيفتقد صوتها العاشق ويُمسك نفسه عن مُهاتفتها، يخرج فيذكر خطواتها السريعة جواره وهى تسبقه وتضحك له، ينام فتُطارده عيناها الباكيتان وتؤنبانه، شفتاها المكتنزتان كانتا تؤلمانه، يتخيل أنه يلثمهما ثم يقضمهما وينتزعمها من على وجهها، ليحتفظ بهما تحت وسادته ويروى ظمأه أنّى شاء، طيفها الرقيق كان يزوره ويُعاتبه برقّة، ولأول مرة بدأ يتمزق ويشعر بحنين غريب لها يُقابله صمود غريب يأبى العودة، أغرق نفسه فى القراءة وهو يهرب من حقيقة أنه ضحّى بأجمل ما فى حياته من أجل أن يحتفظ بحياة باردة لم تعرف معنى الدفء إلا معها، أقنع نفسه حتى يُهدئ من حنينه أنه سيستدرجها لندوة ليراها، يطمئن عليها ويعتذر لها، لكن ذلك بعد أن تنقشع عاصفة الفُراق، واستجاب لرغبة نهى فى أن يُفكّر فى الانضمام للحزب الجديد، لا سيما أن انتخابات الرئاسة على الأبواب وهو يُريد أن يُحدد اتجاهاته، سمح لفتيات جُدد أن يدخُلن حياته بشرط أن يقفن على أعتاب مشاعره، فتلك أصبحت منطقة مُحرّمة، من يدخلها هالك لا محالة، فكل من كانت تخطو بها بثقة امرأة فى قلب رجل يُجامل وأحيانًا يُغازل الجميع، كانت تُطرد خارج مجرّته بأكملها.

لم تطل وقفته بالشُرفة، وكان يُفكّر بعالية كما اعتاد كلما اختلى بنفسه، ذهب ليلتقط هاتفه المحمول الذى أنهكه الرنّ، كان الرقم غريبا، رد فكان الصوت ليس بالغريب أبدًا .. كان الصوت المتوتر العذب .. صوت عالية.

****

انتهت من يوم عمل آخر، لم تعمل فيه بعد أن فقدت اهتمامها بكل شيء، كانت تبدو للجميع شاحبة ومريضة، نصحوها بأخذ إجازة، لم يعلموا أنها كانت بصدد ترك العمل، استقلّت سيارتها ولم تُحكم غلق النوافذ ولا ارتدت نظارتها أو القفاز الذى يقيها من الشمس، أدارت الراديو الذى تآمر على أعصابها وأذاع أغنية لأم كلثوم، راحت تسمعها بشجن (يا حياتى أنا كلى حيرة ونار وشوق إليك .. نفسى أهرب من عذابى نفسى أرتاح بين إيديك)، نزلت الدموع منها بفيض حتى ما عادت ترى من الطريق إلا صورته، صورة حسن، (والخصام والغدر وليالى الأسيّة .. كل دول ما يهونوش حبك عليّا) كيف مازالت تُحبّه بعد أن ركلها من طريقه وعاش حياته كأن شيئًا لم يتغير، كأنها كانت سحابة مرّت بسمائه ولم تترك أثرًا؟ مازال يحضر الندوات ويُلقى الكلمات بل ويريد أن ينضم لحزب نهى، كيف تخلى عنها وعن مبدأه فى عدم الانضمام لحزب وعدم الإذعان لأى شيء يُسيطر عليه، كيف نسى؟

كانت تتعذب بهذه النوبات التى تُداهمها كل حين كوخزات الإبر، فتجعل قلبها أرق من ورقة شجر بالية على الأرض، لا تكاد أغنية أو ذكرى تلمسه حتى يتفتت ويضيع فى الهواء، لماذا لم تتغير مثله وتعيش حياتها كأنه طيف مرّ وانتهى، ليتها تفقد الذاكرة، ليتها تعود بالزمن عاما للوراء عندما كانت ربة منزل راضية بحياتها ولا يشغلها إلا متابعة المسلسلات ومحاولة إرضاء رجل لا يرضى، لكن كل ما مضى لا يعنى شيئًا بدونه، فهى لم تولد إلا من عينيه، حبه هو مولدها الحقيقى، ومشاعرها تأبى أن تتغير، تزيد وتقل، تخمل وتهيج، لكنها لا تتغير، (والى جوه القلب كان فى القلب جوه .. روحنا واتغيرنا إحنا إلا هوه .. هو نفس الحب وأكتر .. هو نفس الشو ق وأكتر).

صفّت سيارتها وذهبت لمحل قريب، اشترت خط اتصال جديد وغيّرت شريحة هاتفها، فى السيارة أحكمت غلق النوافذ ثم اتصلت به وقلبها من فرط الاضطراب يكاد يشُق صدرها ويخرج ليجرى فى الشوارع، عندما سمعت صوته الكسول شعرت أن حنينها فاض وغطّى العالم من حولها، ترددت قليلًا وهى تُلقى عليه السلام، رد عليها بنفس عاطفته قبل الفُراق، فشعرت كأنها كانت فى حلم مزعج الأسابيع الستة الماضية والآن فقط هى يقظة، الآن فقط تتنفس، لم تُعاتبه، وأسعده هذا، فكم كان يُريد أن يتصل بها ويوقفه ضيقه من العتاب وموقفه وهو جالس كتلميذ مُذنب أمام مُعلّمته، لكنها خالفت ظنونه ولم تُعاتبه سوى بنبرتها الحزينة القلقه التى أصابت موضع الضعف فيه، شعر أنه يذوب بين حنايا صوتها العاشق، ثم سألته فجأة كأنها تذكرت الحجّة التى اخترعتها لتُحدّثه:

- كنت أود أن أسألك عمن تنوى انتخابه غدًا فى انتخابات الرئاسة؟

- تقصدين أن أختار ما بين مُرشح الفُلول ومُرشح الإخوان! ما رأيك أنت؟

- لا أدرى .. أرى أن الإخوان كانوا أحد فصائل الثورة .. أخنق صوتى قبل أن أعطيه للنظام القديم.

- والإخوان أيضًا كذبوا من قبل وليس لهم عهد ولا لديهم رؤية .. دعك من مشروعهم الوهمى، فهذه هى عادتهم، اختلاق الأمور المُهمة الكبيرة.

- أراك تميل للنظام القديم .. (قالتها بنبرة ذات معنى)

- أنت تعرفين يا عالية أنى رجل لا يُفكّر فى الماضى، ما فات قد مات.

- كل ما فات .. مات؟!

- ليس كله .. الصدق لا يموت.

سألته بحذر: هل كان حقيقيًا؟ ما فات...

فهم قصدها فردّ بصوت غاضب: وحياة أمى كان حقيقيًا.

ضحكت وغردت عصافير فرحة فى صدرها، لأول مرة منذ ستة أسابيع تضحك، ثم سألته مرة أخرى:

- ما علينا .. لا تهرب من السؤال، من ستختار؟
- مُصّرة أن تعرفى.
- أكيد.
- حسنًا، سأذهب للجنة وأكتب فى الورقة .. أين الثوّار يا أولًاد القحاب.

بصوت مصعوق ضاحك: عندما تُحدث فتاة مثلى حافظ على لسانك.

ردّ بعدم اكتراث: أنت من كنت مُصرّة على أن أُجاوبك.

ضحكا، ثم سادت لحظات من الصمت .. كان الكلام داخلهما أكبر من شبكات المحمول وسماعات الهواتف، سمع صوت نحيبها مُختلطا بالصمت، وانحشرت الكلمات فى حلقه، لم تخرج سوى كلمة واحدة همس لها بها: «أنا آسف»، كانت قد اتخذت قرارًا مسبقًا منذ عرفته أنها ستُسامحه دائمًا، فردّت بصوت مذبوح:

- لو فعلتها مرة أخرى .. سأموت.
- لا أحد يموت من الحب.
- أنا ممن يموتون من الحب يا حسن!

***

obeikandl.com

(٢٤)

ما عاد الحنين يُراوده، حادثتان بعدهما لم تخطُر بباله فكرة العودة ولو من بعيد، أولاهما تولى الإخوان المسلمين مقاليد الحكم، وثانيهما ريبيكا، هذه الفتاة الإنجليزية ممشوقة القد التى تُشع ببريق الذكاء والحيوية، كانت نادلة بالمطعم الذى يرتاده يوميا، تدرس الكتابة المسرحية، لم يكُن مُنتبها إليها حتى نادت عليه يومًا وهو يُغادر المطعم، كانت فى غير ثوب العمل فبدت أكثر حيوية، رافقته مشيًا حتى منزله وهى تُحدثه عن اهتمامها بالشرق ورغبتها فى التعرف على ثقافته التى حرصت على القراءة عنها منذ صباها، وأصبحت تحُلم بكتابة نص مسرحى عن الشرق وعن مصر تحديدًا، كانت تظن أن مصر بعد الفراعنة لم تعُد سوى أطلالًا من الماضى وبعض الإرهابين والشغوفين بالسياسة، حتى ثورة يناير لم تعرف عنها الكثير، كان مستمتعًا بحديثها وشعر بغبطة من تعلّق عينيها به وهو يُصحح لها معلوماتها كخبير، وشعرها الأرجوانى يتطاير على وجهها وكتفيها العاريتين كأنها أميرة خرجت من الأساطير، تكررت بعدها التمشية وامتدت لتشمل الضاحية كلها، لم يكن هو مُنجذبًا لها انجذاب الحب وقد حصّن نفسه ضده واعتبره عدوه الأول، لكنه كان مُرتاحًا ونشيطًا، عاد ليهتم بمظهره وكلامه والتفاصيل الصغيرة، دبّت فيه الحياة واستعاد مرحه القديم قبل أن يتزوّج عالية.

كانت حياته قبل أن تظهر ريبيكا روتينًا مُملًا من جراء النظام والدقة التى لا يخترقهما شيء، عمل، طعام، فراغ، نوم، حتى خروجه مع المصرى الوحيد الطبيب أيمن أصبح نادرًا لأن الكسل ملأه وبات لا يريد مفارقة المنزل إلا بصعوبة،

فقط ليُجدد الهواء الذى يسكن صدره، حتى أتت ريبيكا لتحل مُشكلته مع الزمان والمكان، أضافت الشغف لحياته ولم تكن عبئا عليه، فلم تُطالبه بأن يتصل بها ولا أحاطته بالجُمل المأثورة (خلّى بالك من نفسك)، (طمّنى عليك)، (اتصل بى عندما تصل). كانت بسيطة وعفوية تأخذ وتُعطى كأنها الطبيعة، لم تُعذبه بصدام وخصام وهجر ولا كانت تتعمد إثارته وإغراءه، كانت عالمًا غريبًا عنه، جديدًا عليه، يستقى منها الثقافة الغربية بقدر ما كانت تستقى منه عبق الشرق، أصبحت ساحرته الصغيرة التى تضع تعاويذها على أيامه فتمنحه البهجة والإثارة، بعض الغرابة فى تصرفاتها هى ما كانت تُحيّره، لكنه كان يُعزّى هذا إلى اختلاف الثقافات.

إحدى تصرفاتها الغريبة كانت عندما انتهى من طعامه وذهب للحمام ليغسل يديه، فإذا بها تلحق به وتدخل إحدى الوحدات الخاصة بالرجال لتقضى حاجتها ويسمع هو ماءها، ثم تنتهى وتقف جواره تغسل يديها ببساطة، لم يمنع نفسه من أن يشعر بالامتعاض والتقزُز منها، اخترع أى سبب حتى لا يرافقها فى هذا اليوم، لكن الفراغ الذى أحاط به عندما عاد مُبكرًا لمنزله الصغير البارد جعله يشتاق لمرافقتها حتى لو لم تغسل يديها بعد الخروج من الحمّام!

تبادلا حديثًا عن المسرح الذى كانت شغوفة به، أخبرته أنه من أصعب الفنون، ليس فقط لأن الكاتب يجب أن يُخضع الممثلين والمسرح والجمهور لأفكاره؛ لكن لأنه يحتاج إلى دراسة الفلسفة، سعة التجربة والإلمام بمشاكل الحياة والإنسان لأنه أحد الفنون التى تتعمّق لتصل لجذور المشاكل الإنسانية، ليس بالضرورة أن تحلّ المشاكل لكن يكفى أن تُسلّط الضوء عليها وتجعلها حيّة أمام البشر، كانت ريبيكا تُحاول قدر الإمكان توسعة تجربتها فى الحياة، لذلك تقرأ عن الفلسفة ومُختلف الثقافات، ذهبت للعمل فى سن مُبكّرة، سافرت وخاضت الكثير من المغامرات إيمانًا منها بأن التجرُبة هى خير مُعلم.

كانت مع كل لقاء تُقنعه أن يأتى معها للمسرح، مُغرمة بروح المسرح

ومؤثراته وخشبته والممثلين والجمهور وكل شيء، حدثته عن الطاقة الإبداعية فى المسرح التى تظهر فى شكل أفعال مُثيرة مُركّزة توحى بالمغزى الكبير المليء بالمعانى، وعن واقعية المسرح الحديث المُتمثلة فى المحُاكاة، خلط الواقع بالخيال وليس خلق أحداث من العدم، على العكس من مسرح شيكسبير والمسارح اليونانية التى تتسم بالتجريد والرمز، كان يعرف أن أغلب الإنجليز مُهتمين بالمسرح، إن لم يكن بدراسته والمشاركة فيه فعلى الأقل بالحضور والمُشاهدة، لكنه لم يُفكّر أبدًا أن يزور مسرحا، ولم يكن يومًا مُهتمًا بالفنون، حتى إن عالية كانت كثيرًا ما تُلحّ عليه أن يحضرا أيًا من نشاطات ساقية الصاوى أو حتى يذهبان للمسارح الحكومية أو الخاصة، وكان يرفض ويعتبر هذه الدعوات شيئًا من التفاهة وروقان عالية الطفلة المُدللة الفارغة، أمّا الآن فتُسعده هذه الأحاديث مع ريبيكا الساحرة وإن كان يتمنى أن يتحدثا فى أمور أخرى.

زار معها المسرح على سبيل التجربة والتجديد الذى لم يكن من طبعه، المسرحية كانت «بيت الدُمية» للكاتب النيرويجى"هينريك إيبسن»، أعجبته أجواء ما قبل المسرح وهما جالسان متجاوران فى إضاءة خافتة تلفهما موسيقى كلاسيكية ناعمة، كل البناء فى إنجلترا وحتى فى مُقاطعته الريفية كان قديمًا، أثريًا وبداخله أحدث أساليب الراحة، فجمع بين عراقة الماضى وحضارة المستقبل، خاصة المسارح كانت تتمنى لعصور كلاسيكية قديمة لم تمتد الأيادى لتشوّه جمالها الأرستقراطى، بقت كما هى جزء من الماضى العريق المزُدهر، شعوره بالمكان كان أقرب لشعوره بمتحف أنيق استأثر على كل إعجابه، أكثر من هذه المرأة التى تُرافقه.

كانت ترتدى ثوبًا رخيصًا لم يرقه، صامتة فى جلال كأنها فى حضرة شيء رهيب، ظلّت على صمتها طوال العرض، تتعبّد لا تُشاهد، حتى إنّه شعر بالإحباط لعدم مشاركتها له هذا الحدث الجديد، فى البداية تململ وفكّر جديًا أن ينام حتى ينتهى العرض، لكن سُرعان ما خطفته الأحداث وهذه الممثلة

الصغيرة التى تنساب على أرض المسرح وتزرع أرضه جيئة وذهابا فى ثقة وصوتها المُنغّم يسحر المُشاهدين، كانت تقوم بدور «نورا» البطلة الساذجة العادية التى لا تعمل شيئًا فى حياتها سوى مراعاة زوجها وأبنائها والتقافز بينهما مُهللة عند عودته، نورا التى عاملها زوجها كأنها دُميته الأثيرة سمَّاها «عصفورتى الجميلة»، دللها كثيرًا وهى محبوسة فى قفصه، حافظ عليها فى بيته الزجاجى حتى لا تخرج للعالم وتنجرح، لمس فى أدائها الشفيف روح عالية، وشعر أنه هو «هيلمر» البطل الذى عاش مع زوجته فى برود وعُزلة حتى يُجنبها جحيم العالم الخارجى، وعند أول مشكلة حقيقية بينهما لم يقبل هيلمر بأن تتصرف زوجته من نفسها حتى وإن كانت نواياها سليمة وتصرفاتها نابعة من فرط حبها له، كانت تظن أنها ستكسب حظوتها عنده عندما زوّرت واقترضت حتى تُساعده فى أزمته الصحّية والمالية، لكنه بدلًا من أن يقف بجانبها ثار عليها واستمر يُعنفّها ويؤنبها لأنها خرجت عن المسار الذى رسمه لها.

يا إلهى، كيف اختارت ريبيكا هذه المسرحية بالذات، أم إن القدر هو من اختار؟ وكيف تكون البطلة لها روح عالية وكيف يُشبهه البطل إلى هذا الحد؟ حتى النهاية كانت قريبة من نهايتهما، فالبطل لم يُركز على حبها له وتضحيتها من أجله واهتمامها به، إنما ركّز على خروجها عن قوانينه وعن بيت الدُمى الذى حبسها فيه حتى لا تخرج للعالم الواسع الذى لا تعرف شيئًا عنه، صدمتها ردة فعله وأخيرًا تمردت وكان قرارها الأخير بهجره للبحث عن ذاتها والتخلّص من دور الدُمية، وكلمتها الأخيرة كانت «وداعًا»، صفقت الباب بقوّة اهتزت لها خشبة المسرح وقلوب المُشاهدين، قالت له ريبكيا وهما عائدان أن صفق نورا لباب الخروج دلالة لم تُسمع دويّها على المسرح فقط وإنما سُمعت أصداؤها فى جميع أرجاء مسارح العالم، لينتقل هذا الدوى بعدها إلى مُرتكزات اجتماعية كبرى تتعلق بالأفكار التقليدية لأوروبا القرن التاسع عشر، والخاصة بعلاقة المرأة بالرجل، كانت ثورة اجتماعية حقيقية وليست مُجرد مسرحية.

سألها إن كانت المرأة الآن بعد كل ما وصلت إليه من تحرُر ونالت من حقوق مازالت بحاجة لمثل هذه الرواية، وأجابته أن يسأل نفسه هذا السؤال إن كانت المرأة فى الشرق مازالت تُعانى من هذا الفكر وتلك القيود الحريرية التى تجرح أكثر من القيود الحديدية، وزادت أن المسرح لا يتبنى الأفكار القديمة فحسب إنما يطرحها من وجهات نظر عديدة وجديدة، ظل يُفكّر بالرواية والمسرحية عدة أيام حتى إنه حضرها مرة أخرى وحده ليلمس تجربة اكتشاف الذات التى مرّت بها البطلة وليتأكد من شعوره بالشبه بين أبطال القصة وأبطال الحياة.

كان على موعد مع ريبيكا فى منزله، هى من دعت نفسها دون مُبررات أو حجج، لم يعترض أو يتردد فقد أصبح جزء منه غريبا ينزح للتجديد من مُفراداته وعاداته، لم يجد غضاضة فى زيارة غريبة من امرأة غريبة فى بلاد غريبة، قد تمنحه هذه الزيارة بعض الدفء الذى يفتقده منذ أتى من جحيم مصر، دق الباب ليُعلن وصول الساحرة، دخلت وفى يدها رُزمة كتب صغيرة، هى بعض مسرحيات لشكسبير، راتجان وجوته الكاتب الألمانى الذى اهتم مثلها بالشرق، كانت ككل امرأة عربية أوغربية تودّ أن يُشاركها رفيقها أشياءها الحبيبة وأحلامها الصغيرة والكبيرة، تظاهر بسعادته من الهدية، رحبّ بها وقدم لها مشروبًا استوائيًا يُناسب لُطف الجو، تحدثا لأول مرة عن هذا الشبح الذى يُطارد أى رجل وامرأة حين يكونان وحيدين، عن الحب، لم يبدُ أنها أحبّت هذا الحب الكبير الذى تتحدث عنه النساء العاشقات وفى عيونهن بريق ودمعة، هو أيضًا لم يشعر برغبة أن يُحدثها عن عالية، لكنه حكى لها عن فرح وعن بعض القصص القديمة التى مرّت بحياته، لم يكن ينوى أن يتعمق معها فى هذا الأمر هو يُريدها صديقة فحسب تؤنسه دون أن تطرق أبواب العذاب داخله، فبدى حديث الحب مبتورًا بينهما.

بعد أن تناولا البيتزا وشربا الصودا، طلبت منه مشروبًا كُحوليًا، فاستحى أن يخبرها أن دينه يُحرمه واكتفى بأن قال لها إنه لا يستسيغ طعمه، كانت هذه

بداية حيائه معها، جلسا على أريكة واحدة فى غرفة المعيشة المفتوحة على المطبخ، اقتربت منه وهى تستكمل حديثها معه كأنها تعتدل فى جلستها ليس أكثر، ثم سكت الكلام بينهما، حاول هو أن يسترجعه لكن الأوان قد فات، فقد تعلّقت عينا كل منهما بالآخر وكأن الوقت قد حان لأن يتوقفا عن الصداقة المزعومة ويتصرفا كناضجين وحدهما فى المنزل، طال الصمت الخافق ولم يكُن ينوى أن تتطور علاقتهما لكن يبدو أنها هى من نوت وليس للرجوع من سبيل، اقتربت منه بأنفاس مُنتشية ودون مقدمات قبّلته، انتشى من دفء أنفاسها ومسّ شفتيها المحترفتين، فقبلها بدوره قُبلة عنيفة، أراد أن يقول لها بها أنه حتى وإن كان للغرب سبق البداية لكن الإقدام والقوة من نصيب الشرق، اقتربت أكثر وراحت تفُكّ أزرار قميصه وهى مُستمرّة فى العزف على شفتيه ألحان القُبل، رغم النشوة لكنه لم يفقد عقله، كان بكامل تركيزه، يترقب ولا يُريد أن يُفسد اللحظة بهذه اليقظة الشديدة التى داهمته، قالت كلمات قليلة بصوت متهدج من أنفاسها اللاهثة، قالت إنها كانت تحلُم بأن تفعل هذا مع رجل شرقى، وأنه جذبها من أول لحظة رأته فيها فى المطعم، قالت شيئًا لم يُفسّره عن بشرته الخمرية الخشنة، وهو لايزال على ترقّبه.

نهضت فجأة وخلعت فستانها الخفيف بحركة واحدة، كأنه صُنع خصيصًا ليُخلع ببساطة، ثم عادت لترقد فوقه وهو مذهول ومُمتقع، كان لها جسد مشدود نحيف، وصدر رشيق يخطف بياضه الأبصار، شعرها الأحمر تساقط على صدره فشعر أنه داخل إحدى مسرحياتها الهزلية وليس فى الواقع، لم يستطع إلا أن يُطوّقها بذراعه، لكنه لم يستجب لفورانها فلازال عقله تتجاذبه اليقظة والنشوة، رائحة جسدها تُشبه رائحة العرق المكتوم، حاول أن يحتوى جنونها فنهض بجزعه وقد تصلب جسده تمامًا، سألها وكأنه يُحدث نفسه بصوت عال (كم مرة فعلت هذا؟)، لم تُجبه، كانت مجذوبة جسده تغزوه كالمهاويس، فعاد ليسألها بصوت أعلى وكأنه يُحاول أن يقب برأسه من موجها العالى (كم مرة خُضت علاقة؟) تركت صدره واقتربت بوجهها من وجهه وهى تُجاوبه بأنفاس مُتعبة:

- كم مرة .. لا أستطيع أن أقول، أم تقصد مع كم شخص؟

- مع كم شخص؟!

كانت تهوى الحكايات التاريخية حتى فى أحاديثها العادية، فأجابته وكأنها تقُصّ عليه تاريخها مع الحب:

- أول مرة وأنا فى المدرسة كان على سبيل التجربة، ثم مرتان وأنا فى الكُلية، ومنذ أتيت هنا منذ ثلاث سنوات، لم أخض سوى علاقتين فقط آخرهما انتهت من ستة أشهر.

- إذن أنا الرقم ستة؟!

- هل يروقك الرقم؟

وضحكت، كانت تظنّها دُعابة، لكنه لم يضحك، كان جادًا، فاجأه العدد وكان يظنّ أن الأفلام الأجنبية تكذب بهذا الصدد، ريبيكا لم تشعر بشيء غريب، طالما أن كل علاقة كانت مُستقلّة بذاتها تنتهى لتبدأ أخرى، أما هو كرجل دقيق يُعانى بعض الوسوسة فكانت تؤرّقه فكرة الأمراض التناسُلية التى تنتشر فى الغرب بسبب الممارسات الجنسية غير السويّة، وكان يشغله هذا الأمر منذ حضر لإنجلترا، لذلك لم يُفكّر قط أن يخوض علاقة شرعية أو غير شرعية هناك، لكن حياءه العجيب كان مازال مُسيطرًا عليه، أمّا ريبيكا فلم تلحظ شروده واعتبرته خجلًا شرقيًا، نزعت قميصه وهو مُستغرق فى تفكيره وبمجرد أن ركز فى عُريها والزغب الأشقر يكسو جسدها شعر بتقزز كبير، أكبر من هذا التقزز الذى شعر به وهى تقضى حاجتها جواره فى حمام الرجال، حاول أن يُبعدها عنه وينهض، لكنها فاجأته بتشبثها به، دفعها فلم تبعد إنما اقتربت أكثر، لكنه كان قد اتخذ قراره.

نهض بقوة، فالتصقت به بقوة أكبر، كنمرة شرسة مُصرّة على التهام فريستها، لكن إصرارها لم يزده إلا تصميمًا وعصبية، فوجد نفسه بكل توتر الرجل الذى يتحكم فى رغباته وبكل ضيق الرجل الذى يكره أن يخضع لامرأة وبكل حنينه

وحزنه وغضبه ينزعها عنه ويُلقى بها على الأرض، نظرت له بغضب وألقت جواره طاولة قريبة من يدها، فهاج وثار واقترب منها ليبطش بها، تعلقت بعُنقه تُجدد المحُاولة فلطمها على خدّها بكفه ثم بظهر كفّه، سقطت من قوة اللطمة على الأرض ثم نهضت وهى تنتحب، سبّته ببعض الألفاظ المحلّية التى لا يعرفها ثم لملمت نفسها وارتدت ثوبها وقد بدأ وجهها فى التورّم وشفتها فى النزيف، جلس هو تعبًا مصعوقًا مما حدث، لا يعرف هل عليه أن يعتذر أم يكتفى بصمته، وقبل أن يُقرر ما يفعله أتاه صوتها جهوريًا وهى تُخبره أنها ستتوجه فورًا للمستشفى وتحصل على تقرير ومن ثم تُحرر له محضرًا فى قسم الشرطة وآخر فى مركز لحقوق المرأة، ليُعاقب على عُنفه معها، نظر لها كالمعتوه فتركته ورحلت وهى تتوعد وتسُبّ.

ظل جالسا فى مكانه، عيناه مُنكستان فى الأرض وأنفاسه لاتزال تلهث، خامرته كل الخواطر وهو فى جلسته، هل ستُنفّذ تهديدها حقًا؟ وما خطورة هذا على عمله ومكوثه فى هذه البلدة؟ فكّر فى كل الاحتمالات لكنه كان سعيدًا أنه انتصر ولم يخضع لها، رغم كل الإغراءات، ورغم وحدته التى آنستها واحتياجه لها، ولأول مرة منذ سافر تنزل دموعه، دموع عزيزة، دموع رجل يحتقر البكاء، تذكّر عالية وهى تحتضنه بيديها الصغيرتين وتتوسد صدره فى حنان، تذكّر دموعها على صدره، كانت تقول له الكثير ولم يسمع ولم يُبادلها المودّة ولا الرحمة، كان يظن أن المودّة هى اهتمامه بمتطلباتها وإحضار كل شيء للبيت والرحمة هى عدم معاملتها بقسوة وحدّة بدون داع، تذكّر رائحة جسدها الشهيّة، رائحة الحب والطُهر، وتذكّر إعراضه عنها وتأففه من ملامستها له، تذكّرها وهى تودّعه عند باب البيت بحزن وسخريته منها (أنا لست بمسافر!) واستقبالها له بالشوق والقُبل التى يبادلها إياها حينًا ببرود وحينًا آخر يغلق شفتيه ويرفض، كان يرفض شفتيها عندما يكون غاضبًا من أى شيء، يُلقى فى نهر حبها العذب كل قاذورات غضبه، تذكّر نظرتها الخائفة المصدومة

عندما يضربها، حتى اعتراضاتها وثورات غضبها الخائبة كانت سريعًا ما تنتهى وسريعًا ما تأتى هى لمصالحته، وكان غالبًا لا يقبل!

لم يسأل نفسه هذا السؤال من قبل، هل كان حقًا يُحبها؟ هو حتى لم يُحاول أن يتأكد من مشاعره طوال سنوات الزواج الثمانية، كان يعيش معها فى انتظار أن يمر الوقت فحسب، ولم يُحاول أن يبحث فى جذور مشاعره حتى يعرف ماذا يُكنّ لها، قد لا تكون إنسانة كاملة أو زوجة مثالية، لم يشعر بالإعجاب تجاه أى من تصرفاتها، الشيء الوحيد الذى كان يُعجبه بها هو حبها له، وعندما شعر أنه فى طريقة للزوال، انتفت ميزتها فتركها قبل أن تتركه، لكن كيف تزوجها إذا كان حقًا لا يُحبّها؟ ثم تذكّر ..

تذكّر عندما رآها لأول مرة وظل يُفكّر بها عدة أيام وشعر أنها خطفت من روحه شيئًا، تذكّر أنه لم يُفكّر فى طريقة يتقرب لها بها أو شكل تسير به العلاقة، هى الوحيدة التى لم تُرهقه فى التفكير إنما اتخذ قراره فورًا بأن يخطبها وأنها له لا محالة، تذكّر رقّتها فى أيام الخطوبة ورسائلها التى تقطر حبًا وأول قُبلة ارتجفت لها شفاهما، وأول ضمّة عندما أخبرها أنها على مقاس ذراعه بالضبط، تذكر فرحتها بالبيت الجديد وفرشه وكيف أنها لم تُرهقه بطلب أو تُكلّفه بأمر مثلما يحدث فى كل الزيجات حوله، كانت راضية سعيدة بكل ما يُقدمه لها، تذكّر يوم الفرح وهى تُغنّى له ولا تشعر بوجود شخص غيره رغم الزحام، تذكّر أول ليلة لهما وهى تضُج وتغلى وتعرق وتذوب عشقًا بين ذراعيه، تذكّر ليالى النشوة بينهما عندما كان يُقبل على إقبالها بعاصفة من العشق، تذكّر بطنها المنفوخ بصغيرهما وهى تسير بخجل جواره تتوارى فيه عن عيون البشر، تذكّرها يوم الولادة وهى تعبة مُتألمة تُنادى عليه بعينيها، تذكّرها وهى تنهض فى الصباح المبُكّر حتى تصنع له طعام الإفطار وتكوى له ثيابه، تذكّرها وهى تُقدم له الطعام الذى مكثت من أجله فى المطبخ ساعات حتى يقول لها (ليس أسوأ من هذا الطعام)، تذكّر لهفته على العودة للمنزل، وراحته لوجودها حتى

إن كانت نائمة أو مشغولة، تذكّر إعجاب الناس بها عندما يصطحبها لأى حفل أو فرح ورغبته الشديدة أن يُخفيها عنهم فى صدره حتى لا يراها غيره، تذكّر غضبه كلمّا خرجت مع صديقاتها وحدها وانتظاره الشغوف لعودتها كأن الدنيا أصبحت فراغًا بدونها، وتذكّر وتذكّر وتذكّر.

حتى وصل لحقيقة أنه يحب عالية، ربما طريقة تعبيره مختلفة عنها وربما أخطأ بنهرها ومحاسبتها الدائمة وملأ نفسه بالشعور بتقصيرها فى حين كان هو الآخر مُقصّرًا وبعيدًا عن مشاعرها، شعوره أنها ملك يديه جعله لا يُفكّر بها، ومُعاكسة الحياة له وقصر اليد عن كثير من الأمنيات جعلاه يشعر أنها هى السبب، وأنه لو كان وحده لكان بإمكانه أن يركُل الحياة ويُخضعها لرغباته لا أن يخضع لها هو، وهاهو الآن وحده لا يفعل شيئًا ولا يركُل الحياة لكنه يخضع لرتابتها وقوانينها، يعصف به حنينه لزوجته التى تغيرت، عندما تغيّر هو، لم ينتبه لشخصها ووجودها وجمالها، لم يُدرك أن نجاحه فى الحياة مُرتبط بنجاحه فى البيت، هذا لا يُغنى عن ذاك ولا يحدث بدونه.

لو كان أعطاها بعض الحُريّة، لو كان احتواها وعاملها برقّة معاملته مع الغرباء وبحميمية العُشّاق، ما كانت ظهرت فرح فى حياته ولا كانت يئست هى منه اليأس الذى دفع بها للفرار من قبضته، لجأ معها للعنف فى حين أنها كانت حمامة بيضاء تحمل السلام لقلبه، ثم أنكر عليها طيرانها بعيدًا عنه، بدأت مسام قلبه تتفتح ويدخل إليه الهواء، مُحمّلًا بعبير عالية، خرج أخيرًا من وهمه أنه سعيد بحياته وحده، إنه يُحبها ويُريدها هنا معه هى وصغيره الذى يعتصره الحنين إليه كل يوم وساعة، لكنه لن يهاتفها أو يضع بينهما وسيطًا، سيُباغتها ويُهاجمها وينتصر كما فعل أول مرة، لن يدع لها فرصة للتفكير والمعاتبة واستحضار الماضى، سيأتى لها بالحاضر الوردى هنا فى الجنّة، بعيدًا عن البشر وعن كل المنغصات، يجب أن يلمّ شمل أسرته وأشلاء قلبه فى أقرب وقت ممكن، هكذا عزم بأمل جديد بدأ ينمو فى قلبه .. هكذا قضى باقى أيامه قبل الإجازة .. فى انتظارٍ ورجاء.

لم يجرؤ أن يدخل المطعم ثانية أو أن يمر بشارعه حتى لا يصطدم بريبيكا، تبدد خوفه عندما مرّت الأيام دون أى جديد، حتى وصلته رسالة إلكترونية منها، بدأتها باعتذار لأنها تعاملت معه بطبيعتها ولم تُراع كونه له خلفية اجتماعية وثقافية وجنسية مختلفة، ثم أخبرته أن أسوأ تصرف مُمكن أن يصدر منه هو ضرب امرأة، وأنها لولا إبقائها على أيام لطيفة من الصداقة بينهما لكانت حررت له محضرًا وانتهت به فى السجن حتى لا يُكررها مرة أخرى، كتبت له أن المرأة مخلوق رقيق يحتاج لأيادى خشنة تُعامله برفق، وليس بعنف، وتساءلت إن كان هذا العنف طبعه وحده أم طبع الشرقيين عامة، استاءت لحال المرأة العربية وأخبرته أنها ستتعمق فى القراءة عنها وستبحث عن صديقات عربيات تُساعدنها حتى تكتب عن مأساة المرأة فى الشرق مما لا يُدركه العالم، ثم أنهت رسالتها بطلب أن يعود للمطعم متى أراد وألا يخجل من الاتصال بها ثانية إذا رغب، شعر بالراحة بعد أن أنهى رسالتها لأنها لم تتقدم بشيء ضده، لكنه استمر على تجنب المطعم وكل الشوارع المؤدية إليه، وعاش على أمله الذى غلب ألمه.

كانت تفكر، هل أنا حية أم ميتة، تشعر بخيالات غريبة تداعبها، تتلقفها أيادى وهمية تشعر بها لكن لا تراها، كأنها تدفعها لرقصة دراويش صوفية، ورقصت دون أن ترقص، حتى تهاوت من الألم ومن الدوار، لماذا عليها أن تذعن لكل شيء، الطاعة العمياء، تلك الكلمة التى سمعتها منه فى أول أيام الزواج، وأطاعت، وأذعنت، ولم يرض، لا تعرف أين المشكلة لكنها مدركة تمامًا أنها ليست سعيدة، امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها، فى الظاهر زوجة فاضلة وأم حنون، لكنها بائسة تعيش أتعس أيام حياتها، تمر بها الأيام وهى تنفذ وتؤدى أدوارها الكثيرة دون أى امتنان منه، لا تجد عنده إلا القسوة والإهمال، ليالٍ طويلة تنام جواره كأنها نائمة على الجمر، لا عاطفة، لا إقبال، لا عشق، لا لهفة، تتساءل لماذا هى ليست من هؤلاء النساء اللاتى لا يفكرن

سوى ببيوتهن ولا ينشغلن سوى بأبنائهن، لماذا تريد أن تعيش الحب وتخرج عن مسار الحياة التقليدى، إنها تملك كل شيء فى الحياة إلا الشغف، لم تكن تعرف أن الشغف هو الطريق الوحيد لمواصلة الحياة، وبدونه نحيا الموت ببطء.

دخلت المطبخ تحاول أن تتخلص من حالة التوهان والرقص الروحى التى داهمتها وهى على السرير، اقترب ميعاد عودته ويجب أن تصنع أى شيء تضعه على المائدة ويُقرّعها عليه كالعادة، وقفت أمام الموقد ساهمة، شعرت بأصابعه تمسد ظهرها، ثم اقترب أكثر حتى التصق بها، أنفاسه عند عنقها تدوخها، لفحتها حرارة جسده على ظهرها، حتى انهارت مقاومتها وتركت الملعقة الخشبية الكبيرة تقع من يدهاعلى الأرض، ثم عادت للوراء لتكتشف حقيقة وحدتها، إنها وحيدة، حتى وهو جوارها، إنها أقسى درجات الوحدة التى تشعرها وأنت جوار من هو كل الناس لك، ومحرومة، ليس الحرمان النابع من شيء لم تحصل عليه أو مشاعر لم تجربها بعد، لكنه هذا الحرمان القاسى الذى تحرم فيه من شيء حبيب كان له وجود فى حياتك، تنطفئ روحها كل يوم أكثر وزهرة قلبها تذبل دون أن ينتبه أحد، تمنت لو كانت أنضج مثلما يريدها دائمًا حتى لا تحب ولا تتألم ولا تنتظر كمراهقة تتوق لعشق يهز كيانها ويضيف الشغف لحياتها البليدة.

– زوجتك امرأة سطحية فى طور الطفولة .. تحمّلها يا بنى وأمرك لله، غدًا تنضج وتعرف كيف تكون امرأة عاقلة وزوجة تهتم بزوجها .. أتعرف أن نهال ابنة خالك تساعد زوجها فى مصاريف البيت وتقوم هى بشراء كل أغراض المنزل؟ امرأة بمائة رجل مع زوجها كتفًا بكتف، ودينا ابنة خالتك سعاد تسأل عنى كل يوم ودعتنى لتناول الغداء عندها الأسبوع الماضى، طعامها حكاية، ما شاء الله عليها ماهرة فى كل الأصناف، حتى نانو بنت الجيران الدلوعة أقابلها فى النادى وهى ترافق ابنها فى التدريبات وأراها وهى تتحدث مع المدربين وُتقيم معهم علاقات جيدة ليهتموا بابنها، أم ممتازة، دائمًا ابنها نظيف ونبيه،

أما أنت يا حبيبى فلك الله .. لكن لا عليك، غدًا تنضج.

كان يفكر فى كلام والدته وهو فى طريق العودة، شعر بامتعاض من حياته مع عالية، كيف له أن يتحمل مسؤولية عمله ودراسته للماجيستير فى إدارة الأعمال وبيته وابنه ومسؤوليتها هى أيضًا، خطر له أن يمرّ بالمقهى القريب يأرجل قبل عودته لكل هذه المسؤوليات والتعاسة والبكاء الذى ينتظره، هناك وجد صديقه الذى يرى الحياة من نظارة قاتمة السواد، أكمل عليه عندما حدّثه عن أحوال البلد المتدهورة وعن سياسة تقليل العمالة التى تتبعها الشركات وتُقيل أقدم وأكفأ الموظفين وتكتفى بالصغار منهم لتقلل الرواتب والنفقات، كما تطرق فى حواره للزوجات ونكدهن، وأنه سعيد وملك لأنه لم يتزوج بعد، عندما لمس التغير البائس الذى طرأ على وجه محمود زاد وعاد أن الزواج مشروع فاشل إذا لم يكن الطرف الآخر على قدر كبير من المسؤولية المادية والمعنوية، لأن الحياة لا تحتمل المزيد من الأعباء والنكد.

الرجال يتّأثرون، حتى وإن أنكروا هذه الصفة، لكنها حقيقة ثابتة، عندما يغازل رجل امرأة أمام أصدقائه فبداخلهم جميعًا يرونها جميلة ويتمنون لو كانت لهم، وعندما يحط رجل من قدر أحدهم أمام صديقه تنتقل له عدوى نفس الشعور، وأكثر الناس تأثيرًا على الرجل هم أقربهم إلى قلبه، الأمهات عامة والأصدقاء خاصة، فكم من رجل تزوج فقط لأن زوجته أعجبت أصدقاءه وكم من رجل طلق فقط لأن زوجته لم تعجب أمه، عاد للمنزل وهو ساخط على الدنيا وما فيها، بمجرد أن فتح الباب صدمته رائحة شياط تعبّئ المكان، هذا ما كان ينقصه من زوجته الطفلة، لعلها كانت تتابع مسلسلًا أو تتصفح مواقع التواصل ونسيت الطعام على النار.

بحث عنها فوجدها فى المطبخ تجلس على الأرض بجوار الفرن، رائحة الشياط ودخان الحريق يلفّ المكان، شعر بغصة فى قلبه، لم يوبخها كعادته على إهمالها وعدم تركيزها، ولم يتهمها كعادته بأنها تعيش بنصف عقل،

شعر أن هناك أمرًا غير عادى، جلس جوارها على الأرض، نظر لعينيها المتنفختين من أثر البكاء .. سألها لماذا؟ لم ترد .. متى كانت آخر مرة مشطت شعرك؟ يبدو أنها منذ عدة أيام .. على غير عادته الجافة حملها برفق، مشطّ شعرها الكستنائى الناعم بحنان أب وأخبرها أنه هنا من أجلها وأنها حياته. هل كان ينتظر أن تحترق حتى يعود لحنانه القديم؟ عندما لا تأتى الأشياء فى موعدها الذى احتجناها فيه لا نستطيع أن نشعر بها .. أجهشت بالبكاء بين يديه ثم نامت كطفلة لم تنم منذ عصور.

❋❋❋

obeikandl.com

(٢٥)

فى الصيف تُصبح القلوب أرق وأخف وتزداد قُدرتها على الطيران بعكس الشتاء الذى يُشعل النيران فى القلوب فتتألم فى صمت، العشق فى الصيف له صخب وصوته عال ودرجات جنونه مُرتفعة، لكن ليس له ألق وبهاء وسحر عشق الشتاء، قصص الحب الرقيقة تبدأ فى الصيف وتحمل حرارته لكنها تنتهى سريعًا كالأيس كريم، تذوب ويبقى الكوب فارغًا إلا من بقايا عشق، أمّا قصص الحب العميقة فهى التى تبدأ فى الشتاء، وتحمل الألم قبل اللذّة والخوف والارتباك قبل الأمان، تحمل برودة الأطراف ودفء القلوب، وتحيا طول العُمر حتى وإن انتهت بالظروف والمنطق والواقع، تظل رائحتها تُخفّ العاشقين، تُلح بذكرياتها كل شتاء، وتزور العاشقين كل ليلة كطيف عزيز لا يُفارق إلا بمُفارقة الروح.

كانت عجلة حبها تسير بأقصى سرعة ولم تخش التصادُم لأن الطريق خال لكنه لم يكن ممهدًا، ولم تعبأ بالمطبات، كل ما كانت تفعله أن تفتح صدرها للنسمات المتسارعة وتملأ جسدها بالفرحة وتُضرم نار الصخب فى كل ما حولها، لم يُعكّر صفو سعادتها إلا حلول شهر رمضان ليحمل لها ذكرياتها الأخيرة كزوجة فى بيت تصورت أنه سعيد وهانئ، تذكرت كيف كانت تقضى نهارها فى المطبخ تعمل بقلق وتوتر خوفًا من تعقيبه القاسى على طعامها، وعندما تحين ساعة الإفطار تقف كالتلميذ الخائب الذى ينتظر التقريع، لم يُخيّب ظنّها ويأتى ليُساعدها أو يشاركها لحظات الإعداد النهائى للطعام، مثلما كان يفعل أبوها مع أمها،

كانت تتناول الإفطار وحدها فى الأيام التى كان يُفطر فيها مع أصدقائه ويرفض ذهابها وحدها لأهلها، يسهر ليله أمام التلفاز دون أن ينطق بكلمة أو حتى يرُد على ثرثرتها حول المسلسلات والبرامج المعروضة، وكانت تتجنب مناقشته أو مراجعته خوفًا من المزيد من الضيق والبُعد بينهما، كيف بعد كل هذا كانت تظُنّ أنها زوجة سعيدة؟

أحضر أبوها فانوسًا كبيرًا وعلّقه عند باب البيت وأشعلت أمها حماسة البيت بإعدادها للطعام والعصائر على الأغانى الرمضانية المعتادة المنبعثة من الراديو الذى لا تستغنى عنه فى مطبخها، أحضرت هى فانوسًا وزينة لكريم مُحاولة أن تُدخل البهجة على قلبه الصغير، وقد توطدت علاقتها كثيرًا فى الأيام السابقة بعد أن أعطته من وقتها وحنانها أكثر من المعتاد، جعلها الحُب شغوفة بجعل الكل سعداء، نزلوا جميعًا لصلاة التراويح، شعرت أنها أصبحت ترى كل شيء بألوان أزهى من ألوانه وتتذوق الحياة بطعم السعادة، اكتملت سعادتها عندما دعاها حسن لتناول الإفطار معه، وعندما شعر بترددها هذه المرة أصرّ أن تُحضر معها كريم، لم يبذل حسن مجهودًا كبيرًا فى جذب اهتمامه ومشاعره ولم يفرط فى تدليله لأن كريم أحبّه بالفعل من بداية اللقاء، كان مُرهف الحس مُتحفظًا مثل أمه، وشعر بالغبطة من وجود حسن وحضوره الطاغى، مثل أمه أيضًا، بل وإن تحفظه تبدد وبدأ يحكى له عن ألعابه وأصدقائه ويسأله عن ابنته واهتمامًاته، كانت ليلة دافئة لم تشعر عالية بالأمان والهدوء النفسى مثلما شعرت فى تلك الليلة.

سهرت معه، تناولت السحور فى حى السيدة زينب، مشطت معه الشوارع وجلست معه على الأرصفة، أصبحت صعلوكة سعيدة، ولم تعُد أميرة غريبة تزور الأماكن كسائحة تتوق للحظة العودة وتخشى التوهان، أصبحت مواطنة فى مدينته الصاخبة لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات، كان البعض ينهشها ويؤذيها وتصلها وشايات ورسائل واتصالات تُفيد بأنه يخونها، وأحيانًا تتهمها

بالعُهر أو الضلال، كانت تغضب، تنكمش مشاعرها وتتلوى، روحها تغلى مسجونة بين جسدها، تشعر بالانهزام المرير، تئن كهرة محبوسة، ترمى بكلمات هنا وهناك عن كل ما يدور بداخلها دون ترتيب، كلمات حادة لم تجد الوقت أو الجهد لصقلها، ترمى بها جميعًا مع بعض من مرارتها وكثير من هواجسها بين يديه، وهى مُدركة من مشوارها فى الحياة أن الرجال قساة ولا يعرفون إلا احتواء الرغبة أو احتواء الصداقة الاضطرارى، هى لا تحتاج إلا أن يتسع صدره لغضبها، يسمعها، يشعرها، يقول لها «أنا أفهم»، يُطفئ لهيب غضبها كما أشعله. كانت تبعد عنه وتُحاول أن تنتهى من كل شيء قبل أن تموت من هواء المجتمع المُلوّث الذى دخل صدرها عُنوة، وسرعان ما يتبدل ألمها ورغبتها فى الهروب ومغادرة مدينته بالمزيد من الإقبال والغوص فى عالمه.

عملها أيضًا كانت قد بدأت تُعطيه المزيد من شغفها واهتمامها ولم تعبأ بالمضايقات حولها، ركّزت فى الاستمتاع به وفقط، تسرح وتتذكره فتُبدع من أجله، كأنه هو وحده الذى سيرى ما تصنعه ويُقيّمه، مرّت ليلة العيد بالمزيد من الذكريات، ذكريات هذه المرأة التى خرجت دون تخطيط ودون معرفة زوجها لتجده يلهو مع أخرى مطمئنًا أنها قابعة فى البيت تنتظره لتمنحه الحب والإخلاص، كان يخطُر ببالها محمود فتُفكّر فى حاله، هل هو سعيد؟ هل تزوج؟ لماذا لا يظهر فهى تُريد الاطمئنان عليه، جعلها الحب بقلب مفتوح للجميع حتى من عذّبها وخانها وهجر، تُريده أن يتصل بكريم على الأقل أو يزوره، كانت كلما فكّرت به تألمت وتمنت أن تكون حياته سعيدة، أسعد من هذا الجحيم الذى كانا يعيشانه فى الشهور الأخيرة، ومع ذلك لم تجرؤ أن تطمئن عليه من أهله الذين لعبوا دورًا كبيرًا فى التفرقة بينهما وإخفاء أمره طوال هذه المُدّة، كرامتها كانت أكبر من سؤالها عنه، وخوفها من ظنّهم أن اطمئنانها ذريعة للعودة.

كانت تكذب على أمها التى كان يؤرّقها خروجها الكثير وعودة العلاقة مع حسن، فكانت تُخبرها أنها تخرج مع مجموعة من الأصدقاء يكون هو أحيانًا ضمنهم،

وكانت تُخبرها عندما تسألها عما تنوى من وراء هذه العلاقة أنها مازالت بصدد التعرف عليه أكثر حتى لا تتخذ قرارات خاطئة مرة أخرى، أو أنها لم تعُد تُفكّر به كحبيب، كانت تكذب، لأنها فى الحقيقة لم تُفكّر فى مستقبل علاقتهما، فقد علّمها أن تكون بلا خطط، أو أنها ارتاحت لهذا التسليم بالواقع دون الانشغال بالمستقبل، المهم أن تكون سعيدة وتُسعده، هذا كان قبل لقائهما فى العيد الذى غيّر كل حساباتها.

فى هذا المساء الصيفى كانت على موعد معه لحضور حفل غنائى بالأوبرا، انتظرته فى سيارتها وكعادته أتاها مُتأخّرًا مُتبخترًا، أول مرة تراه فى حلّة رسمية، كان وسيمًا وأنيقًا، وكانت هى أيضًا لأول مرة بفُستان حريرى أسود وشال أحمر مُطرّز تلفّه على كتفيها وتربطه عند الصدر، طلب منها أن يترُكا السيارة ويذهبا للأوبرا مشيًا، المسافة كانت بضع أميال، لو كان طلب منها هذا الطلب منذ عدة شهور كانت تململت ورفضت حرجًا من أن تسير فى شوارع وسط البلد المُزدحمة بفُستان، وخوفًا من أن يراها أحد معارفها، لكنها الآن نزلت من السيارة بدون حسابات وتفكير، وسارت جواره كفراشة ليلية تُحلّق بجوار زهرتها الرائعة، أمطرها بمُغازلاته الرقيقة وغازلته أيضًا بسعادة وبدون خجل، كانت تسير بثقة لا تخشى شيئًا، تشعُر أنها أسعد إنسانة فى الوجود، لا يهمّها لو رآها كل من تعرفهم فى هذه اللحظة، حتى مرّا بفندق سوفوتيل القاهرة، نظرت له بتمنّى وشفتاها تتحركان كأنها تقول شيئًا، سألها حسن عن توقفها أمام هذا الفندق بالذات، أجابته:

– خالتى وزوجها رغم بلوغهما سن المعاش إلا أنهما يحرصان على قضاء مناسباتهما الخاصة هنا كل عام .. تُعجبنى هذه الطقوس.

قال ضاحكًا: لأنه فندق فاخر .. أعرفك يا طبقية.

– لا يا حسن .. لأنهما مازالا فى حالة عشق بعد كل هذه السنوات .. يسرقان الأيام وحدهما هنا.

- حسنًا، هو يُعجبنى .. لأنه جوار الأوبرا ووسط البلد.

مالت عليه برقّة ومازالت فى عينيها الأمنية، وقالت برفق:

- هل سنقضى مُناسباتنا هنا؟

- بشرط أن نكون كهلين.

ضحكت وهى تقول: جيد .. عامة أنا من أسرة لا يظهر فيها العجز .. بل يزيدنا العُمر جمالًا.

ردّ عليها وهو يضُمّها بعينيه: وأنا من أُسرة تُعجّز مُبكرًا .. هل ستُحبيننى عجوزا؟

لم ترُد عليه، اكتفت بأن احتضنت كفّه، شبّكت أصابعها بأصابعه وضغطت كأنها تقول له .. سأُحبّك إلى الأبد.

تركها أمام الأوبرا وذهب ليشترى سجائر، تأخّر ووقفت وحدها فى الشارع تنتظره، فصادفت شادى الذى أتاها مُهلّلًا مُرحبًا، حاولت أن تقتصر المقابلة لسلام وختام، لكنه لم يتوقف عن الحديث عن الرئيس الجديد وتفاؤله به ومشروع النهضة وإيمانه بأن البلاد ستتقدم فى وقت قصير، يكفى ما وعد بتنفيذه فى المائة يوم الأولى، كان منفعلًا وسعيدًا حتى إنه نسى أن يسألها عن سبب انتظارها، أتى حسن مُحتقنًا بالغضب، حاول شادى إشراكه فى الحديث كأن لا شيء جدّ بوصوله، وما إن سمع حسن حديثه عن الرئيس الجديد حتى أدلى بدلوه وأعلن عن تنظيره وتوقّعه أن هذا الرئيس إذا استمرّ على موالاته للجماعة التى ينتسب إليها فلن يُقدم أى شيء للوطن، وأنه لن يكون سوى مجرد واجهة مُحبطة لجماعته الذين يبايعون على السمع والطاعة وليس على الكفاءة، وهذا سيضع الوطن رهن إرادة الجماعة وليس الإرادة الوطنية، ستحدث حينها موجة من أخونة الدولة مما يُقلل من الكفاءات ويُثير الشعب ويضع نهوض الدولة على المحك، كما أنه إذا لم يهتم بالسير فى تحقيق أهداف الثورة وظل يُهدد تغيير الهويّة المصرية فلن يصمت عليه الشعب، وكما تسبب نظام مبارك

الفاسد بوصول الجماعة الإسلامية للحكم، فإن فشلها أو سقوطها سيتسبب بعودة العسكرية للحُكم، وستظل الخلافات السياسية مُستمرة إذا لم يحدث توافق وحوار سياسى حقيقى، وهذا ما يُقلقه من الاخوان، أن الحُكم والتعجيل به كان هدفهم الأساسى وليس تحقيق أهداف الثورة، واللهجة الثورية التى طفقوا يتحدثون بها الآن ما هى إلا غطاء آخر لتحقيق أهدافهم.

عالية كانت مؤمنة برأيه وموافقة عليه باقتناع شديد، أما صديقها فكالعادة اختلف معه واتهم حسن بالتشاؤم ومُزايدته عليه بالثورة وأهدافها، وإصراره على روح الثورة وقول (لا) حتى وإن كان الأمر يستحق الانتظار وإعطاء الفُرص، تصادما وأنهى حسن الصدام بأن اعتذر لعالية وتركها وانصرف بحجة أنه تعب، حاولت أن تلحق به لكنه سبقها واختفى فى الشوارع كأن الأرض ابتلعته، لم يكتف بهذا لكنه أغلق هاتفه وأغلق كل أبواب الرحمة فى وجهها، ظلت تسير فى الشوارع كالمهووسة لا تدرى ماذا تفعل وأين تذهب، تُريد أن تغضب منه ويمنعها عشقها المرير، تتمنى لو تصُب لعناتها عليه لكن قلبها لا يُطاوعها، لا تدرى لماذا رحل هكذا فجأة وماذا فعلت حتى يتركها بهذا الشكل المُهين، لم يُغضبها الحرج الذى شعرت به أمام شادى أغضبها شعورها أنها معه كمن يُمسك بالسحاب، يتخيل أنه وصل لقمة السعادة بينما هو لا يملك بين يديه إلا رذاذ الهواء، كانت تشعر أن كل مخاوفها من السقوط من سمائه تتجلى أمامها، فهو يتحيّن الفُرص حتى يُفلت يدها، وتعود من لقائها به وحيدة تسير بدون هُدى، تلوم نفسها أنها تعلّقت به إلى هذا الحد الذى سمح له بأن يتخطى كل حدود كرامتها دون اكتراث، عادت للمنزل بقلب جريح، وتبدّلت أحوالها فى الأيام التالية فجأة كأنها أخرى، أهملت تدريبات ابنها واهتمامَاته والحديث معه، قصّرت فى عملها، انطوت وقضت أغلب الأوقات حبيسة فراشها لا تُريد أن ترى الدنيا حولها، تنظر كل دقيقة إلى الهاتف علّها تجد جُرعة المخدر الذى غادر دمّها وتركها تعيش بفُتات عقل مثل المُدمنين.

تمنت فى هذه الأيام أن تُشفى منه وأن تمُرّ الأيام بسلام وتمُرّ أعراض الانسحاب من الدم دون أن تُؤذى قلبها وجسدها المُنهك أكثر، ودون أن تُسبب المزيد من الألم لمن حولها، لعبت أمها دورًا مهمًا فى خروجها من غياهب البُعد وألمه، فكانت تعرف أن ابنتها تمُرّ بقصة ليست عادية وأنها سمحت لكل بحور الرومانسية الرقيقة والمشاعر الجياشة التى احتفظت بها منذ أصبحت أنثى كاملة فى الفيضان، كانت تُدرك الألم الذى يعترى ابنتها منذ أحبّت هذا الغريب، وهو ألم كبير شديد بنفس قدر الحب الذى ملأ قلبها، فكانت تطمئنها دائمًا بأنه سيعود، حاولت أن تُشركها فى مشاكل الصغير وأموره وحاولت أن تخرج معها خارج أسوار الحُزن وتشترى معها الثياب وتبتاع لها القليل من الفرحة حتى تعود نضارتها، حاولت وحاولت ولكن كل محاولاتها لم تكن تصمد أمام نوبات الحزن الكبيرة التى تجعل من عالية شبح إنسانة.

وجدت الهاتف يُزغرد برقمه وهى فى اجتماع عمل، وكانت تشعر قبل أن تقترب من الشاشة أنه هو، نهضت كالمسوسة وركضت للخارج وسط ذهول الجميع، ردّت عليه وقد خرج قلبها من صدرها وظل يدور كطفل فرح فى أنحاء المكان، أتاها صوته الحبيب الرنان بنبرته الكسولة، وكان أول ما قاله: (وحشتيني) كأنه عرف أن هذا كل ما كانت تود سماعه، سألته: (أنت حقيقة؟) فرد ضاحكًا: (لا، أنا إشاعة)، كانت دموعها تنزل دون أن تشعر، تتمنى أن تنزل على صدره لتُبلله بشوقها، عادت المياه تجرى بقوة وهوس فى كل مجاريها التى كانت تحجرت وتشققت فى البُعد، هكذا دون تبرير كان يذهب ويعود، وهكذا دون مقاومة كانت تقبل بعودته، فمن يمتلك أن يرفض ترياق الحياة، طلب منها أن يراها وفهمت منه أن هذه المرة ليست ككل مرة، كانت لهجته آمرة حاسمة، وكان الجو مشحونًا بالإثارة التى تجلت فى كل لفتة وكل صمت بينهما، حتى إنها شعرت أن ذراعه امتدت لتلفّ جسدها المُلتاع من الرغبة والشوق وأن أنفاسه تنفث النار فى لهفتها المُتأججة، لم تستطع إلا أن تقول (حاضر)، هذه المرة لا مزيد من الحجج

والتردد وتغيير دفة المواضيع وقلب الحقائق، هذه المرة هى لن تُضيعه من قلبها ولن تسمح له بالخروج الآمن، سيبقى بجيوشه وسلاحه مُستعمرًا لقلبها وهى المُحتلة السعيدة التى رفعت رايتها البيضاء برضا وانتصار، هذه المرة لن تُحيّره بـ «لا» تقصد من ورائها نعم، لن تضحك كطفلة بلهاء لتشوّه اللحظة الحاسمة، ولن تردم الأرض لتُخفى ما دفنته فى قلبها والحقيقة ساطعة فى السماء (حاضر سآتى لبيتك).

لم تحسبها فقد سئمت الحسابات التى عاشت عُمرها بين جدرانها، ولم تُحكّم عقلها فقد حكّمته كثيرًا ولم يجلب لها إلا الحزن والخذلان، لكن لماذا لا تُجرّب أن تُحكّم قلبها الذى كاد يذوب وينتهى من قسوة الشوق، هذا الغريب الذى أحبته وغرقت فى حبه من قمة رأسها لإخمص قدميها يستحق أن تُغامر من أجله ولو بروحها، فلحظات العشق معه تُساوى عُمرًا، ولن يكون بوسعها أن تواجه أيامًا كتلك التى مضت قبل اتصاله العزيز وعودته الغالية، لأنها عرفت كل تفاصيل غيابه، عرفت معنى القلق والتوتر والضيق الذى يسحب كل الهواء من صدرها، عانت من المرض الزائف والانتظار والشرود، مزقتها الذكريات والآمال الحائرة، والآن بعد أن اجتازت هذه النازلة ونجت أخيرًا من جحيم غيابه كيف لها أن ترفض الفرح الذى يُقدمه إليها، لن ترفض حتى لو طلب منها عُمرها.

مرّت بها ليلة طويلة من التفكير، كانت مضطربة تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا حتى تقلّصت عضلة قدمها من كثرة السير فى مسافة لا تتعدى الثلاثة أمتار، كان داخلها حوار بين اثنتين، إحداهما ترتدى طرحة بيضاء كبيرة تُغطى صدرها ولها وجه ملائكى تُحدثها بصوت ونبض وطريقة أمها، تحاول أن تُثنيها عن فكرة الذهاب وتُذكرها بمبادئها وتربيتها التى تُحتم عليها أن تظل مُحترمة ومُلتزمة حتى وإن تمردت وضاقت بحياتها، والأخرى تُدخن فى وجهها برائحة دخان حسن وتُحدثها بصوت مُتحمس وعنيد عن ضرورة الخروج من الغُرفات الضيقة والتعرف على سماء جديدة تمنحها السعادة الأبدية، أخبرتها أيضًا أن هذه المُحجّبة

تكذب وتُبالغ لأن زيارتها لحبيبها لا تعنى أنها أصبحت غير مُحترمة ومُنحلّة، وإذا كانت أخلاقها متينة فهى لن تقع فى الخطأ الكبير، ستمنعها تربيتها فى الوقت المناسب، ثم إنه عليها أن تثق فى حسن ورغبته فى الحفاظ عليها، ولتكن هذه الزيارة مقياسًا لإيمانها، لكن إيمانها بماذا؟ بالله والدين، أم بحبها؟

لماذا لا يتفق الإيمان الدينى مع الإيمان بالعشق؟ هكذا حاول عقلها التدخل بين الفتاتين، وعادت المحجبة تُخبرها أنها ليست بالقوة التى تتوقعها من نفسها، بل وأنها منذ فترة طويلة قد انصرفت عن الروحانيات الدينية التى قد تمنعها من الخطأ، كما أخبرتها أن حسن أيضًا ليس قويًا وتفكيره الشاذ وحياته الهمجية من دواعى إقباله على الخطأ ببساطة وتسميته مغامرة، وهى وإن أصبحت مُغامرة فلن تُغامر بشرفها، تدخلت الأخرى لتقول إن كلمة شرف كلمة أكبر من الموقف وأنهما بالكاد سيتحدثان ويمنحها بعض القُبُلات العذبة حتى تعود للحياة ببهجة فى قلبها ورغبة كبيرة للنجاح والتحقق .. ظلّا على حوارهما المُنهك حتى أدركهما الصباح وذهبت عالية كمُغيّبة لعملها.

قبل الموعد بساعة اتصلت به، كانت قد استجمعت بعض شذرات عقلها الغائب التعب، سألته وهى تدّعى عدم الإدراك:

- لماذا البيت؟ ما الفارق بين وجودنا هناك ووجودنا بمكان عام؟
- الفارق كبير!
- وضّح حتى أكون على نور.
- فى البيت يمكننا أن نتناول طعامنا ونتحدث دون وجود عيون تُراقبنا وتعُدّ حركاتنا .. فى البيت يُمكننى أن أسمع أنفاسك بوضوح .. وأن أمسح بيدى على شعرك.

وكانت تُريد هذا وتحلُم به، استطردت:

- هذا فقط يا حسن .. لا يُمكننى فعل أكثر.
- أعرف.

– ولا تقل دجاجة وحمامة وقطة منازل .. أنا كل هذه المخلوقات إن شئت .. فقط عدنى ألا يحدُث شيء!

– أنت قديمة جدًا .. لا ينقصك إلا أن تقولى «شرف البنت زى عودالكبريت»، و«اللى انكسر ما يتصلحش» والأمطار تُغرق الشوارع والطعام يغلى على النار وذئب بعيد يعوى .. أرجوكِ اخرجى من جو أفلام حسن الإمام وصلاح أبو سيف. ومع ذلك فلا تخافى .. أنتِ مثل أختى وسأُحافظ عليك.

ضحكت بتوتر ثم أغلقت الخط، كانت تستعد لهذا اللقاء كأنها عروس تستعد لليلة فرحها، جسدها يبرق، وتفوح منه عطور الشوق، شعرها مُهندم لفّته داخل طرحة حريرية بيضاء، كحّلت عينيها ووضعت الزواق الذى كانت أهملته منذ شهور طويلة، ووضعت قرطًا لامعًا على شكل فراشة تعرف أنه لن يظهر لكنها أحبّته، ترددت كثيرًا قبل أن تنتقى ثيابها، وحرصت على أن تكون قطعا جديدة مثل أيامها، سوداء رقيقة من الداخل، وبسيطه فرحة من الخارج، وصلت منزله وفى يدها هدية بسيطة انتقتها له بعناية حتى يظل يذكر هذا اليوم، رواية مترجمة (مرتفعات ويذرينج)، ذكر كثيرًا رغبته أن يقرأها ويحتفظ بها، وضعت داخلها ورقة صغيرة مطوية كتبت عليها بأحمر شفاهها «أُحبك».

وقفت أمام الباب وهى تشعر أن حياة جديدة تُشرع أمامها، هل يكون هذا بابًا للجنّة أم بابًا للنار، حاولت بكل ما فيها أن تطرد الفتاتين من داخلها وأن تجعل صوت عقلها على الوضع الصامت وضميرها تضعه على الانتظار، ثم تترك الأمر لقلبها المُنهك الذى فقد الحب فى مشوار الحياة حتى تعثر بحسن الذى أعاد له نبضه، إنها مُقبلة على مغامرة كبيرة كأنها تتسلق جبلًا تُريد أن تصل إلى قمته، فعليها أن تستمتع بغامرتها لأقصى حد وتتجنب النظر للأسفل وتتغاضى عن النسمات القوية التى تُحاول أن تطيح بها، عليها أن تتخلص من خوفها فالحياة مجازفة وإما أن تُلقى بنفسها بين سهولها وقممها بحماس وتستمتع بدور البطولة، إما أن تدور فى مركباتها الثابتة وترضى بدور عادى قانع

وذليل، ينظر للمُتحمس وهو يُمصمص شفتيه حسرة على نفسه، دون أن يُحاول الاقتراب، هى الآن تقترب من مجازفتها وحياتها والجنّة.

فتح لها الباب، السقف الضئيل أظهر طوله الحقيقى، كل ما يُقارن به كان يبدو متواضعًا مُعتمًا، دخلت وقبل أن تنتبه لما حولها، وقبل أن ترى منزله أو حتى تلحظ ثيابه ونظرة عينيه، ضمّها لصدره ضمّة قضت على كل ما تبقى من عقلها، كان رأسها يوازى صدره تمامًا كأن هذا الصدرخُلق ليضُم هذا الرأس، أحاطها بذراعين كأنهما الأجنحة التى تحتوى الفراخ الصغار، كانت مضغوطة به تشُم رائحة صدره، رائحة لم تشُمّها من قبل، ليست رائحة عطر أو عرق ولا رائحة جسده الحبيبة التى تعودت أن تشتمها كلما اقترب أو مرّ بها، لكنها رائحة أخرى لا تُشبه شيئًا، رائحة عشق مُسكر، دافئ، عاصف، كان يُسند ذقنه تمامًا فوق رأسها ولا يُحاول أن يُحرك أصابعه عن موضع الضمّة، أغمضت عينيها وتمنت ألا تنتهى هذه اللحظة أبدًا، لماذا لا تعيش بحضنه طول العُمر فمن هنا وُلدت وهنا ستموت.

- يا بابا أرجوك .. أحتاج هذه الرحلة.

- لن أغير كلامى يا عالية .. الموضوع منتهى ولا ترهقى نفسك بمزيد من الإلحاح.

تركته بعصبية ودخلت غرفتها وهى تستشيط غضبا، بعد أن قضت إجازة الصيف كلها بين البيوت، ولم تر أكثر من الشوارع المحيطة بهم، بعد أن أمضت ثمانية عشر عاما هى عمرها كله دون أن تخرج إلى مكان إلا النادى وبرفقتهم، ولم تطأ قدمها سينما، إذ إن أباها يعتبره أمرا سخيفا وغير أخلاقى أن تذهب للسينما برفقة صديقاتها، يصور لها أن السينما مكان مظلم موحش ومسكون بالذئاب البشرية، حتى الُكلية غير مسموح لها أن تتأخر بها، لقد ملت كل هذه المحافظة عليها، تتوق لمغامرة حقيقية، لحجر تقذف به بحيرة حياتها الراكدة فتحييها الذبذبات المتسعة، الرحلة فى حد ذاتها لم تكن هدفًا، فهى بين صديقاتها كل يوم،

ولا يعنيها أن تزور مدينة رأس سدر، لكن ما يعنيها حقًا أن تتزود ببعض الطاقة للمواصلة، أن تكسر قواعد حياتها الرتيبة، أن تعيش ولو ليوم قصة من تلك القصص الكثيرة التى يحكيها أخوها وعلى وجهه علامات السعادة. انتابها الحزن والرثاء على حالها كفتاة معلبة فى البيت، خرجت من غرفتها بعصبية وتوجهت لوالدها الذى كان مازال يشاهد نشرة الأخبار وقالت بصوت مرتفع:

- تحرمنى من الرحلة وتسمح بها لأخى؟!

رد بذهول: لأنه رجل!

استكملت: ثم تقول أن ديننا ومجتمعنا لا يفرق بين ولد وبنت .. وتتحدث دائمًا كأنك تؤمن بالمساواة والتحرر.

قال وقد اتسعت عيناه: ماذا تقصدين؟

ثم استدرك الموقف من الشرر الذى كان يتطاير من عينيها، فنهض وطلب منها أن تدخل غرفتها حتى الصباح، مشت وقد فقدت عقلها تمامًا وهى تهمهم بصوت مسموع وتقول «ليتنى ما ولدت فى هذا البيت»، «ليتنى ما كنت ابنتكما»، «تقولون ما لا تفعلون»، لم يصمد أباها أكثر فإذا به يدفعها فى غرفتها بعصبية ويصفق الباب بقوة وهو يصرخ «اصمتى يا حمقاء .. أنت لا تدركين ما تقولين»، ارتمت على السرير وبكت بُحرقة، كانت تدعو الله أن تتخلص من هذا البيت فى أقرب فرصة، أخذتها الأفكار السوداء وسافرت بها لأبعد من الرحلة، وتذكرت كل يوم ذاقت فيه مرارة التحكم والقيود.

بعد ساعات من النحيب، صمتت عن البكاء ونعست كطفلة، لكنها لم تنم، شعرت بخطوات والدها الذى دخل الغرفة فى هدوء، لفحتها أنفاسه عندما قبلها وهو يجلس عند رأسها، ثم مال على أذنها وقال بحنان:

- يا عالية يا ابنتى الجميلة الطيبة، الصغيرة، نعم يا عالية أنت صغيرة جدًا، أنا لا أمنعك عن الخروج والرحلات لرغبة فى التحكم بك كما تظنين، فأنا تركت لك كامل الحُرية فى دراستك واختياراتك وذوقك وشخصيتك التى تنمو

كل يوم، لكنى أخاف عليك من الالتحام بالمجتمع وأنت فى هذه السن، أنت لا تعرفين الناس كما أعرفهم، ولا تعرفين نفسك كما أحفظك، فأنت الصغيرة التى كبرت فى حضنى وتحت عينى، أعرف أنك حينُ تحبين ستهبين روحك وكل مشاعرك الرقيقة لحبيبك، لذلك أخاف عليك من الحب، لا أريد أن تصدمك الحياة، لا أريد لمشاعرك أن تستنزف، أريدك أن تنضجى حتى تعطى لمن يستحق، الكلاب حولك فى كل مكان دون أن تشعرى، لن أسمح لأحد أن ينهشك حتى لو كلفنى ذلك أن أسمع منك هذا الكلام الذى قلتيه الليلة، لأكثر رجل يخاف عليك، أكثر رجل أحبّك وسيحبّك على وجه الأرض!

نزلت دمعة منه على كتفها، لسعتها بحرارتها وصدقها، فبكت هى الأخرى حتى انتفضت، ونهضت وهى تحتضنه وُتقبل وجهه ويده، كانت تعرف أن له طبيعية رومانتيكية لا تشبه طبيعة والدتها الجادة، لكنها ما توقعت أنه يحمل لها كل هذا الحب فى قلبه، قبل أن يغادرها قال لها أصدق كلمات سمعتها فى حياتها لكنها لم تستطع أن تعمل بها:

«أثق بك ولا أثق بالناس حولك، فحافظى على نفسك يا ابنتى، أخاف عليك لأنك جميلة فى زمن قبيح، والحقيقة يا ابنتى ليست كما سيقول لك الجميع إن الجمال جمال الروح والخلق، فكم من جميلات روح لم يجدن من ينظر لأرواحهن، وجميلات خلق لم يلفتن النظر أصلًا، أن تكونى جميلة يا عالية هو أن تكونى نفسك، تحبى نفسك وتثقى بها، أن تكونى جميلة أن تعطى وُتحبى وتملأى الدنيا بابتسامتك، الحاقدات لسن جميلات حتى لو بلغن أعلى مواصفات الجمال والرقة، والدجاجات لسن جميلات حتى لو قدّمن ريشهن كله للديوك، لا تكونى دجاجة أخرى مثل الجميع، ولا تنتفى ريشك من أجل أحد، فقط كونى نفسك، وطيرى ما سمحت لك به أجنحتك.

عندماُ تحبين يا عالية اثبتى مكانك ولا تندفعى وراء مشاعرك، فالحب لا يأتى بالاندفاع، واقتناصك لبعض السعادة لن يجعلك سعيدة طول العُمر،

أغلب الرجال يتلذذون بالعاشقة المُندفعة، يحبون من تجنّ بهم لكنهم لا يتمسكون بها لأنهم يعتبرونها صيدًا مضمونًا، فردى بابك دائمًا، لا تفتحيه على مصراعيه، كونى متسامحة متفهمة لكن لا تعودى أبدًا لمن يفلت يدك، فالأمان عندما يذهب لا يعود، لا تغرنك كلمات العشق ووعوده، فكل هذا هباء بدون صدق، تلّمسى الصدق بقلبك، ولا تكتف إلا بحبيب تكونين له الحياة، ليس من الضرورى أن يكون هو لك الحياة فتخسرين نفسك بغيابه، واعلمى أن الرجال يحبون ويبقون على أرواحهم حرة أما الفتيات حين يحببن يهبن أرواحهن أولًا، فلا تهبى روحك إلا لمن يستحق، وكونى قوية، قريبة من ربك واحرصى على تدعيم إيمانك، عيشى الحياة ببساطة وحب لكل ما ومن حولك، كونى راضية طموحة يا ابنتى، لا تتمنى أقل من النجوم .. ولا تنسى ربك يا عالية .. لا تنسى الله .. ضعيه صوب عينيك حتى تكتب لك النجاة»

❋❋❋

(٢٦)

دخلت بخطوات مُتحررة إلى غرفة صغيرة تبدو غرفة المعيشة، كانت مُنظّمة بصعوبة، كأنه قضى اليومين الماضيين يطمس طابعه البوهيمى ويشوّه همجيته ببعض التنظيم السيء، لم يضع شيئًا فى مكانه الصحيح إنما أخفى الأغراض بدون ترتيب، كالطفل الذى أجبرته أمه على جمع ألعابه وتنظيمها، اختارت كرسيا وحيدًا لتجلس عليه لكنه سحبها من يدها، جعلها تجلس على أريكة واسعة، وجلس هو على أريكة قريبة صغيرة بالكاد تكفى شخصين، كان يُحاول أن يبدو طبيعيًا وكأنه شيء عادى أن تكون معه فى شقّته، لكنها لاحظت أن أمرًا ما يشغله، تحدثت فى أمور عادية ولم تُعلّق على شقّته التى بدت لها بسيطة تكاد تكون خالية من القطع المُفيدة الأكثر استعمالًا وبها قطع من الأثاث لا معنى لها، مثل عدة كومودينات ومكتبة صغيرة خالية إضافة لمكتبة الكتب الكبيرة، ووسائد أرضية مُتناثرة بدون ترتيب، شغّل أسطوانة لموسيقى التكنو، حدّثها عنها قليلًا وشرح لها أنها تُهدّئ الأعصاب، كان يتحدّث ببراعة مُحاولًا أن يُبدّد توتره الذى بدا جليًا، ثم أمسك بكتاب عرفت أنه لجُبران خليل جُبران وقرأ عليها نصًا:

هل تخذت الغاب مثلى منزلًا دون القصور
فتتبعت السواقى وتسلقت الصخور
هل تحممت بعطر وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمرًا فى كؤوس من أثير

كانت أول مرة تسمعه، وكان مناسبًا لمشاعرها التى تنبض بالسرور، شعرت أن الأبيات تُشبهه إلى حد كبير، فهو الغريب الذى يسكن الغاب والذى جعلها تهجر مُدنها وتلهث وراءه فى شغف، قالت دون وعى كأن روحها هى من تكلّمت «أُحبُك»، التقط قلما من منضدة قريبة وأمسك بكفّها وكتب ببطنه «أُحبك وأشتهيك»، خارت قواها وشعرت أنها أمام عاصفة هوجاء، حدجته بنظرة حازمة وهى تُحاول أن تمسح ما كتب، فضحك، شعرت أن الأرض تميد بها، لكنها أصرّت على أن تُمسك بزمام الأمور، فحدثته بلهجة جادة عن الأحداث السياسية الراهنة، وعن عملها ومُضايقات زميلاتها لها، تطرقت لعدة مواضيع رتيبة، غير أنه لم يكن يرُد عليها أو يسمعها وطفق يُغنّى ويُلقى عليها النكات الغريبة ويحكى لها الحكايات التى تحبس الأنفاس والجُمل الحميمية، وكانت تعشق هرطقته.

ثم أحضر حاسوبه المحمول، جلس جوارها بطريقة تلقائية وفتحه على موقع لجريدة جديدة بدأت فى الانتشار مؤخرًا وسُمعتها جيدة غير مُنحازة لأى طائفة، كان قد أرسل لها عدة مقالات أعجبته بها، ثم أخبرها بين حديثهما وتعقيبه على المقال أمامهما أنه تعاقد مع الجريدة وسينزل أول مقال له بها مع بداية الشهر، لا تذكُر أو تعرف كيف اقتربت منه فى حميمية وبكل شوق امرأة تُحب أمسكت برأسه بين يديها وقبّلته، أفرغت بين شفتيه شوق الأسابيع الماضية فى غيابه. لم يكن يتخيل ردة فعلها، فاجأته بإقبالها وهو من كان يبدأ دائمًا بالغزل ويسرق منها القُبل وهى تتمنع فى دلال، حاولت أن تعود كما كانت فراحت تسأله عن المقالات التى سيكتبها والجريدة والتفاصيل، لكنها حرصت ألا تستفيض فى الحديث عن العمل حتى لا يُراجع نفسه أو يعود لقناعته القديمة بأن العمل أكبر قيد للحُرّية، كانت سعادتها كبيرة لأنها ربطت التغيّر الذى طرأ على أفكاره بقصة حبهما، وشعرت أن لها تأثيرًا عليه وهو الذى يتأثر الناس به عادة.

لم يعبأ بعودتها للحديث الجاد ولم يرُد على أسئلتها التى لم يسمعها أصلًا،

فقد سرت الدماء المُلتهبة فى عروقه واقترب منها لينهل المزيد من القُبل، حتى كادت تذوب بين شفتيه، فدفعته برفق ونهضت بحجّة صُنع النسكافيه، لم تسأله عن المطبخ، بحثت عنه بنفسها ودخلته كأنه مطبخها الذى طالما أعدّت فيه الطعام وتعرّقت من حرارته، دخل وراءها المطبخ وقبل أن تضع السُكّر فى الأكواب شعرت به مُلتصقًا بها، إنه الحُضن الذى قرأت عنه كثيرًا وحلمت به دائمًا، كانت كلما وقفت بالمطبخ تخيلت أن حسن يقف معها يُساعدها ويحكى لها عن يومه، وهى تخفق وتطحن وتُقلّب، هل سيتحقق خيالها أخيرًا؟، الواقع أجمل وأدفأ لكنه أقصر، سُرعان ما ينتهى، أمّا الخيال فلا نهاية له، استسلمت لشعورها، استسلمت أيضًا لشفتيه وهى توشم مؤخرة عُنُقها، ولذراعيه وهو يحملها ويسير بها برفق حتى يصل للأريكة الواسعة، تحاول هى عبثًا أن تُفلت من يديه، فتنفك طرحتها الرقيقة وينفرط شعرها على وجهها.

نظر لشعرها كأنه لأول مرة يرى فتاة بدون حجاب، مرر أصابعه فيه برقّة واقترب من رأسها يتشمم رائحته العذبة، وينفث فيه أنفاسه التى شعرت أنها اخترقت المسام ووصلت لتسبح فى دمائها، حلم آخر يتحقق، عندما توسدت صدره سمعت نبضاته فارتعشت وتمنّت لو تغوص فيه وتبقى داخله للأبد، لا تذكر كم من الوقت مضى وهى تبكى فوق صدره كأنها تبُثّه ألمها من يوم أن فتحت عينيها على الدنيا حتى هذه اللحظة، لم تدر ماذا تفعل إزاء كل هذه السعادة وكل هذا الخوف، ياليتها لا تخاف فتستمتع بلحظات تحقيق أحلامها معه، وليتها لم تكن بهذا القدر من السعادة التى تسلبها إرادتها وتجعلها لا تقوى على أن تقول (لا)، كان يهذى بكلمات لم تتبين مُعظمها لكنها شعرت أنها غزل بذيء، لم تعرف صوتها عندما سمعته، شعرت بأصابعه عند بطنها، تذكّرت أن هذه هى نقطة ضعفها فى جسدها فأمسكت بيده وهى تقول: «ليس هنا .. أكره بطنى"، فانحنى على بطنها يُقبلها، شعرت بالدوار الشديد وشراسة تجتاحها تجعلها تتلوى وتصرخ فى جنون، وبين مجون اللحظة حاولت أن تسترجع صورًا لأبيها وأمها،

حاولت أن تذكُر أى كلمة تعلمتها عن الفضيلة وأى آية حفظتها عن العفّة دون فائدة، لا شيء بإمكانه أن يقف أمام الفيضان الكبير، لكنها رغم ذلك كانت واعية وقادرة على اتخاذ قرار.

كانت هذه هى لحظة الاختيار، تذكرت كل المواقف المُشابهة التى شاهدتها فى الأفلام أو قرأت عنها لفتيات ضعفن أمام مشاعرهن، وأدركت حينها فقط أنهن لسن ضحايا أو أن الحياة لم تترك لهن خيارًا آخر، كان بإمكانهن أن يقُلن لا أو نعم، لكنهن اخترن سطوة الشغف والعشق، هى أيضًا ليست ضحية، أتت هنا وهى تضع ما يحدث كأحد توقعاتها الأرجح، أتت وهى جميلة وجاهزة لشيء ما، لم تكن مُغيّبة أو ساذجة، كانت مُدركة تمامًا أن العشق والرغبة يُمزقانها، ومع ذلك أتت، لكنها لم تحسبها، لم تحسب ردة فعلها، اكتفت بالخيال الجميل، هل تترك نفسها له ولرغبتها فيه فتموت داخلها المرأة الشريفة للأبد، أم تصرخ فى وجهه بادعاءات الشرف والفضيلة وتغادره مرفوعة الرأس، هل كان عليه أن يُحافظ عليها أكثر أم أنه هو الآخر تلاعب بعقله الجنون، هل سيتركها إذا فعلت، أم سيتركها إذا لم تفعل؟ ولماذا تجعله هو من يُحدد مصيرها؟ هل يريدها له عشيقة ورفيقة كما كانت تسمع وترى فى السينما والتليفزيون أم أنه سيتوقف فى لحظة الانصهار التام؟ لكن النار لا تهدأ من نفسها، يجب أن تُطفئها المياه، ماذا تنتظر؟ أن تتصل بها والدتها فى هذه اللحظة، أن يدق الباب ويكون وراءه ابنها، أن يرتفع صوت الآذان فوقهما، أن تنزل إشارة إلهية من السماء تجعل نارهما رمادًا؟ إن الله يضعنا فى الاختبار ويترك لنا الخيار، لابد أن يكون خيارنا وليس خيار القدر.

فى لحظة استجمعت بعضًا من شجاعتها، حاولت أن تُركّز على نصفها الخائف وتتغاضى عن النصف السعيد، عضّت شفتيه بغضب ودفعته بقسوة وهى تُردد (لا أريد هذا الآن)، وكانت تعلم أن هذه الدفعة كفيلة بألا تجعله يقترب منها ثانية فى هذه الليلة، ليس لأنه رجل؛ لكن لأنه حسن، لطمها لطمة

صغيرة عصبية ونهض، اختفى بداخل إحدى الغُرف قليلًا ريثما لملمت هى ما بعثره الجنون، مسحت عرقها ووقفت تُهندم نفسها وتلف طرحتها أمام مرآة كبيرة بمدخل الشقّة، الكُحل ساح تحت عينيها فجعلها تبدو تعبة، كانت تشعر بالتقززمن نفسها، «ماذا فعلتُ بنفسى؟ كيف أتيتُ إلى هنا؟ ولماذا أتيتُ؟ هل يحتقرنى كما أحتقر نفسى فى هذه اللحظة؟ أم هل يكون غاضبًا منى لأنى لم أجعله يضع نهاية لعذابنا؟ ماذا يُحضّر لى الآن ليُفاجئنى به؟» دخل عليها وقد اختلف مظهره وبدا هادئا كأن شيئًا لم يحدث، بادرها باعتذار عن لطمته لها ثم طلب منها برجاء لم تعهده منه أن يتحدثا سويًا قبل أن يُغادرا الشقّة، وافقت وهى تشعر أنها بدأت تستعيد تحكمها بنفسها، أمسك بيدها يُقبّلها وهو يقول:

- سنظل سويًا طول العُمر.

بدت الجُملة مُستهلكة ولا تليق بشخصيته المُختلفة، لكنها أحبتها وصدّقتها، سألته بصوت واهن: أتساءل إن كُنتُ أصبحتُ فى نظرك رخيصة؟

ردّ عليها بغيظ: أنتِ دائمًا امرأة صعبة وهذا ما جذبنى فيك .. صخبك وصعوبتك.

- ألم تشعر أنى تغيرت من امرأة صعبة لأخرى سهلة؟

- إن كان حدث لفقدتك وما كُنت دعوتُك لبيتى .. لم يدخل هذا البيت أحد سواك.

- ولكنى لم أكن صعبة يا حسن.

- صعبة يا حُلوتى لا تعنى أن تُعاندينى وتتمنعى .. صعبة بمعنى أنك مُحترمة .. صعبة الامتلاك .. صعبة المنال .. كالحلم البعيد .. كالهواء لا أكاد ألمسك حتى تضيعى من يدى.

أرخت عينيها وردت عليه من بين حيرتها:

- ما معنى وجودنا هنا؟ وما حدث؟

- معناه أننا أردنا أن نكون هنا وأردنا ما حدث.

قالت وهى تتنهد: أنا أخشى المجهول.

رد باستنكار: وهل مازلتُ مجهولًا بالنسبة لك؟

- القادم هو المجهول .. القدر.

- القدر جمعنا .. قدرنا أنا وأنت وكل منا يشد الآخر لهذا القدر.

صمتت باستسلام وكان جسدها مازال يرتعد، اقترب منها وأحاطها بحنان، ثم قال بهدوء دون مُقدمات:

- كفانا بُعدًا يا عالية .. سأتزوجك.

قالت مبهوتة وهى تُحاول أن تُدارى شبح فرحة أطل على روحها ووجهها:

- لكنى أريد أن أكون حُرّة.

و كأنها أنزلت آدم من جنّته، ردّ حسن على حوائه:

- أنت وحيدة يا عالية .. وأنا وحيد .. نُحب ونحتاج بعضنا.

ردت بحيرة: أنا لا أستطيع أن أتزوجك يا حسن حتى لا أخسرك.

قال بنفاد صبر: تخسريننى وأنت فى بيتى وحُضنى ليل نهار!

- نعم يا حسن .. لا أتخيل علاقتنا عادية .. رجل وامرأة كل منهما يحمل مسؤوليات ويحاسب الآخر على مسؤولياته .. ثم نسهر أمام التلفاز صامتين، ويتحول الحب لملل ثم كُره مُقنّع وعداء بعد العديد من المشاكل الحياتية اليومية، التى نقُصّها على بعض الآن ونستمع لبعضنا بشغف .. سيختفى الشغف وأفقدك.

قال بعصبية: لا تُحاسبينى وتحكمى على بناء على ماضى لم يكن لى يد فيه.

قالت باقتناع واستسلام: عندك حق.

استكمل بود وهو يضع يده فوق يدها:

– ثم إن الوحدة لا تعنى أن ليس هناك من يُحيط بك، لكن تعنى أن ليس هناك من يسكنك، فأنت حولك أهلك وابنك وأنا حولى الكثير من الأصدقاء، لكننا رغم ذلك كُنّا نُعانى من الوحدة.

كأنه لمس جرحها المفتوح، هى بالفعل كانت تشعر قبل أن تعرفه بالخواء، كانت وحيدة رغم كل الزخم حولها، لكنها فى حالة لا تسمح لها باتخاذ أى قرارات إضافية، قفزت من كرسيها، لملمت ثوبها للرحيل وهى تقول «تأخرت»، قفز جوارها دون مُحاولة لأن يُبقيها أو يُلّح عليها، قال وهو يُرافقها للباب «أكملت البيت بوجودك»، نزل معها ورافقها حتى استقلّت سيارتها ثم همس لها: «أنت أجمل شيء حصل فى حياتى". ودعها بقُبلة أخيرة، سريعة، تعبة، وكانت مُستسلمة له تود ألا تُغادره أبدًا.

مرّت أيام وهى لا تنام ولا تصحو، وقتها كله تُفكّر فى كلماته وتستعيد كل لمسة وهمسة بينهما، كانت تبتسم بسعادة كبيرة وبين سعادتها تجتاحها موجة غضب وسخط على كل لحظة أمضتها ببيته، ظلت تتأرجح ما بين السعادة والغضب والتساؤلات الكثيرة تقض مضجعها دون إجابات، هل يريد حقًا أن يتزوجها؟ كيف وهو من ضاق بقيود زواجه الأول وترك زوجته وابنته؟ لكنه كان يضيق بالعمل ومع ذلك غيّر قناعته وسعى للعمل، هل أتى بها لمنزله حتى يزفّ لها خبر العمل ورغبته بالزواج، أم أن وجودهما بهذا القُرب هو ما جعله يتعجل فى طلبه؟ لكنها لم تعهده يسعى إلى ما لا يريد، هو لا يسعى لشيء، عادة يترك نفسه للقدر، لقد كانت تؤمن بالحقائق وهو كان يؤمن بالحُلم، عندما بدأت تعيش وتنزوى فى الأحلام وأخيرًا آمنت بدينه، كانت قد تأخرت .. فهو بدأ يؤمن بالحقائق، لماذا لم يجمعهما دين واحد.

لكنها لن تدخل فى هذه الدائرة البغيضة مرة أخرى، لن تُقيّد نفسها حتى وإن كانت القيود عشقها لحسن، لن ترضخ لأوامر رجل ولن تعود لتُصبح مهمتها الأساسية فى الحياة خدمة رجل حتى وإن كان هذا الرجل عشق عُمرها،

لـن تجلس جـواره وهـو مشـغول بـأى شيء تافه عنهـا، لـن تنـام جـواره وهـى تشـعر بالـبرودة تجتـاح عظامهـا، لـن تغـار عليـه حتـى تحـترق وتحرقـه بنـار غيرتهـا، لـن تُحاوطـه ويُحاوطهـا بالمسـؤوليات والطلبـات التـى لـن تنتهـى، لـن تسـتطيع أن تخضـع لـكل هـذه الضغـوط مـرة أخـرى، وينتهـى بهـا الأمـر زوجـين باردين، نادمين، وربـما تدخـل بينهـما الخطيئـة الكـبرى التـى تقـضى عـلى كل شيء، الخيانـة، لذلـك مـن الأفضـل أن تُحافـظ عـلى هـذه المسـافة بينهـا، حتـى تظـل علاقتهـا رائعـة ومدهشـة، حتـى يظـل الحـماس والشـغف وتبقـى هنـاك الحواجـز والأسرار، الصناديـق المفتوحـة عـلى مصراعيهـا لا تُغـرى بالاقـتراب، أمـا الصناديـق الموارِبـة نظـل بالقـرب منهـا نحلـم أن نكشـف أسرارهـا، لمـاذا يقضيـان عـلى العشـق بسـكين الـزواج البـاردة؟ واتخـذت قرارهـا، لـن تتزوجـه.

فى إحـدى الليـالى الطويلـة وهـى تجلـس أمـام الشـبّاك رفيـق دموعهـا والوجـع دخلـت لتشـاركها السـهر أمهـا، كانـت تشـعر بـما ألمّ بهـا مـن توهـان، لكنهـا انتظـرت أيامًـا حتـى تـترك لعاليـة خيـار أن تسـتخدمها كأم، ولكنهـا كأم أيضًـا لم تسـتطع أن تنتظـر أكثـر، أعـدّت لهـما كوبـين مـن الشـاى واخـترقـت جـدًار الصمـت، بـدأت الحديـث بقصـة صغـيرة كعادتهـا:

– جارتنـا الحاجـة فاطمـة طلبـت منّـى يـد أخيـك لحفيدتهـا طالبـة الجامعـة الأمريكيـة.

ردّت عالية بشبه ضحكة: الشرع يقول أن نسأله أولًا.

بضحكة كبيرة: هذا رأيى أيضًا.

ثم استكملت: هو لا يُفكّر فى الزواج بعد العروس الأخيرة التى رشحتها له.

– عنـده حـق يـا ماما، كانـت فتـاة جميلـة ومُتحققـة، رأت أنهـا أوسـم مـن أن تتـزوج مهندسًـا صغـيرًا فى بدايـة الطريـق .. وهـو مثـل أختـه حـالم فى دنيـا واقعهـا قبيـح .. دعيـه يقـع فى صدفـة الحـب أولًا، لـن يُقنعـه ويُرضيـه إلا الحـب.

انتهزت أمها الفرصة وقفزت فى الحوار:

– وأنت يا عالية .. ماذا عن صدفة حبك؟ إلام وصلت؟ ردّت بتنهيدة: وصلت لنقطة الاختيار.

– أنا تعبت .. لا أعرف كيف أتصرف ولا ماهو الصح وما الخطأ .. كل ما تربيت وكبرت عليه أُوشك أن أكفُر به، لا أدرى هل أنا سيدة فاضلة أم أنى امرأة عابثة أم أنّى طفلة لم تنضج بعد .. هل أنا ربة منزل وأُم أم أنى فتاة مراهقة لها أحلام؟

بكت بدموع واهنة .. فردّت عليها أمها بحنو: أنت كلهن يا ابنتى .. لا تُحمّلى نفسك أكبر من طاقتها .. من حقك وأنت أم وربّة منزل أن تكون لك أحلام، وطبيعى أن تترددى فى هذه الفترة الغريبة من عُمرك .. دعينى أُساعدك.

– أنا لا أريد أن أتزوج .. ولا أريد أن أفقد حسن.

– لا تتزوجى، أنتِ مازلت فى فترة نقاهة .. لا تأخذى قرارات مصيرية .. ولو حقًا يُحبك لن تفقديه.

– أنا أكره الزواج .. أخاف أن أكون قد أصبحت مُعقّدة.

– تعرفين يا عالية، رغم اختلافنا إلا أننا كنا مُتشابهتين فى حياتنا، كلانا اندفع وراء مشاعره وتغاضى عن الكثير، فى سنوات زواجى العشر الأولى كنت أعمل وأتحمل مسؤولية البيت وأصرف راتبى حتى آخر مليم وأستهلك صحتى، حتى أصبحت مريضة منذ شبابى وطفت على الأطباء وحدى، بعت مصوغاتى وتنازلت عن أكون امرأة مُدللة، لكن أباك لم يُقدّر كل ما فعلته، بل إنه اتهمنى دائمًا بالعصبية والشراسة وأنى لست أنثى بما فيه الكفاية، وأنا من أفنيت عُمرى من أجلكم، مع الوقت تغيرت، أصبحتُ أقوى وأصبحتُ قادرة على الخصام والقسوة، أصبحتُ أتجاهل نقده وتوقفتُ عن البكاء والضعف، وركّزت جُهدى فى تربيتكما، فوجدته هو أيضًا تغيّر وأصبح يخاف

على زعلى، يعتمد على ويعترف بفضلى، أنت أيضًا أعطيت الكثير من حبك وصبرك، ولّما لم تجدى المقابل تغيرت ولم تنتظرى حتى يتغير الطرف الآخر، ثم اندمجت فى حياة أخرى وتحقيق ذاتك .. لكن غلطتنا الأولى من العطاء غير المشروط لا تعنى أن الزواج كله شرّ .. نحن نحتاج لشريك فى حياتنا مهما كابرنا، انتظرى حتى تشعرى برغبة كاملة فى الزواج.

❊❊❊

obeikandl.com

(٢٧)

هاتفته وحددت معه موعدًا جديدًا للقاء، فى مكان هادئ له ذكرى لا تنطفئ، مقهاهما الأول فى أحد شوارع وسط المدينة الضيّقة، صوته كان غاضبًا ورنّته المُميّزه مكتومة، شعرت أنه مجهد ومضطر لهذا اللقاء، ربما لأن أيامًا مضت وهى لم تتصل به أو ترُد على اتصالاته، كانت تحتاج أن تُفكّر وحيدة بعيدًا عن سحر تأثيره عليها، وقد اتخذت قرارها بالفعل.

وصلت قبله كالعادة، انتظره على طاولتهما، المكان كان باردًا، طلبت من النادل أن يرفع من درجة حرارة المكُيّف، دون فائدة، البرودة تخرج من قلبها، راحت تلعب بالكروت الموضوعة على المائدة بعصبية وتتأمل الزهرة البلاستيكية أمامها وهى تشعر بالحياة تنسحب منها لتُشبه روحها القطعة البلاستيكية المصبوغة أمامها، حاولت ألا تستسلم لهواجسها الكئيبة وأن تطرُد الشبح الذى يُطاردها منذ انزلقت للعشق، وبالفعل استطاعت أن تقتنص ابتسامة حقيقية من بين الخوف لتطُل بها على حسن الذى دخل من باب المقهى بنفس طلّته الأولى، يتهادى فى سيره وهو يحمل حقيبة تجعله يرفع كتفًا واحدًا، يبتسم وهو ينظر لها بعينيه العميقتين اللتين سحبتاها كالموج العالى منذ أول لقاء، جلس قبالتها كتلك المرة الأولى ولم يجلس جوارها ككل المرّات السابقات، انقبض قلبها من جلسته حتى إنها طلبت منه أن يأتى جوارها، لكنه رفض بحجّة أنه لا يُريد أن يزعجها بدخان سجائره، هذا الدخان الذى كان ينفثه فى وجهها مُداعبًا وتُخبئه بين ثيابها.

بادرته قبل أن يصل إليها النادل:

- أريد أن أشرب عصير مانجو طازج مثل الذى شربته هنا معك أول مرة.

طلب لها العصير ولنفسه القهوة، وانتظر حتى تبدأ هى بالكلام، قالت:

- فكّرت طويلًا فى الأيام الماضية .. واتخذت قرارًا.

قاطعها وهو يُشعل سيجارته: قرار يخُصّ ماذا؟

ردت بتوتر وهى لا تعلم إن كان تساؤله جادًا أم أنه أسلوبه الهزلى الذى تعرفه: يخصّنا يا حسن.

قال ببرود كأنه لم يسمع: هل قرأت مقالى الأول بالجريدة؟

قالت بصبر: أعرف أنك غاضب منى لكن لابد أن تعذرنى فأنا كُنت أحتاج أن أُفكّر وحدى.

استمر على برودة: أنا لست غاضبًا منك يا عالية إلا إذا كنت لم تقرأى المقال.

قالت وهى تئن: أرجوك توقف .. أنا أيضًا .. أقصد أنى .. موافقة .. فلنتزوج يا حسن.

صمتا وتلألأت الدموع فى عينيها، لم يُعقّب وطال صمته حتى بكى قلبها خوفًا وقلقا، أمسك بيديها وهو يقول بصوت هادئ لم تتغير نبرته:

- عالية .. أُريد أن أخبرك بأمر حدث فى الأيام الماضية.

قالت وهى متوجّسة خيفة: ماذا حدث؟

- لقد وصلت ابنتى وأُمها من هولندا .. كانت حزينة وذابلة، لذلك طلبت منها أن تبقى معى بمصر.

سألت كأن الأمر لا يعنيها، كأنها مجرد صديقة: ومدرستها؟ ألن تعود لتستكمل دراستها؟

قال بنفس هدوئه: كنتُ أُفكّر بالذهاب معها لهولندا و...

قاطعته وكانت تصرخ من أعماقها لتتحول الكلمات لمجرد سؤال بارد على شفتيها:

- تذهب إلى هولندا؟!

قال وهو يتحاشى النظر لعينيها: نعم.

استمرت على صراخها: وتترك مصر؟ (صدى السؤال فى أعماقها كان .. وتتركنى؟!)

- سأستمر فى إرسال مقالاتى للجريدة وسأكون موجودًا دائمًا على صفحات الإنترنت.

- الجريدة وصفحات الإنترنت .. هذا كل شيء؟!

قال وهو يمنع نفسه بصعوبة من التأثّر: لن أغيب طويلًا يا عالية.

قالت وهى تُمسك رأسها بيدها: ولماذا تعود أصلًا .. فلتُعد زوجتك أفضل وتُقوّى أواصر الأسُرة وتجمعها مرة أخرى.

قال: كنتُ أُفكّر فى هذا الأمر .. لكنى لم أُقرر بعد.

كست الدموع وجهها، حاولت أن تُخفيها عن النادل ورواد المكان لكنها لم تُفلح، أسقطت رأسها على صدرها وتمنت أن تموت، عاد يقول آخر خُطبه وأسوأها:

- كنت دائمًا تسألينى لماذا لا أعود لزوجتى وأحاول من أجل الطفلة، والآن أنا أُنفّذ كلامك، كنتُ أظن أن الحياة هنا بإمكانها أن تمنحنى الحُريّة والسعادة، لكن لا وطنى تحرر ولا نفسى طالت السعادة، أنا ضقت بهذه الأرض، سأحاول أن أجد نفسى فى بقعة أخرى .. هذا لا يعنى بالضرورة أننا لن نكون على اتصال .. أنا فقط أنسحب من حياتك الخاصة حتى تستطيعى أن تُصلحى ما أفسدته علاقتنا وتعودى لحياتك واستقرارك.

- هذا رائع.

هكذا تمتمت وعلى وجهها ابتسامة، حاولت أن تنهض لكن قدميها لم تسعفاها، فصمتت وانتظرت أن يرحل هو، لكنه استمر فى حديثه عن المقال

والجريدة وكأن شيئًا لم يحدث، نظرت له بكل عينيها فصمت، كانت تتخيله كما رأته بآخر لقاء، بجذعٍ عارٍ يحتضنها ويضغط رأسها فى صدره وهو يلثم جبينها ويشتم شعرها، كانت تبحث عن هذا العاشق فى عينى الرجل أمامها، إنها لم تطلب منه وعودًا ولم تحثه على البقاء، هو من اقترب منها وجعلها تُمزّق كل قواعدها وجعل منطقها ينتحر على عتبة عشقه، أم تُراها هى من كذبت على نفسها ورأت رغبة الرجل فيه كأنه العشق، ورأت ضعفها وتنازلها عن مبادئها هو منتهى الحب، لقد اختلطت كل الأوراق فما عادت تعرف هل كانت ضحية أم أنها هى المجرمة؟ هل كان عشقًا أم كانت مجرد نزوة؟ تمنت لو كان المكان فارغًا من البشر لتشدّه من ذراعه وتدفن نفسها فيه وتبكى إلى أن تجف وتموت، كانت تتمنى أن تنهار وتُعاتبه وتصرخ فى وجهه، لكن ألمها أكبر من أى عتاب، تخيلت أنها تقف فى الصالة الصغيرة بمنتصف المقهى وترقُص على أنغام اللحن الجنائزى الذى تسمعه ثم تُمسك بأكبر سكين وتغرسها فى قلبها وينتهى كل شيء، لم تعد تسمع ما يقوله.

استجمعت كل غرورها الذى طالما اتهمها به الناس ونهضت بكامل عنفوانها لتُغادر المكان، سار معها بضع خطوات لا معنى لها بعد أن غادرا المكان ثم توقفت فجأة لتودّعه، فقال لها وهو يضغط على كفّها دون أن تسحبه كأول مرة «أُريدك سعيدة»، ردّت بابتسامة ضخمة تمنع الدموع من الانسكاب «أكيد»، تركته وسارت بسرعة دون أن تلتفت وراءها، غطت وجهها بنظارة الشمس الكبيرة، تخللت الفراغات بين الناس بصعوبة دون أن تنتبه أنها تصدم الجميع، تُردد داخلها بسخرية «أُريدك سعيدة!». كانت تشعر أنها فتاة رخيصة لا قيمة لها، أُم فاشلة وعاشقة حمقاء، كان شعورها بالهوان يعتصر قلبها حتى إنها شعرت أن الدموع تنساب من كل مسام جسدها وأنها غارقة فى مياه الدموع المالحة وعالقة فى خُطاف مرشوق فى قلبها، وبينما تسير بسرعة وجنون تذكرت أن سيارتها على الرصيف المقابل وأنها تخطتها بكثير، فألقت بنفسها فى الشارع دون أى تركيز وفى

أقل من ثانية كانت على الأرض، لم تشعر بشيء ولم تسمع إلا صوت همهمات الناس وخوفهم ودعائهم، ثم رحلت عن الوجود.

****

كان يجلس أمام حاسوبه المحمول وقد انتهى من مقاله الجديد، (الوقود أحيانًا أهمّ من الحُرّيّة) أرسله، ثم راح يزجى وقته بالرد على رسائل الأصدقاء، بين الصديقات أكثر من معجبة، فهذه لا تتوقف عن التعليق وأبدًاء الإعجاب ومناقشة كل ما يكتُب حتى وإن كان مزحة عابرة، وهذه تُلاحقه بالرسائل وتُغرقه بالاطمئنان والاهتمام وتقديم الخدمات وفتح مجالات أوسع لننشر، وتلك تتظاهر أنها تتجاهله فى حين أنها تُغيّر وتُبدل صورها لتُغريه وتُعلّق بكلمات شاذة وأسلوب جريء على مقالاته، وثلاثتهن يدّعين أنه سيكون له معهن قصة، فتح ثلاث نوافذ للمُحادثة وراح يُراسل ثلاثتهن، بعد ساعة من تساؤلاتهن عن تأخرّ ردوده، استأذنت واحدة بحجّة الصلاة والتعبّد، استأذنت الثانية بحجّة أن أباها يكره مكوثها مدة طويلة على الإنترنت، أما الثالثة الجريئة فهو من استأذن منها بعد أن تظاهرت أنها سأمت من الكتابة على لوحة المفاتيح وطلبت منه رقم هاتفه لتُحدثه بصوتها أسهل، أرسل لها الرقم ثم أغلق الحاسوب والهاتف، أتعبته قُدرته على أن يعرف ما يدور بخُلد الفتيات وقراءته لأفكارهن، كان يُدرك أن معظمهن مُدّعيات ومع ذلك يُرضيه إعجابهن ويُبقى عليهن بين قوائمه، (هى كانت حقيقية) هكذا تمتم داخله وهو يتخيل صورة عالية التى تركها منذ ساعات قليلة، لكن صورتها لم تتركه.

اتصل بصديق ليُقابله فلم يجده، اتصل بأمه ولم يجد كلمات يقولها فأنهى المكالمة سريعا، فتح التلفاز وأغلقه بعد دقائق من البحث بين القنوات عن لا شيء، حاول أن يقرأ فلم يجد فى صفحة الكتاب إلا عالية وهى تنظر له بكل عينيها ولسانها يأبى أن يُعاتب أو يُعلن غضبه، شعر بشيء بين الصفحات فقلّب فيها ليجد الورقة «أُحبك»، مكتوبة بخطّها الطفولى بقلم شفاه أحمر، مزّقته الورقة،

رآها وهى تتركه وتسير فى خطوات مُترنّحة، ودموعها تسقط منها على الأرض، يشعر بها تتألم الآن، هذا الألم الذى نفقد من ضخامته الإحساس فنُصبح فارغين كبالون ينتظر لحظة الانفجار، تمنّى أن يُحدّثها ويتظاهر أنها كانت دُعابة، أو أن يُعاتبها لأى سبب ويقلب الحقائق فيجعلها هى المذنبة ثم يمنحها مغفرته ويعود، فكّر فى الكثير من الأشياء المستحيلة ثم ترك الكتاب الذى يُعذّبه بالأفكار وراح يُقلّب فى حاسوبه فوجد نفسه يتجه لآخر رسائل بينهما، كانت عاطفتها قويّة، لم يظهر ذلك فى كلمات الغزل أو أبيات الشعر أو الأغانى، إنما ظهر فى علاقة تُشبه الكُرات المُلوّنة التى يقذفها المُهرّج فى الهواء، يقذف كُرة ليتلقف أُخرى فى تناغم وإيقاع مُتصل، ترُد على غلاسته بغلاسة أكبر وعلى وقاحته باندهاش وصدمة مُحببة، تتدلل عليه عندما يكون رصينًا وتُداعبه عندما تجده هادئًا، تُقدم نصائحها بشكل غير مباشر كأنها تُذكره بشيء نسيه، تمتدح كل كلمة وحرف يكتبه، حتى غضبها كان غير جاد أو صارم، غضب عاشقة تغار وتتعذب، كانت بعض حواراتهما تُشبه القُبل لها نفس الدفء واللذّة والاتصال.

كان قبل مدة قد لاحظ على نفسه أعراضًا غريبة، فهو الذى عرف فتيات بعدد الخُطب التى ألقاها وحضرها لم يضبط نفسه بهذه الحالة من قبل، كان يُفكّر فيها باشتهاء لم يشعره مع أى من حبيباته، روحها سكنته بشكل لم يحدث معه من قبل، هذه الطفلة الشهيّة، الفتاة الساذجة التى لا تملك من خبرات الحياة سوى القليل، كيف استولت على تفكيره إلى هذا الحد، وهو من كان يظن نفسه عاشق النمرات المفترسات الجريئات، وقع ضحية قطة منزلية بعينين طيّبتين لها نظرة إغواء تخُصّه، رأى بعينيه التى تقرأ الفتيات أن روحها مُختلّة تبحث عمن يُنجّيها ويفتح لها الأبواب، كان موقنًا من أول لحظة رآها أنها له، لكن لم يتوقع أن يكون هو لها، فهو ضد أن يمتلكه أحد، مفاتحه لو لم تكن معه لفضّل أن يرمى بها فى قاع بعيد حتى لا يمتلك روحه الهمجية أحد.

أصبح يغار، وكان يظن أن الغيرة شيمة من لا يمتلك ثقة كافية بنفسه،

أصبح يشتعل كلما رآها تُكلم أحدًا أو يُكلمها أحد، يرى الحديث العادى همس أحبة والكلمات المجُاملة غزل غير صريح، أصبح يُراقب حركاتها وسكناتها دون أن تشعر ويخور كالثور لو ذكرت زوجها ولو من بعيد، فهو لا يُريد أن يعرف عنه شيئًا حتى لو كان لمصلحة علاقته بها، لا يُريد أن يتذكر وجوده من الأساس، أصبح يُفكّر بها أكثر من تفكيره بنفسه ووطنه ولذّاته، أصبحت هى لذّاته، كان حريصًا ألا يجعل هذه المشاعر والتغيرات التى طرأت على حياته تصل لها، فحاول ألا يتصل بها أكثر من مرة فى اليوم، ثم جعلها كل عدة أيام وتعذّر بانشغاله، حاول أن يكون جافًا وحادًا معها بعض الأوقات حتى لا تشعر للحظة بأنها امتلكته، كان يفتعل الأزمات ويتركها وهو بداخله يعلم أنه سيعود، فقط ليتغلب على حبه لها، حتى كانت هذه الليلة الرائعة.

ليلة أن كانت فى بيته وحضنه، كادت أن تكون خالصة له، لكنها أبت، يعلم أنه لو أصرّ قليلًا لكانت قبلت، لكنه شعر تجاهها بمسؤولية جديدة عليه، وهو الذى يكره المسؤوليات، شعر أنه يجب أن يُحافظ عليها ويقيها من ضعفها وعشقها، فهى تظن أنه الأقوى والأقدر ولا تدرى شيئًا عن شعوره بالضعف تجاهها، كان ضعيفًا أمام حزنها ودموعها وعشقها، لكنه لم يُظهر لها ذلك حتى تظل تراه القوى، فأكرم له أن تظن نفسها الأكثر عشقًا وإخلاصًا، حتى أحسّ فى نفسه بأنه يُريدها أكثر من أى شيء، وأن حياته لن تستقيم إلا إذا كانت هى رفيقته، فى هذه الليلة طلب منها الزواج وكانت نيّته مُبيّتة، لم يأت القرار مفاجأة، بل إنه دعاها فى هذا اليوم حتى يُخبرها عن عمله الذى وافق عليه من أجلها حتى تستقر حياته معها وحتى يطلُب منها الزواج، لم يكن يطمع أن يتذوقها لكن قُبلتها الحارة أشعلت جمره، وتأججت رغبته عندما قاومته، لأول مرة يشعر أنه على أعتاب الجنّة، وأن هذه المرأة هى اكتماله، لكن ترددها فى قبول الزواج أزعجه وجرح كبرياءه، جعله يسقط فى هوّة من الضيق من ذاته التى أخطأت عندما عشقت.

كان يظنها ستفرح وتطير وتوافق بصوت عال، لم يكن يُصدّق حديثها عن كرهها للزواج وتشويهه للمشاعر، ظن أن هذا الكلام لا ينطبق عليهما وأنهما خارج الدائرة، لكن هذا الجزع فى عينيها نبّأه أنها كانت تعنيهما أيضًا، ماذا تُريد منه إذن، أن يظل الصديق الحبيب أو الحبيب الصديق فحسب؟ تريد أن تسلبه حق الزوج والعاشق؟ أى عشق هذا وهى لا تنام بين ذراعيه، ولا تُشاركه أنفاسه؟ أتُريد أن تقضى حياتها وهى ترسُم وتعمل وتُحب، وهو يذهب إلى الجحيم؟ عدم ردّها على اتصالاته فى الأيام التالية كان قد حسم الموضوع واتخذ قراره بأن يبعد، بُعدا حقيقيًا هذه المرة، ينسحب ويترك لها باب الصداقة حتى لا تتهمه بالتخلّى عنها تمامًا، يُعطيها ما يستطيع أن يُعطيه من ودّ الأصدقاء، ويحتفظ بروحه حُرّة، سيخرج من عشقها الذى طوّق عُنقه ولم يعد يُعطيه البراح الذى كان ينشُده، هو من علّمها أن تطير وسقاها مفرادات الحُرّية لكنه لم يكن يعلم أن طيرانها يعنى سجنه، أرادها أن تطير معه وله وبأرضه فقط، لا أن تُحلّق بعيدًا ويكون هو جزءًا من سمائها.

بكل قسوة الرجال وكيدهم دبّر هذه الكذبة وانتظر حتى تظهر كعادتها من كهف التردد ليحسم الأمر، تعمد أن يظهر باردًا، هادئًا بوجه كالقناع حتى ينتهى من مُهمّته دون أن تؤثّر عليه، الغريب أنها قبلت طلبه للزواج، والأغرب أن هذا لم يُثنه عن خطته التى تنازل بها عن كل مشاعره، استمر حتى انتهى وهاله أنه لم يجد منها أى محاولات لتؤثّر عليه أو تؤنبه وتُعاتبه كما كان يظن، استسلمت تمامًا كأنها حمامة أتى أوان ذبحها، كانت كمن تتلقى منه الطعنة فى صدرها فتضمه أكثر قبل أن تسقط على الأرض بدون اكتراث بالطعنة، لا تدرى أنها تركت آثار دمائها على قميصه وحياته.

لم يُطق البقاء مع أفكاره، شغّل أسطوانة لموسيقى الحرب، كان يعشقها وأرسلها لها عدة مرات، دارت الموسيقى كالخمر برأسه، فترك نفسه يدور، يخرق الأرض بقدميه ويرقص، أغمض عينيه واستمر فى الرقص كرجل صوفى، روحه

انفصلت عن جسده وراحت ترقص هى الأخرى فى ملكوت آخر بجوار الأرواح الهائمة الحائرة العاشقة المعُذّبة، كان عذابه يُغادره كالسمّ الذى يُغادر المحموم، نفثه نفثه، وقدماه تكاد تحمله وتطير من فوق الأرض، حتى جسده الفتّى أصبح كورقة فى مهب ريح عاتية، أوقع بيده التى يُطوحها فى سماء الموسيقى مزهرية قريبة، فتهشمت على الأرض، لمست قدماه الأطراف الصغيرة الحادة كسكاكين تُقطّع دون رحمة، استمر فى الرقص والدوران، دماؤه تسيل وقدماه تتمزقان وهو مازال يرقص فوق الدماء، لا يشعر سوى بالموسيقى التى رفعته من على الأرض وأعتقت روحه التى تنزف هى الأخرى.

❋❋❋

obeikandl.com

(٢٨)

المطارق تدُق رأسها بشكل أفقى ورأسى حتى كادت تمحو تعرجات عقلها وتجعله أملس بلا ذاكرة ولا إحساس، تشعر أن الدماء تلفها، تُكفّنها، لقد فقدت شيئًا ما، ليس فقط بصرها، عضوًا فيها قد بُتر، ربما قدمها فهى لا تقوى على النهوض، أو ذراعها فهى لا تستطيع أن تلمس شيئًا، ليس قلبها فهى مازالت تشعر بنبضاته ثقيلة على صدرها كخطوات عملاق، وليس عقلها الذى مازال يُفكّر ويُخمّن، تشعر أنه عضو أكثر حميمية من قدميها وذراعيها، عضو واحد لا بديل له صناعى أو بلاستيكى، عضو ينزف كل شهر، يبكى وقت التعب قطرات لزجة حارة، يحرن عندما يُصيبها التوتر، ويسيل لُعابه عندما يشتد اشتياقها، هل تكون فقدت رحمها؟ تألمت لهذا الخاطر وشعرت بدموع ساخنة على وجهها، الرحم لا يعنى الزواج والإنجاب، الرحم هو سرّ الوجود والرحمة، هو البيت الدافئ الآمن بجسد كل امرأة، هو موطن الأنوثة واللذّة والأرض الصالحة دائمًا للعشق، ستُهوّن عليها أمها وتُخبرها أنه لا فائدة منه، فقد تزوجت وأنجبت ثم إنه ليس بعضو ظاهر، لا أحد يعرف أنه أكثر أعضاء الأنثى بروزًا، وهو مصدر الثقة والاعتزاز، أنا أنثى، أنا رحم يمشى على الأرض.

الضوء يتسلل، إذن فالبصر مازال موجودًا، يد أمها تمسح رأسها، فهى تعرف يد أمها المدموجة، الصغيرة مثل يديها، وتعرف لمستها التى تُعيدها طفلة بضفيرتين، سمعتها تُغمغم بآيات الحمد والشكر، وسمعت والدها يُداعبها ويقول «عُمر الشقى بقى»، قبّلها برفق وهى تفتح عينيها لتراهما بوضوح، سألت بصوت ضعيف: «ماذا حدث؟» أجابتها أمها بصوت سعيد صاف :

– يبدو أن سيارة صدمتك وأنت تعبرين الشارع، لكن صاحبة السيارة بنت حلال أتت بك إلى هنا ومازالت تنتظر فى الخارج.

سألت بتردد وخوف: هل فقدت شيئًا؟ أقصد هل رحمى...

قاطعتها أمها بهلع: العياذُ بالله .. أنت بألف خير .. لا شيء سوى كدمات بسيطة، الخضّة هى التى جعلتك تفقدين وعيك .. حمدا لله على سلامتك يا حبيبتى.

اطمأنت عالية وإن كان شعورها بالفقد لم يُغادرها، دخلت عليها شابة صغيرة طيبة الوجه وفى عينيها الفزع، طمأنتها، وعندما غادر أبوها وأمها الغرفة للقيام بإجراءات المستشفى، اعتذرت من الفتاة وأخبرتها أنه كان خطأها لأنها كانت تعبر الشارع بدون تركيز ولم ترها أو حتى تشعر بها، فأجابتها الفتاة التى لم تُفق من فزعها بعد:

– لا، لا، أنا المسؤولة، أنا التى أخطأت لأنى كُنت أكتب رسالة وأبكى وأنا أقود السيارة فلم أرك بدورى.

ثم لم تتمالك نفسها وبكت، أخرجت هاتفها لتُرى عالية الرسالة التى كانت تكتبها (أرجوك عُد .. أنا أحتاج إليك)، ابتسمت عالية بمرارة وسألتها إن كانت أرسلتها أم لا، ولم تكن أرسلتها بعد، ترجتها عالية ألا تُرسل الرسالة:

– لا تحتاجى لرجل ولا تنتظرى رجلًا .. فمن نحتاج إليهم يرحلون ومن ننتظرهم لا يعودون، الزمن وحده القادر أن يُضمد جراح قلبك .. أما الرجال فهم من يصنعون الجراح. كيف تنتظرين من المرض أن يُعالجك؟

صمتت الفتاة تُحاول أن تقتنع، ثم فاجأتها عالية طريحة الفراش بأنها أيضًا كانت تُفكّر فى كتابة نفس الرسالة عندما كانت تعبُر الشارع أمامها.

«ربما يكون نفس النذل»، ضحكتا ثم غادرت الفتاة على وعد بمقابلة ثانية. عندما عادت للبيت كانت إنسانة أخرى، حاولت أن تستجدى البريئة فيها لتعود مرة ثانية وتتخلص من ثوبها الذى دنسه الزواج والانتقام والعشق،

لم تكن تخلصت من ألمها بعد، فمازالت تصحو فى منتصف الليل لتبكى وتنام بعد ساعات من الأرق، مازالت بين الحين والآخر تنظر حولها وتبحث عن دليل ملموس أنه كان فى حياتها عشقًا حقيقيًا، بحثت فى خزانتها وسريرها فلم تجد سوى بقايا أحلام والكثير من الدموع، بحثت فى السيارة فلم تجد إلا بقايا رماد دخانه، بحثت فى كل أشيائها، فلم تجد له أثرا، لا شيء عندها يُذكّرها به، ولا حتى ورودًا جافة تحمل عبق الحب وجلاله، قدّم لها قطعة من الغابة بوحشيتها والصخب والجنون، ولم يُقدّم لها الزهور.

لم يترك خلفه غير غيابه المُذهل، الغريب أنها لم تكن ناقمة عليه، ما كان يشغلها ويحول بينها وبين الحياة هو غيابه المجدول بالألم، كانت تسأل نفسها كيف تحملت حضوره الرائع بدنياها ولم تتلاش من فرط النشوة والهوس، حضوره كان يضع السحر فى كل الأشياء حوله، حتى الأشياء الخالية من الحياة، كانت مدينة له ببث الروح فيها، لم تكن الشوارع التى مرّا بها والأماكن التى ارتاداها إلا شيء من الأساطير، لم تكن حواراتهما ورسائلهما إلا جزء من رواية لم تُكتب بعد، كل ما بينهما كان حلمًا، لم تجد شيئًا من الحقيقة التى كانت تبحث عنها.

لم تنزوِ وتبكِ جراحها كالمرات السابقة، كانت عادية، تعيش وتتنفس، تُشاركهم الحديث والضحك، تخرج وتواجه الشمس والليل، ترى البشر وتنظر فى عيونهم، لكنها كانت فارغة، هذا الفراغ الذى جعلها تطلب فصلها من العمل دون أن تلوى على شيء، لم تُقرر شيئًا لحياتها، فقط تركت نفسها للمكتوب، لن تحاول أن تُقدم على شيء مرة أخرى ولن تستخدم جناحيها، فقد انتهى زمن المجازفة، هى الآن لا تريد إلا أن تسير بجوار حائط حتى تنتهى حياتها فى أمان وتتكوم وتموت، بالأمس كانت شابة صغيرة تنظر للحب من فوق لتحت وتتركه بكبرياء وترفع، كانت تظن أن لا أحد يستحق كل هذه المفاجآت الجميلة التى تحتفظ بها فى قلبها، احتفظت بمشاعرها بكرًا، وعندما مرّت الأيام ولم

تجد أن حلمها يمسّ الواقع استسلمت، حتى أتى الحلم بعد كل هذه السنوات ليُداعبها مرة أخرى ويؤكد لها أن مشاعرها وهى المرأة التى اقتربت من الثلاثين مازالت بكرًا، فكيف بعد أن فضّ هذا الغريب بكارة مشاعرها تنساه؟ كيف تنساه؟ إن المرأة لا تنسى أبدًا أول رجل يخدش قلبها.

المشكلة أنها لم تعش قصص الحب المراهقة ولا حتى قصص الحب الناضجة، فلم تعرف قبلًا معنى الفُراق، لم تُمارس هذا الفعل أو تعيشه، عندما رحل محمود كانت قد استنزفت كل مشاعرها فلم تشعر بلوعة الفُراق، آلمها غيابه بحكم العشرة والسنين، لكنه لم يؤذها كفُراق الأحبّة، حتى الفُراقات السابقات بينها وبين حسن كانت أشبه بخصام طال أم قصر، أما هذه المرة فهى ليست غاضبة غضب الخصام وليست حزينة ومشتاقة ومنتظرة للحظة العودة، هذه المرة هى تعيش الحياة بإحساس الفقد، لقد فقدت شيئًا ما من لحمها ودمها، كنُطفة طفل صغير بدأت فى النمو، إحساس غريب أن تعيش حياتك بشعور النقصان، لم يكن يُحطمها فى المرات السابقات سوى الأمل فى عودته، لم تكن تعلم أن الفُراق الحقيقى بلا أمل، تُعذبها خيالاته، فتهرع وراءها كالمجنونة، صوته الذى كانت تسمعه، تقويم جسده النحيف الطويل الفتى الذى كانت تراه فى الشوارع فيخطف قلبها، خطواته الهادئة الواثقة التى كانت تلمحها فتنتفض، رقم هاتفه والرسائل التى كانت تُطالعها كل دقيقة، كأنها لتؤكد لنفسها أنه كان هنا، أسوأ شيء فى الفراق هى الجُمل التى تتردد داخلنا «لن أراه ثانية»، «لن أسمع صوته»، «لن يُغازلنى"، «لن أُداعبه»، «لن أتصل به عندما أحتاجه»، «لن أُقابله عندما يستبد بى الشوق»، «لن أراه وهو مُرهق وتعب وأضم رأسه لصدرى"، «لن أُحضّر له المفاجآت والهدايا»، «لن أسمع كلماته النابية الحُلوة منه وحده»، «لن أكون جواره عندما يحتاج إلى «، وكل الجمل الكئيبة التى تبدأ بـ لن.

خطر لها أنه من المستحيل أن تكون عرفته ذات يوم، مستحيل أن تكون تعثرت به فى ميدان التحرير، بل مستحيل أن تكون ذهبت للميدان من الأساس،

مستحيل أن تكون أحبّته وتلقّت حبه، لم تعُد واثقة أن شيئًا بينهما حدث فعلًا، وليس لديها شيء منه، تملك بالطبع أثره على شفتيها والتواء جسده على جسدها، تملك أصابعه وأنفاسه بين طيّات شعرها، لا شيء أكثر، إن ما بينهما سرّ سوف يأتى الوقت ويتلاشى، لن ينكشف، لأن أغلبه كان خيالًا، والخيال يتلاشى لكن لا يموت، كانت رغم كل شيء آمنة وغير أسفة، مازالت تحتفظ بعبق شيء رائع حدث فى حياتها لكنه لم يكتمل، لا تغزل فى خيالها فصولًا إضافية للقصة، فقد نزل تتر النهاية لكنها نهاية بدون قُبل.

كانت تزور مروة لتُبارك لها على مولودها الجديد «حسن»، ما أغربه هذا القدر الذى يزج بالذكرى فى طريقنا لتتوقف أنفاسنا للحظة ونشهق رغمًا عنا بالحنين، كان منزل مروة مختلفًا، أصبح له رائحة اللبن المُقطّر الذى تنزّه الأثداء، كريمات الأطفال المُنعشة، والحفاضات الملوّثة، كانت له رائحة أخرى من الحميمية والدفء، مروة أيضًا كانت مُختلفة، زاد وزنها فبدت وهى بوجه خال من المساحيق وترتدى فستانًا قُطنيًا خفيفًا بفتحة صدر واسعة، وتعقص شعرها عاليًا، كأن حولها هالة من الأمومة العميقة المُتشعّبة، أشبه بآلهة ربّات المنازل.

اعتادت أن تكون دائمًا بين صديقاتها محط الأنظار والحسد، ربما بجمالها الأرستقراطى وأخلاقها، مؤخرًا بتحررها وجموحها، يقلن إنها شُعلة لا تنطفئ وطموح لا يهدأ وشباب لا يغيب، كانت دائمًا خارج نطاق الزوجات العاديّات، فروحها روح شابة مختلة لن تنضج أبدًا، كلهن كُنّ يسردن أحزانهن وأوجاعهن ووحدها تحكى عن أجمل أخبارها وتتباهى بلحظات السعادة القليلة فى حياتها، لكنها الآن ولأول مرة تشعر أنها تحسد مروة، تحسد هذه المرأة المُرتاحة، ممتلئة الجسم، ثابتة الخطوة، هادئة الوجه، المرأة التى تجلس وسط بيتها كأنها ملكة على عرش، هى ليست خائفة ولا متوترة، هى موقنة بأنها سيدة البيت وصاحبة الكلمة، البيت مُرتّب ودافئ برائحة الكعك المنزلى، الطفلان هادئان مُستقرّان كأنهما الملائكة، وهى تُقدّم لها الكعك ولا تتوقف عن تدليل طفلها الرضيع،

فى قلبها رجل وطفلان وفى عقلها لا شيء سوى كيف تُسعد الرجل والطفلان، حسدتها .. كثيرًا.

قررت أن تمكُث فى بيتها بعد هذه العادة الجديدة التى اكتسبتها، الحسد، كانت تحمى الناس من هذا الشرر الذى انطلق عُنوة من عينيها ليحرق أحبتها من حولها، ستُغلق عينيها وقلبها وفاها إن لزم الأمر، حتى لا تؤذى أحدا، وفى خضم هذه الحالة التى سيطرت عليها من الهروب والجزع من تُرهات النفس الضعيفة، أتاها اتصال غير متوقّع من صاحب شركة الملابس، عرفته من صوته الرخيم ولهجته المرحة، بعد الإطمئنان قال:

– موعدنا يوم الخميس الثامن عشر من نوفمبر .. أى بعد شهر ونصف من الآن.

ردت مُستفهمة: أى موعد يا أستاذ؟

– إنه الموعد الذى حددته لنا الوكالة العالمية لخطوط الأزياء للقيام بديفليه عالمى بمدينة الأقصر.

ابتسمت وابتسمت كلماتها وهى تُبارك له، فاستكمل بلهجة أب ومُعلم:

– ثقتى بك كبيرة، أنا أُراهن عليكِ وعلى انسيابية وجرأة خطوطك.

انفرجت أساريرها ولم تمنع نفسها من أبدًاء فرحتها وحماسها:

– وأنا سأكون عند ثقتك بى يا أستاذى .. أنا أحتاج لهذا الحدث وللرسم والتصميم أكثر من أى وقت مضى.

– أنا أعرف يا عالية .. أعرف أن اختلالك وتغيّبك فى الفترة الماضية لن يكون سوى دافع أكبر لك للمزيد من الأبداع، أتعرفين أن أجمل الموديلات وأكثرها إبداعًا تلك التى رسمتها وأنا تحت وطأة ضغوط الحياة؟ الضغط والألم يولّدان أصابع أكثر حساسية وأفكارًا أكثر وضوحًا وشفافية، وأنا منذ رأيتك لمحت فى عينيك هذا الحزن الشفيف الذى يجرح مثل جرح الورق لأطراف الأصابع، لكنى أيضًا رأيت لمعة الثقة وبهاء المُبدعين، ستذهبين غدًا للمكتب وتبدأين فى العمل، وسأحضر بنفسى البروفات.

هـذه اليـد التـى تمتـد مـن بـين الصحـارى القاحلـة ل تُربـت عـلى قلبـك، هـذا الشـهاب الـذى يجتـاح داخلـك المُنطفئ، هـذا الأزرق الصـافى الـذى يخـترق ألوانـك الرماديـة، فيُعيـد الألـوان للسـماء والبحـر والنهـر العـذب، إنهـا أشـياء لا تحـدُث إلا عندمـا تكـون بـؤرة الإيـمان داخلـك لم تتلـوث بعـد، بعـض الإيـمان يكفـى لأن يجعـل مـن الحيـاة فرصـة كبـيرة لا تملـك إلا أن تقتنصهـا، الكُفـر هـو بدايـة السـقوط، وهـى رغـم كل شيء لم تقـترب منـه شـبرًا، مازالـت تؤمـن بالحيـاة والرحمـة والسـعادة والمجازفـات، لـن تخـذل هـذا العجـوز الطمـوح ولـن تخـذل أحلامهـا مـرة أخـرى.

ذهبـت للعمـل بـروح جديـدة، لكنهـا مـا أن وصلـت حتـى داهمتهـا الذكريـات بـكل قوتهـا وعنفهـا، مـن قـال إن الذكريـات رفيقـة الليـل وأن النهـار طيـب بـريء، الشـارع الخالـى الـذى كانـت تصطـف فيـه سـيارتها ثـم تُحدّثـه، الرصيـف الـذى كانـت تقـف بـه لتُحدثـه، النافـذة والشـخبطة التـى كانـت تُشـخبطها عليهـا وهـو يُحدثهـا، الـدرج الـذى كانـت تتقافـز عليـه عندمـا يـرنّ الهاتـف برقمـه، مدخـل البنايـة القريبـة التـى كانـت تختبـئ بـه لتُـدارى وجههـا المُتلبـد بالرغبـة والخجـل والعشـق وهـو يُحدّثهـا، البنايـة الأخـرى التـى صعـد معهـا إليهـا فى مـرة عندمـا زارهـا فى العمـل، بحجّـة أن بهـا مكتبـة قديمـة، ثـم قبّلهـا عـلى الـدرج المُظلـم كمراهقـين، ولم تكـن هنـاك مكتبـة، إنهـا الذكريـات تشـدّها مـن ذراعهـا، تُذكّرهـا باتصالـه الصباحـى الـذى كان يصنـع يومهـا، بصوتـه الـذى كان يهـوّن عليهـا سـاعات العمـل ويُحلّـى قهوتهـا ونهارهـا، بكلماتـه التـى كانـت تسـحبها مـن الأرض للجنّـة، بوهـج مشـاعره الصباحيـة، بسرحانهـا فيـه وهـى عـلى المكتـب، بشـوقها إليـه، بانتظارهـا ولهفتهـا للقائـه، هاهـى الآن وحيـدة، فارغـة، بـاردة، مذبوحـة بسـكين.

يـوم ثقيـل يجُـرّ الآخـر، حتـى بـدأت المـدارس وأصبحـت لهـا مهمـة أخـرى، هـى توصيـل كريـم للمدرسـة، حـضرت معـه الطابـور الصباحـى ورأتـه وهـو يُغنـى ويتريـض، كان جميـلًا بـين الأولاد، رجـل صغـير لـه عينيهـا وشـعر والـده الأسـود الكثيـف، كان ينظـر لها بين الحين والآخر ويبتسـم، شـعرت أنها لأول مرة تـراه منذ مـدة،

لأول مرة تنظر له كأم تريد أن يكون ابنها أسعد وأفضل من فى الوجود، وهى فى طريقها للعمل كانت تُفكّر فيه، كيف أنه كبر ويحتاج لأن تكون صديقة مُتفهمة وليس فقط أم، فكّرت أن تُخصص له وقتًا للمذاكرة وأن تشترى سبّورة ولوحات كبيرة للكتابة والرسم، تُعلقهم فى غرفته، لتجعل من المذاكرة متعة، ثم فكّرت أن تصطحبه للسينما ومسارح الأطفال فى العطلة وأن تشترى له قصصًا ليبدأ بالقراءة وتناقشه فيها، خطر ببالها فجأة أنها المرة الأولى منذ أكثر من عام التى تُفكّر فيها فى شيء غير مشاعرها، كم كانت أنانية، كيف يكون لها هذا الوسيم الصغير، ولا تدع له ولو بعض مشاعرها، إنه الوحيد فى الدنيا الذى يُحبها بدون سبب ويُعطيها ولا ينتظر ويريدها سعيدة دائمًا، أصبح له عالمه الخيالى منذ أشاحت بمشاعرها عنه، لكن هذا لم يمنعه من متابعتها وإدراك لحظات سعادتها ويأسها، كان يُطبطب عليها دون أن تشعر، يهبها قُبُلاته ويُلقى عليها نكاته، وكانت لا تسمع ولا ترى، لكن هذه اللحظة التى اكتشفت فيها أنها أخيرًا خرجت من عباءة التفكير فى رجل، لن تكون الأخيرة ستكون البداية للحظات كثيرة حُرّة وحُلوة بلا ألم.

تعرفت على أصدقائه ودعتهم فى البيت عدة مرات، سمحت له أن يلعب معهم الكُرة التى كانت تحرمه منها خوفًا عليه من الاصابة، أصبحت تُشجعه فى التدريبات لتُشعل حماسه، عوّدته على القراءة كل يوم، وأرسلته إلى مقرأة لحفظ القُرآن، كانت تحاول بكل ما فيها أن تحميه وتُحصّنه ضد الوجع، وأن تجعله يعى ويُجرب كل الأشياء التى لم تعشها، ضحكا سويًا ولعبا، تناولا الحلوى وتبادلا الأدوار فى مرح، لكنها لم تُشف تمامًا، كانت هذه النوبات الحادة من الاشتياق تنتابها فتنتحى بنفسها وتبكى وحيدة وهى تتجرع مرارة الفُراق ثم تستسلم له فى يأس، عندما بدأت البروفات اشتدّ حماسها وأتى صاحب الشركة ليُشعل الشغف الخامل فيها، صحيح أنه أشاد بعملها وخطوطها، لكنها لم تشعر أنها أعطت المطلوب، ليس هذا كل ما عندها، راحت تقضى الليالى الباقية قبل موعد

السفر تُعدّل وتُضيف لتصاميمها، كانت تنقصها بعض الأدوات لم تجدها بالمحال القريبة المتعارف عليها، لذلك نزلت وسط المدينة لهذا المحل القديم الذى تعرف جيدًا أنها ستجد غايتها عنده.

سارت فى تحفُظ وهى تلملم أطراف ثوبها حتى لا تعلق بآثار خطواته أو بعبق أنفاسه، كانت مُتسلّحة ضد الذكريات بكل لحظة جرحها فيها، كل لحظة تلكّأ فى مُقابلتها أو لم يرد على اتصالها فيها، كل لحظة فارقها فيها ببرود، كل لحظة كان قلبه فيها أقسى من الحجر، اشترت ما تريد وغادرت المحل فى خطوات سريعة خائفة، والخائف دائمًا يتعثّر فيما يُخيفه، رأته عند مطلع محطّة المترو، وسيمًا واثقًا كعادته، لاحظت بعض الذبول فى عينيه، لم تجد الوهج القديم، لكنه لم يكن وحده، كانت جواره فتاة مُحجّبة عادية الملامح، من هذا النوع الذى لا تتذكره إلا عندما تراه أمامك، لم يُغفلها، استقرت عيناه عليها فأجفلت واستمرت فى السير بخطوات واثقة كأن شيئًا لم يكن، حتى بعدت عنهما ثم استقلت سيارة أجرة وعادت، ألقت بنفسها على سريرها وقد ملّت من محاولاتها الفاشلة فى طرد صورته برفقة الفتاة، فتركت نفسها لأسئلة الذات، وما أصعبها أسئلة الذات، فهى أسئلة لا إجابة لها ولا فائدة منها سوى توسيع بُقعة الألم، ماذا كانت تنتظر منه، أن يبكى عليها ويعيش أسير قصتهما؟ أن يندم ويأتى راكعا باكيا؟ ماذا انتظرت منه وهو الذى تركها وانسحب عندما وصلت المشاعر لذروتها، يجب أن تكبس زر النسيان للأبد، فهذا هو الشيء الوحيد الذى يستحق أن تتعب من أجله، أن تنساه.

لم تسمح لهذه الانتكاسة أن تعبث بها، قاومتها بالصلاة الطويلة والدُعاء، قاومتها بالعقاقير المُضادة للاكتئاب، قاومتها بكريم الذى وعدته أن يكون رفيق سفرها، باق من الزمن يومان على السفر، وبعد أن كان هو بوابتها للتحليق ومُكتشف الأجنحة، لن يقف هذا الغريب حاجزًا أمامها طول العُمر، أحبته غريبًا وسيظل غريبًا لأنه لم يستطع أن يرتقى بنفسه عن هذه الصفة التى

التصقت به، غريب من الغُربة والغرابة، غريب منحها الأجنحة لكنه أبدًا لم يمنحها الوطن والأمان، كان يحمل لها دائمًا سكين الغدر، وكانت تقف أمامه دائمًا مُتسعة الصدر، كأنها تتمنى وتُرحب بالموت بيده، لكنها الآن قررت أن تكون حيّة، حيّة ترقص وتُغنى ولا تعبأ بالألم، أعدّت تصاميمها بعزم ومُثابرة، كانت تُريد أن تصفعه وتصفع كل القيود بنجاحها، فى البروفة الأخيرة فاجأت مُديرها وباقى زملائها بإضافاتها الجديدة التى جعلت التصاميم تنطق بالروعة، بروح الشرق وبساطة الغرب، وكانت لحظة سعادة حقيقية لم تشعرها منذ شهور عندما وصف صاحب الشركة تصاميمها بالأناقة المُتحررة.

عند المساء كانت تجلس مُمتقعة فى زاوية غرفتها، بعد غد السفر وهى مازالت لم تُعدّ الحقائب أو تُجهّز الفُستان الذى سترتديه فى الديفيليه، شيء ما يُعرقلها، كلما نهضت يجذبها مرة أخرى للأسفل، لحظات سعادتها لا تكتمل، مازال شعورها بالنُقصان يُعكر حياتها، دخلت عليها أمها الغرفة فوجدتها تبكى فى صمت بدون أى تعبير على وجهها، سألتها بحنو: لماذا تبكين الآن؟ إنه ليس الوقت المناسب للبُكاء.

ردّت بابتسامة باهتة: يبدو أن البكاء أصبح عادتى يا أمى...

- لكنك الآن فى مرحلة مهمة يجب أن تضعى تركيزك بها.

أشاحت بيديها كأنها تقول لا يُهم، فعادت أمها تقول:

- هذا التأرجح بين أقصى درجات السعادة وأقصى درجات اليأس، وهذا التخبط بين النجاح والإحباط .. لماذا؟

- لسبب بسيط يا أمى .. لأنى أشعر باللا انتماء.

- لا أفهمك يا ابنتى.

- من الأفضل ألا تفهمينى...

ضمّتها أمها وهى تقول:

- يا ابنتى النقيّة البريئة .. لا أتحمل أن أراك حزينة.

- أنا لستُ نقيّة ولستُ بريئة لو تعلمين .. أنا لستُ ملاكًا يا أمى.

- أنت لا تعرفين شيئًا عن الشياطين حولنا، لو عرفت لأدركت أنك ملاك.

ابتسمت عالية بسخرية وهى ترد:

- إلى متى ستحسبيننى بريئة يا أمى .. أنا إنسانة ولست ملاكًا، من قال إننا كبشر لا يجب أن نخطئ؟ من نفى عنا بشريتنا؟ من قال إننا يجب أن نتكلم طول الوقت بصوت هادئ ولا ننفعل ونغضب ونثور؟ من قال إننا يجب أن نكون مُنظّمين دائمًا ولا نُقدّس أحيانًا الفوضى؟ من قال إننا يجب أن نُحب الخير دائمًا ولا نُلبى نداءات الشر والغيرة؟ من قال إننا يجب أن نلعب دائمًا دور الأم والمسؤولية ولا نحتاج بشدّة لبعض التدليل والكسل؟ من قال إننا نمشى كالملائكة فوق السحاب ونتحسس خطواتنا ولا نتعثر فى الأخطاء الأرضية؟ حتى وإن كست البراءة ملامحنا فهذا لا يعنى أن ليس لنا مخالب.

- وهل أصبح خطأى أنى ربيتك على أن تكونى ملاك؟ أم أنه خطأ الغيلان حولنا؟

- لا يهم من المخُطئ .. المهم أن النتيجة أنى أصبحت لا أنتمى للملائكة ولا الغيلان.

صمتت الاثنتان حتى شعرت عالية بأنها فى لحظة واحدة ستُدمّر لهذه المرأة كل قناعتها بأن أبناءها ملائكة، وأن تربيتها مثالية والحياة وردية والمشاكل ستنتهى والستار سينزل على عائلة سعيدة مُترابطة من الملائكة، قبّلت رأسها وقالت وهى تبتسم:

- حسنًا .. فلتساعدينى فى اختيار ثوب الحفل.

«لماذا يا أمى أخبرتينى أننى لا يجب أن أخطئ .. عشتُ حياتى أتلمس الصح ولا أخطئ أبدًا! قلت لى أن الاستغفار ثلاثًا يمحو الذنب .. صدقتك واستغفرت، لكنى لم أندم .. ليس لدى سبيل للندم .. ولم أعرف قبلًا كم هى صعبة .. التوبة.

لماذا يا أمى كل شيء عندك كان جميلًا وأبيض؟ ألا تعرفين أن الحياة بها الكثير

من القبح والسواد؟ ماذا أفعل بنظارتى الوردية الآن؟ حطمتها الحياة لو تعرفين .. والطفلة الشقراء الضحوكة داخلى أصبحت تبكى بصوت عال .. وتتمنى لو كانت أخرى .. أقوى.

أتعرفين يا أمى أنى أخيرًا تمردت .. ألقيت حذائى العالى ومشيت حافية، استبدلت فستانى الأبيض بآخر أحمر، وشعرى المهذب بآخر غجرى، رسمت عيونى بكحل فاحم، نحيت براءتى، نزعت الاحترام المبالغ فيه من عباراتى، وضعت بمعصمى العديد من الأساور يغطى صوت صليلها صوت بكاء طفلتى الحمقاء، وغادرت أرضك الساذجة، مشيت بسعادة فى الأسواق، سهرت أناجى القمر فى الطلّ وليس من وراء الشباك، وابتسمت للشمس عندما طلت على عيونى التى لم تنم، ترددت على المقاهى ومشطت الشوارع بحثًا عن ذاتى، رقص قلبى فرحًا بحياة الصعاليك التى طالما نشدها وُبحرّية دبت بين أوصاله.

لكن لم يدم الأمر طويلًا يا أمى .. نظرات الناس لى كانت غريبة، قاسية، قاصية، أخبرتهم أنى «أنا» قالوا لا لست أنت، نظرتك تقول أنك لست من هنا، أنت أميرة تائهة ضائعة .. عودى إلى شاطئك الآخر .. فليس هنا مكانك والسعادة هنا ليست من حقك ولا تليق بك، اذهبى إلى قصرك البارد، اجدلى شعرك ضفائر واخلعى خلخالك، اخفضى صوت ضحكتك واحبسى أنفاسك، عودى لأرضك الطيبة كما كنت.

و ها أنا عدتُ يا أمى بعد أن لفظنى الشاطئ الآخر .. طريدة الجنّة أنا وطريدة النار...

اطلبى لى الرضا .. والرحمة يا أمى.

❋❋❋

(٢٩)

الليل انتصف والقمر يُداعب بنوره المُتلألئ ظلام الليل ويُضيف بعض الأمان لحُضنه الموحش، الشبّاك مازال رفيق ليلتها الطويلة، كانت ساهمة لا تدرى كيف تحوّلت حياتها بهذه الصورة فى غضون عام، من ربّة منزل بريئة لا تعرف إلا حضن زوجها إلى امرأة وحيدة عاملة لها العديد من التطلعات والأحلام، ربما كانت أسعد فى حياتها الأولى، لكنها كانت سعادة من لا يعرف، سعادة من كان بينه وبين الحياة حجاب، وضعه زوجها على أمل أن تظل ملك يديه للأبد، لم يكن يعلم أن الحجاب سينقلب عليه ويُطيح بكل قواعده، أما سعادتها الآن فلأنها حُرّة، لا تضطر لتمثيل الضحك والابتسام والرضا، لا تتسوّل المشاعر والعطف، لا تقف موقف المُذنبين ويقتلها التقريع واللوم ببُطء، هى الآن مسؤولة عن كل تصرفاتها، حتى وإن أصابتها العديد من الجروح والكثير من التلوّث نتيجة هذه الحُريّة المُستحدثة، فهى مازالت قادرة على أن تنهض من جديد وتستكمل المسير بنُضج أكبر.

ذهبت إلى بيتها فى التجمع الخامس مُضطرّة، كانت تتحاشى الذهاب إليه، لكنها الآن بصدد المواجهة التى أجّلتها كثيرًا، اضطربت ضربات قلبها منذ وصلت للشارع المؤدّى للمنزل، عندما وقفت أمام المدخل الفسيح تذكّرت هذا الرجل الوسيم بالبذلة السوداء الذى حملها هنا وهى عروس ودخل بها للبناية بين التصفيق وفلاشات الكاميرات، أشار إلى الأرض لتجد باقة زهور كبيرة فى مدخل الشقّة، الباقة أصبحت مُتربّة، والزهور الجافة ضاعت ملامحها، البطاقة

القديمة مازالت بمحفظتها تحتفظ بخطّه المنمنم وهو يُخبرها أنها ملكة هذا البيت، ابتسمت بسخرية وهى تتذكر كلماته بعدها بعدة سنوات عندما أخبرها فى زُمرة غضبه أنها هنا فى بيتها الذى تعرّقت فى كل ركن فيه، ضيفة ليس أكثر، بكت يومها كثيرًا وشعرت لأول مرة أنها ستُغادر هذا البيت فى يوم ما.

جمعت أغراضها سريعًا من خزانة الملابس وبعض العطور وأدوات التجميل من التسريحة، كل قطعة بالمنزل كانت تُحدّثها بصوت شبحى كميّت أيقظته ريح الحياة، المرآة التى تطُل على السرير كانت تُحدّثها عن صورتها التى اختفت، براءتها، نظرتها الحزينة، مُحاولتها للتبرج لحبيب لا يأتى، شعرها النائم بصمت فوق رأسها، شفتاها المُستسلمتان لجفاف الحياة، جسدها الذى كان يئن كهرّة محبوسة، كل هذا اختفى، أصبحت فى المرآة امرأة أخرى، لها نظرة غاضبة مُتحدّية، بشعر قصير متمرد، وشفاه مصبوغة بلون صناعى من السعادة، لفتت نظرها المرآة للخطوط الرفيعة التى نبتت على جانبى عينيها وفوق جبينها، وإلى الهالات الداكنة التى ظهرت تحت عينيها، ارتعدت من هذه العلامات ودوّنت فى مُفكرتها أنها تحتاج لشراء بعض الكريمات لتُخفى آثار الشهور الماضية، السرير أيضًا كان يُحدّثها، يُذكّرها بليالى العشق القليلة وليالى السُهد والحُزن الطويلة، تعرُجاته تحمل انحناءات جسدها الذى تلوى عليه عشقًا وشوقًا وألمًا، مازالت وسادتها تحمل بقايا الدموع وأنّات الوحدة والألم، اقتربت منها وهمست لها أن هناك وسادة أخرى فى بيت أهلها تحمّلت عنها هذا العبء، وسادته أيضًا كانت مازالت تحمل رائحته وانخفاضة صغيرة عند موضع رأسه الذى ما عرفت ما به أبدًا.

بعد أن انتهت من جمع حاجياتها تجوّلت فى البيت كأنها تبحث عن قطعة أُخرى تُريد أن تقول شيئًا، لعب المطبخ والحمام الدور الرئيسى لتذكيرها بقسوته وبطشه بها، هنا ضربها على وجهها، هنا أطاح بها على الأرض، هنا رزعها فى الحائط، هنا لكمها، هنا سبّ الأيام التى جمعتهما، هنا لعن الحياة التى جعلتها من نصيبه،

هنا تجاهلها وكأنها لم تكُن، هنا صنعت كل الطعام الذى لم يُعجبه، هنا حاولت مرارًا أن تكون سعيدة وتُدندن وهى تتنقل بين المُهمّات، دون فائدة، تركت ضجيج الذكريات ودخلت لغرفة المعيشة، تفحّصت مكان جلوسه الذى كان أبعد ما يكون عن مكانها، كان مازال فى انتظاره، هكذا أخبرها، صورة زفافهما الكبيرة أخبرتها بسرّ غريب، أنه رغم كل ما مرّ بهما، رغم ألمها الفادح فى حياتها وقسوته معاها إلا أنه أحبها حبًا حقيقيًا، لكن ما فائدة الحب المقُترن بقسوة؟ ماذا يعنى الحب الذى تنتفى منه الرحمة والمودّة؟ هل الحب أن يحبسها فى شرنقة لا ترى النور ثم يُقرّعها لأنها لا تطير مثل الفراشات حوله؟ هل الحب أن يمنع نفسه عنها ويتركها للوحدة تنهشها؟ هل الحب أن يُدمرها نفسيا وجسديا ثم يطلب منها أن تكون قوية، هل الحب أن يخونها بالنهار ثم يأتى فى المساء ليجدها جميلة مُخلصة فى انتظاره دائمًا ؟ إذا كان هذا هو حبه فالأفضل لها أن تعيش بلا حب.

أكثر ما أحزنها عندما زارت بيتها لم تكُن الذكريات بحلوها ومُرّها، ولم تكن الفتاة البريئة التى فقدتها فى الطريق، لكن كانت غرفة كريم، الغرفة الوحيدة التى صنعاها بحب، سريره الذى يُشبه سيارة فى مُقدمتها كشافات، هى إضاءات ليلية خافتة، الجدران الممتلئة بملصقاته ورسوماته الطفولية البسيطة، دراجته الصغيرة التى يتدلى منها الورق المُفضض المبُهج، كانت هدية عيد ميلاده الخامس، ألعابه الكثيرة التى تملأ المكان، أنفاسه الطاهرة السعيدة التى تنبعث من كل رُكن، جعلتها هذه الغرفة تُقرر أن تنقلها له عندما تعود من السفر، فمن حقه أن يستمتع بأشيائه لا أن يُحرم منها لمجرد أنها ضمن بيت لم ينجح فى خلق السعادة لأصحابه.

كانت هذه هى الليلة الأخيرة لها قبل السفر، اتصلت بصديقاتها لتستمد منهن بعض الدعم والدعوات الطيبة، اطمأنت على عُلا التى كانت تحمل بتوأم، وغزل كانت كما هى تعيش حياتها طولًا وعرضًا ولا تسمح للنكد أن يتسلل

إليها، لا تدرى لماذا كان يشغلها أن تتصل بنورا، رغم صداقتهما الضعيفة، كانت تتوق لأن تعرف مصير زواجها من هذا الزوج الخائن، صوتها كان ينقصه نبضة، توقعت عالية أن الأمر لم يتمّ مثل كل القصص البائسة، فسألتها دون مواربة عن إذا كان الزواج تمّ بالفعل، ردّت عليها نورا دون أن تُبدى أى انفعال:

– نعم يا عالية تزوجنا منذ شهور ثم انفصلنا من أسابيع.

فزعت عالية وصمتت لثوان ثم عادت تسألها (لم؟) أجابت ببساطة أيضًا:

– لو كنت ضمن باقى الصديقات كنتُ أخبرتك أننا لم نتفق وتوقفت، لكن يا عالية شيء بك يجعلنى أريد أن أظهر أمامك دون رتوش أو تجميل، ربما لشعورى بأن روحك هائمة ومحتارة .. تحتاج دليلًا.

أدركت عالية أن نورا مرّت بنفس الشعور الذى يُساورها، هما مُحتاجتان لبعضهما، لأن جروحهما متشابهة، فهى تشعر بالضعف الذى يعترى امرأة وحيدة تُحب ويجعلها تتنازل عن مبادئها وتُغيّر من قناعاتها فى سبيل هذا الوهم الأحمق، أكملت نورا بثبات امرأة تعتز بنفسها رغم كل شيء:

– ما حدث يا عالية أنى شعرت أنى جزء صغير من حياته بينما هو كل حياتى .. صعب أن تتزوجى من رجل ليملأ فراغاتك فتجدى أنه جعلها أعمق وأكبر، لم تكن الخيانة هى كل الأمر، فقد اعتدت نزواته الصغيرة وتغاضيت عنها برضاى، كان يؤلمنى أن أنام معه وأنا أعرف أنه ذاهب لمُقابلة إحدى صديقاته بعدها، المشكلة كانت أنه ملّنى، ملّ حبى وحصارى له كما سمّاه، أصبح يُعاملنى بشكل مهين، يُغلق الخط فى وجهى، يتركنى ويرحل دون مُبررات، لا يُخبرنى عن وجهته، يتحاشى الخروج معى للأماكن القريبة من عمله أو بيته، ثم كانت الطامة الكبرى عندما كتبت له ورقة أُصالحه بها ووضعتها فى جيبه، كنتُ أظنه سيقرأها، لكن من وجدتها هى زوجته، وظنّ أن الموقف مقصود، استأت من ظنّه بى، واتسعت بعدها المسافات بيننا أكثر.

قاطعتها عالية وهى تشهق من التوتر:

– لكن كل هذا لا يؤدى للطلاق .. خاصة أنكما كنتُما فى الشهور الأولى من الزواج.

ضحكت نورا ثم ردّت وهى تتكأ على الحروف:

– يا عالية الزواج الثانى غير الأول تمامًا .. حرصنا على إتمام الزواج الأول والمُضى فيه تحت كل الظروف وتخطى العام الأول الصعب ليس له وجود فى الزواج الثانى .. الذى نُحملق فيه بكل عيوننا حتى نرى ما أضافه لنا وما انتقصه منا، الزواج الثانى تجربة تحتمل النجاح والخسارة. مجازفة أخرى نبحث بها عن السعادة ونتخلى عنها بسرعة إذا لم تُحقق المرُاد.

– لكن يا نورا .. كيف يُضيعون الحب بهذه البساطة؟

قالت نورا وكأنها تواجه نفسها لأول مرة: بعض الحب يندثر بتحقيق العلاقة الكاملة.

– كنتُ أظن العلاقة بين الأحبّة تزيد من ارتباطهما .. تجعلهما كيان واحد وتجعل بينهما ميثاق غليظ من العشق.

– هذا إذا تفوّق الحب على الرغبة .. فى حالتى كانت رغباتنا تسبق حبنا .. هكذا اكتشفت.

– إذن أنتِ أيضًا لم تعُدى تُحبينه؟

صمتت قليلًا ثم أجابت بتنهيدة: لن أكذب عليك، كنتُ ومازلتُ أُحبّه .. لكن ملعون أبو الحب الذى يجعلنا ندهس كرامتنا كل يوم.

– إذن أنتِ بخير؟

– أنا بخير.

– وأنا أيضًا بخير.

قالتها عالية وهى تعنيها، نعم هى بخير ما دامت تحمل قلبًا لا يخفق بالحب لأحد.

أيقظها فى منتصف الليل رنين داخلى، كأن روحها تعلن أن وصلتها رسالة، نهضت بجسد مُرهق وعقل مشغول بالسفر والحياة الجديدة التى تُشرع أمامها، ألقت نظرة على هاتفها الذى ضبطته على الوضع الصامت وجدت رقمه، رقم حسن، لم ينخلع قلبها من مكانه، ولم تصعقها الدهشة وتُلجمها المفاجأة، الساعة شارفت على الثالثة صباحًا، التوقيت المناسب تمامًا لجنونه، ماذا يُريد بعد كل ما كان؟ بعد أن كادت أن تفقد حياتها وبعد أن فقدت بالفعل ثقتها بالتحليق عاليًا وإيمانها بالحب، كانت تعرف أن اليرقة عندما تُغادر شرنقتها تتغذى على الحرير، هكذا علّمتها الحياة مع محمود، فإما أن تظل فى الشرنقة أو يفسُد الحرير، اختارت الشرنقة، وعندما عرفت مع حسن مُتعة التحليق عاليًا لم تعبأ بكون الفراشات أعمارها قصيرة، اختارت أن تكون فراشة تعيش بعض السعادة والحُرّية تموت بعدهما وقلبها مُمتلئ بالنشوة، لكنها خرجت من شرنقتها وأفسدت الحرير، طارت بأجنحتها الملوّنة ووصلت عنان السماء، حتى سقطت من أعلى نقطة، أيقنت حينها أنها أخطأت عندما طارت بجاذبية حسن، والآن أجنحتها نبتت مرة أخرى دون جاذبية وتتوق للطيران، ستُحلّق تمامًا فوق أرضها، حتى لا تسقط فى جوف أرض ليست لها، وعندما تحتاج للأمان تجد وطنًا يؤويها ويكون ملاذها.

أمها تقود السيارة ببُطء فى اتجاهها للمطار، كريم تغمره السعادة ولا يتوقف عن الكلام والأسئلة، كانت تنظر له بحب وفخر، هذا الرجل الوسيم الصغير صاحب العيون اللامعة، سيكبُر ويكون أجمل الأحلام عندما تتحقق، حبه يجرى فى قنوات دمائها كملاح سعيد يترنم بأحلى الألحان. كانت هادئة مثل مدينة مُحترقة لا يتبقّى فيها إلا الرماد وبقايا دخان، لكنها عزمت على إصلاح ما أفسدته الحرائق، وبداية الطريق من هنا برفقة هذا الصغير، توقفت أُمها عند محطة للوقود، بينما نزلت هى لإحضار بعض الحلوى والعصائر من الكافيتريا الملحقة بالمحطة، عندما دخلت رأت آخر ما يمكن أن تتوقعه فى هذا النهار الطيب، رأت فرح وهى تجلس ضاحكة على مائدة صغيرة وجوارها رجل فى

حوار مُتصل مع كل ما فيها، كان هو العاشق الجديد بالتأكيد، تمعنت عالية فى النظر إليهما، أول ما لفت نظرها الدبلة الفضّية فى يده اليسرى وهى كما هى دون دبل، ضحكت ساخرة وهى تردد داخلها «متزوج آخر!»، تجنبت المرور بهما حتى تتحاشى مواجهة لا معنى لها، كانت صُدفة تُشبة الصُدفة القديمة فى ليلة العيد، مع اختلاف العاشق، ابتسمت ابتسامة جانبية بنصف شفتيها وهى تتذكر العاشق الأول الذى أفسد كل شيء.

كانت تجلس فى السيارة فى حالة أشبه بالخدر، دمدمت ببعض الكلمات « لا شيء حقيقى .. لا شيء حقيقى"، ثم وجدت نفسها تترنم بنفس الكلمات « لا شيء حقيقى .. لا شيء حقيقى"، كانت تُغنى بصوت نشاز وهى تطرد أى فكرة عن رأسها المتُعب، ضحك الصغير على الأغنية التى طورتها «لا شيء حقيقى كلكم مُزيفون .. كلكم ملوثون .. لا شيء حقيقى .. لا شيء حقيقى"، أدركت أمها أنها ليست فى حالتها الطبيعية فحاولت أن تحكى لها الحواديت كعادتها عن الأهل والأقارب، كانت عالية تومئ برأسها وهى تُردد «مم .. آه»، دون أن تُحاول أن تسمع شيئًا، وصلوا المطار فحاولت أن تستجمع ثقتها وكل ما تعلمته عن التحليق، إنها أمام عالم جديد وسماء مُتسعة بألوان عدة، اختارت لنفسها اللون الأحمر البرّاق لتُحلّق به، جريئة وحُرّة، بعيدًا عن ألوانها القديمة الباهتة وألوانها الحديثة المتُناقضة، الآن هى تعرف كيف تُحلّق وإلى أى حد تمامًا قبل أن تحترق أجنحتها مرة أخرى.

****

ما أن لمست عجلات الطائرة أرض القاهرة حتى دقّ قلبه بسعادة لم يشعرها منذ عام كامل قضاه فى بلاد الثلج، لم تكن سعادته لوصوله لوطنه، لكن سعادته كانت لأنه أتى ليُلملم شتات نفسه ويضم وطنه الحقيقى للغُربة، فتُصبح الجنّة فى بلاد الثلج ويغمر الدفء القلوب، لقد قضى الشهور الأخيرة وهو يُعدّ كل شيء، اشترى منزلًا أكبر له طابقان، به مطبخ رحب وأثاث حديث بذوق بسيط

يُشبه ذوق عالية، يُطُل على حديقة صغيرة خاصة بهم حتى يتسنى لهم أن يتناولوا إفطارهم بها، كما اختاره ليكون قريبًا من أكبر مركز تُجارى بالمدينة لمعرفته بولع عالية بالتسوق، تعرّف على كل أماكن التنزه التى ستُسعد كريم وعزم على أن يذهب معه للسينما ويشاهدا أفلام الكارتون سويًا، استقر أيضًا على مدرسة جيدة ليُلحقه بها وأعدّ نفسه لدفع الأقساط، كما حرص على الاشتراك فى كل القنوات العربية حتى يتسنى لعالية متابعة الأفلام والمسلسلات والبرامج كما تُحب، كان أحيانًا يتعجب من نفسه أنه لم يعُد يحسب الحسابات ويحمل همّ المصاريف، قرر أيضًا أن يُعلمها قيادة السيارة وأن يسمح لها بالعمل من خلال الإنترنت إذا توفّر ذلك، كان يتحسس جيبه وهو يسير فى المطار فى سعادة، فقد أحضر لها خاتمًا ماسيًّا رقيقًا يُناسب يدها الصغيرة المدموجة، سيخطُب ودها به ويبدآ حياة جديدة هادئة بعيدًا عن تلوّث القاهرة وضجيج البشر.

سار فى المطار بسرعة وخفّة، شعر أن بإمكانه أن يضُم اليوم الناس كلهم بما فيهم البُسطاء المُهلهلون الذين طالما أثاروا حفيظته، بإمكانه أن يضُم الكون إن استطاع، تفقّد السوق الحُرّة بشوق يملؤه واشترى منها عطرًا صغيرًا له وآخر لعالية، كان فى حالة من النشوة تسمح له بشراء الدنيا كلها إن أمكن وبسطها تحت قدميها حتى يُعوضا الأيام الثقيلة التى مضت من حياتهما، لم يشأ أن يُخبر أحدا بموعد عودته، حتى أهله، ولم يُفكّر رغم اشتياقه أن يُرسل لعالية أو يُحاول الاتصال بها فى الشهور الأخيرة، كان يُجنّب نفسه ويُجنّبها الكثير من العتاب القاسى المُرّ والمُبررات التى لا معنى لها، عاودته عادته القديمة فى صناعة المفاجآت، وهذه هى أكبر مفاجأة أعدّها فى حياته، بل إنها هى حياته.

❋❋❋

(٣٠)

رنّ هاتفها مُعلنًا عن رسالة جديدة.

وجدت أن الرسالة منه، من مُعذّبها، الرجل الذى قال أُحبّك ولم يفعلها، الرجل الذى ألقى بها فى الوحل ثم اشمأز من تلوّثها، الرجل الذى نزعها من حُضنه ورماها من فوق السحاب، الرجل الذى قادها للجنون ثم صدمها بالعقل، الرجل الذى رفعت له كل أعلامها البيضاء فقتلها بدون اكتراث، لم تُفكّر للحظة بأن تقرأ ما كتب، فكل ما سيقوله سواء، كله عبث، كذب وخداع، وهى لا تملك إلا قلبًا مُمزقًا تُفلت منه الكذبات بسهولة، فتحت الهاتف وأخرجت شريحة الخط، أسقطتها ببساطة وهى مازالت تسير، أسقطتها كأنها تُسقط جنينها، حبها المُجهض، لا تُريد أن تحمل منه أى أثر، التلوّث يكمن فى أعماق النفس البشرية، أما التلوث الذى يُصيبنا من الخارج فتُذهبه توبة وتطهر، وقد تطهرت كثيرًا من الخارج وهاهى فى طريقها لرحلة تُطهّر الروح، وتُعيدها عالية الفتاة التقيّة والأم العاشقة والمرأة التى لا ترتبط سعادتها ونجاحها برجل، المرأة الحُرّة التى ستُحلّق من اليوم بالحب أو بدونه.

مشت فى المطار بجوار الصغير بثقة كبيرة، ترتدى فُستانًا أحمر خريفى بحزام عريض يُظهر رشاقة خصرها بعد أن فقدت الكثير من وزنها فى الأيام الماضية، وحذاء بكعبٍ عالٍ يُصدر إيقاعًا موسيقيًا مُنظمًا، عيناها تبرقان بشعاع الجاذبية ولمعة الثقة .. لا تهتم بنظرات البشر وعيونهم التى تُلاحقها .. ولا تكترث بشيء سوى السير فى طريقها، نظرتها ثابتة وخطواتها مُصرَّة على شيء ما.

(رسالة حسن التى لم تقرأها عالية)

ونحن أيضًا يا حبيبتى إذا كتب أحدهم قصتنا ذات يوم فيجب أن يبدأها بـ كان يا ما كان ..

فقصتنا كقصة الجنية والأمير فى كل الحكايات القديمة ..

أعشقك يا صخب الحياة ..

انتظرينى فى المطار فأنا فى طريقى لأُشاركك التحليق ..

تمت

***

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com